#1 NEW YORK TIMES BESTSELLER



آيات شيطانية

آيات شيطانية

آيات شيطانية

سلمان رشدي



الفصل الأول

قبيل فجر يوم عاصف من أيام كانون الثاني - والذي ربما كان يوم رأس السنة - سقطت طائرة (البستان) وهي طائرة من طراز جمبو جت أثناء قيامها بالرحلة رقم أي. أي. 420 من الهند إلى بريطانيا - حيث انفجرت وتناثرت فوق منطقة القنال الإنكليزي بالقرب من لندن، وذلك من على ارتفاع شاهق يبلغ تسعة وعشرين ألف قدم وقدمين (29002).

وفي تلك الأثناء، ومن خلال الهواء البارد المخلخل الذي يتساقط عبره مطر من أشلاء ركاب الطائرة وحطامها، يهوي رجلان من الركاب وقد أصيبا بما يشبه حالة من الأحلام الهذيانية.

هذان الرجلان هما جبريل فاريشتا ممثل السينما المشهور وصلاح الدين شمشا الممثل البريطاني من أصل هندي.

وفي هذه الأحلام الهذيانية التي ربما كانت نوعاً من أحلام اليقظة يتوثب جبريل فاريشتا ويختال وهو يسقط. صائحاً في تلك الأجواء المتجمدة ويترنم بأغنية لا تصاحبها الموسيقى، يرتجل كلماتها ويقول فيها بصوت مرتفع:

إذا رغبت أن تولد من جديد..

فلا بد لك أولاً من أن تموت..

وإذا شئت بأن تهبط على صدر الأرض الناهد..

فلا بد لك قبل ذلك من أن تطير وتحلق

كيف لك أن تسترجع ابتسامتك المفقودة..

قبل أن تعرف مرارة البكاء..
وكيف تنعم يا سيدي بقرب الحبيب..
إذا كنت لم تذق آهات اللوعة والفراق؟.
إذا شئت أن تولد من جديد..

ويصيح به صلاح الدين شمشا الذي كان يسقط رأساً على عقب غير بعيد عنه وهو يرتدي بزة رمادية اللون مزررة بعناية وقد ثبت ذراعيه بإحكام على جانبي جسمه، وعلى رأسه قبعة سوداء مستديرة تضفي عليه مظهراً لا معقولاً.. يرد عليه بغضب: (إلى الشيطان أنت وأغنيتك.. لقد كنت في أفلام السينما تقف خلف المغنين الحقيقيين وتكتفي بمشاركتهم بصورة إيمائية وكأني بك كنت تدخر هذه الأصوات اللعينة حتى تصبها الآن في مسامعي..).

يتجه صوبه جبريل فاريشتا بحبور وهو يتخذ وضعيات طريفة مبتكرة ويقول له: أوه.. صلاح يا عزيزي.. أهذا أنت؟ عظيم جداً أيها العجوز شمشا..

ويضيف: "هيي أيها الأحمق.. ها نحن فوق لندن الجميلة.. ولن يكون بمقدور أولئك الأوغاد القابعين تحتنا أن يعرفوا ماذا حدث.. لن يعرفوا ماذا كان هذا الساقط فوقهم شهاباً أم صاعقة أم نعمة إلهية.. يا للهول.. أية بداية لسنة جديدة؟ أقسم أنها ستكون طامة كبرى في تلك اللحظة يعلو دوي انفجار الطائرة ويعقبه ما يشبه النجوم المتناثرة المتساقطة. بداية كونية جديدة.. صدى مصغر لولادة أزلية متجددة. تشق الطائرة من منتصفها تماماً كما تنشق

بذرة النبات، لتنبثق منها الأبراغ.. أو كبيضة تطرح ما فيها من حياة مجهولة..

أما بطلا ذلك المشهد فهما جبريل المتوثب المحتال..

وذلك المحترم ذو السترة المزررة بعناية صلاح الدين شمشا.. فيهوي كلاهما كما تهوي نثارتا تبغ من سيجار سيئ، تحيط بهما من كافة النواحي أجزاء الطائرة وأمتعتها وأشلاء ركابها.

أصيب جبريل وصلاح الدين بصدمة خفيفة من جراء الانفجار، ويتابع صلاح الدين سقوطه رأساً على عقب في الوضعية التي يتخذها جنين ينطلق خارجاً من قناة الولادة.. ويحس بالضيق والتبرم لرفض جبريل أن يهبط بالطريقة نفسها.. حيث كان فاريشتا يستقبل الهواء معانقاً إياه بذراعيه وساقيه.

وكانت تلوح تحتهما في تلك الأثناء منطقة القنال الإنكليزي وقد جللتها الغيوم وراحت تياراتها تتجمد ببطء، وكانت تلك هي المنطقة المحدودة لهما ليحزا فيها نصفها المائي. ولقد أزعجت السيد صلاح الدين شمشا الأصوات التي أطلقها جبريل فاريشتا فرد عليه بأشعار كان يفترض أنها من نظمه. غير أن ما سمعه فاريشتا يتردد في أرجاء السماء في ظلام تلك الليلة الدامس لم تكن إلا أغنية قديمة وأشعار غائبة ألفها السيد جيمس تومسون بين عامي (1700-1748)، وتقول كلماتها "بأمر من العناية الإلهية.. انطلق شمشا يغني وقد تشنجت شفتاه بعصبية وتحولتا بسبب البرد الشديد إلى لون أحمر مبيض ضارب إلى الزرقة.. ثم.. مالبث أن نهض.. وخرج من البحر اللازوردي"، أصيب فاريشتا بالذعر عند

سماعه تلك الأشعار فراح يغني بصوت مرتفع: "آه.. ليكن حذائي يابانياً وسروالي إنكليزياً.. ولتكن على رأسي من فضلك قبعة روسية حمراء.. لكن رغم كل ذلك.. ليبق قلبي هندياً". وكان يؤدي تلك الكلمات باللغة الإنكليزية مراعاة منه ومجاملة للبلد الذي كان على وشك أن يحل ضيفاً عليه.

ذلك الغناء المتبادل.. أو ربما حالة الهذيان التي ألمت بهما من جراء الانفجار، وأياً كان فإن كلا الرجلين (صلاح جبريل) و(فاريشتا شمشا) كان مقدراً لهما ذلك السقوط الملائكي الشياطني الذي لا ينتهي.. ولم يعد أي منهما يتذكر اللحظة التي ابتدأ يتعرض فيها لعملية التحول تلك.

هل قلت تحول أجل يا سيدي ولكنه ليس تحول عشوائياً بلا سبب وبلا هدف ولقد أبصر شمشا المتزمت الصارم، وجبريل فاريشتا بقميصه القرمزي المشحر وهو يدنو منه سابحاً عبر ذلك البرزخ المسور بالغيوم وكاد يصيح به: إياك أن تدنو مني.. هيا ابتعد عني.. لكنه لم يفعل ذلك لأن شمشا منعه من النطق بتلك الكلمات.. وبدلاً من الصراخ، فقد فتح ذراعيه بصورة أتاحت لفاريشتا أن يصبح متجهاً إلى بينهما.. مما جعلهما يتعانقان وقد اتجه رأس كل منهما باتجاه قدمي الآخر وراحا يسقطا متشقلبين وهما في تلك الوضعية وكأنهما عجلة مزدوجة تتدحرج إلى أسفل ذلك النفق الذي يقودهما إلى أرض العجائب. وتابعا ذلك الهبوط إلى أن تجاوزا منطقة السحب البيضاء التي كانت تتخذ بلا انقطاع أشكالاً تكوينية متلاحقة بحيث تتحول فيها الآلهة إلى ثيران،

والنساء إلى عناكب والرجال إلى ذئاب.. كما كانت بعض الغيوم تقترب منهما بأشكال كائنات هجينة مثل أشكال أزهار عملاقة ذات أثداء نسائية تتدلى من جذوع أجسام بشرية.. وكذلك أشكال قطط مجنحة.. وكان شمشا في حالة شبه غيبوبة وسيطر عليه إحساس بأنه تحول بدوره إلى غيمة هجينة متحولة وتدلى بذلك الشخص الآخر الذي كان يتقوقع بين ساقيه والذي كانت ساقاه بالتالي تطوقان عنقه الأرستقراطي النبيل. بيد أن الشخص الآخر لم يتسن له الإحساس بتلك التحولات التي كان عاجزاً عن التحول. وكان لتوه قد رأى طيف امرأة فاتنة ترتدي (ساري) هندياً مقصباً ومطرزاً باللونين الأخضر والذهبي وتزين أنفها بماسة براقة وقد ثبتت شعرها الخارج بمادة لامعة حتى لا يعبث به الريح في ذلك الارتفاع الشاهق وكانت تجلس منتصبة الجذع فوق بساط طائر.. ولم تكن المرأة سوى (ريخا ميرثانت).

حياها جبريل وسألها: "ترى هل ضللت طريقك إلى النعيم؟ أم ماذا حدث؟" وكان يهبط مرتعشاً وقد انتابه الحذر فوكزه معتصراً إياه بساقيه غير مدرك لما يجري وقال مستفسراً ماذا هنا بحق الجحيم؟ صاح به جبريل "ألا ترى هذه المرأة؟ وذلك البساط الطائر الذي تستقله.. سجادة بخاري، اللعينة تلك ألا تراها؟" وتسلل إلى أذنيه صوت المرأة وهي تحدثه هامسة: كلا باجيو لا تتوقع منه أن يرد عليك بالإيجاب.. فلا أحد يراني سواك.. لقد خلقت لعينيك فقط دون سواها.

عاد جبريل يصيح بشمشا: (قل لي أيها المغفل هل تستطيع أن ترى تلك المرأة أم لا؟) لكن صلاح الدين شمشا لم يكن يرى ولا يستطيع أي شيء.. وبالتالي فهو لم يجب بشيء.. وكان جبريل يواجه تلك المرأة لوحده. حاول أن ينهي المرأة عن متابعة ما هي فيه وقال: (ما كان ينبغي أن تفعلي ذلك) فأجابته: (كلا يا سيدي.. إنها الخطيئة.. إنها شيء كبير للغاية..) وضحكت وتابعت: (آه باستطاعتك أن تلقي عليّ المواعظ فهي من اختصاصك.. تستطيع أن تمارس عليّ الوصايا الأخلاقية بهذه اللهجة المتعالية.. يا لها من لهجة منك أنت.. أنت الذي تخليت عني؟!!.. لقد كنت أنت يا قمر مهجتي ومراتي.. تختفي وراء سحابتك.. في حين كنت أنا أقبع هناك في الظلام.. عمياء لا أرى شيئاً.. تائهة ضائعة.. وكل ذلك بسبب حبي لك.. عندما أصابك المرض لم أقم بزيارتك تجنباً للفضيحة.. كنت أتحاشاك حرصاً عليك.. واتخذت أنت من غيابي عنك ذريعة تبرر بها احتجابك خلف تلك السحابة وأنه احتجابك ذلك بالإضافة إليها.. أعني المرأة الجليدية.. يا لك من وغد.. إنني الآن بعد موتي أصبحت لا أعرف كيف أغفر لك.. إنني ألعنك يا جبريل.. ولتتحول حياتك إلى جحيم الجحيم نفسه الذي قذفت بي إليه.. اللعنة عليك وعلى أصلك الذي انحدرت منه أيها الشيطان وعلى الله الذي تقصده أيضاً.. ولتهنأ بهذه الدماء الملونة التي تصطبغ بها الآن). *

---

* قصد الكاتب هنا الخلط بين الاثنين.. ربما كان كناية عن حالة التوحد بين الملاك والشيطان.

وانطلقت بعد ذلك أشعار بلهاء لم يكن جبريل يفهمها لكنه استطاع في سياق الكلام أن يميز اسم تردد عدة مرات هو اسم (اللات).

كان همّ صلاح الدين شمشا أن يستمر في البقاء وراح يعزو التحولات التي كان يحس بها بأنه يتعرض لها بكل ما فيها من اللاعقلانية إلى اختلاط مدركاته من أثر الانفجار. ومن ثم فقد وقف موقف المتفرج اللامبالي مما يجول في ذهنه ولكنه كان مستسلماً تمام الاستسلام لإرادة الحياة التي غلبت عليه، والتي انبثقت من مركز جسده وانتشرت إلى خارجه بعد أن حولت جسده إلى حديد ولحمه إلى فولاذ. وقد انطلقت بمجرد أن أحكمت سيطرتها عليه إلى الخارج باتجاه جبريل فاريشتا وأطبقت على خصيتيه بحيث صاحت به بلهجة آمرة بأن يطير ويغني ثانية، وقد انصاع جبريل لأمر تلك الإرادة فانطلق ببطء أول الأمر ثم راح يزيد من سرعته ويحرك ذراعيه ويرفرف. بينما هو يفعل ذلك وجد نفسه بالرغم منه يصدح بأغنية شبيهة بتلك الأغنية التي كانت تتردد على لسان (ريخا ميرثانت) والتي كانت بلغة لا يعرفها وبلحن لم يسبق له أن سمعه على الإطلاق.

لم ينكر جبريل المعجزات على النقيض من شمشا الذي كان يحب دائماً أن يجد التفسيرات المنطقية لكل ما يحدث وكان دائماً يردد أن ذلك (النظم) كان سماوياً وإلهياً لولا تلك الأغنية، ما كانت تلك الرفرفة لتحرك ساكناً، وأنه من دون تلك الرفرفة بالتالي فمن المؤكد أنهما كانا سيصطدمان بأمواج متجمدة أشبه بالصخور،

ولكانا تمزقا إلى قطع صغيرة عند ارتطامهما بها . وفي النهاية كانت سرعتهما في السقوط قد خفت كثيراً ووجدا نفسيهما يحطان على القناة وكأنهما قصاصتا ورق يعبث بها النسيم. وكانا الناجيين الوحيدين من حادث تحطم الطائرة ذلك وقد وجدهما الناس بعد أن جرفتهما المياه إلى الشاطئ، وكان جبريل فيما بعد يقسم حيثما اتجه في تجواله أنهما سارا على الماء وأن الأمواج حملتهما برفق إلى الشاطئ، إلاّ أن الآخر ذا القبعة السوداء المستديرة كان ينكر ذلك بقوله (يا إلهي لقد كنا محظوظين، كم مرة يتاح للإنسان أن يكون محظوظاً في حياته؟).

كانت الإرادة فيما حصل لشمشا أما فاريشتا فقد خضع لتلك الإرادة. أيهما اجترح المعجزة؟ وأيهما قام بتفيذها؟! وهل هي ملائكية أم شيطانية تلك الأغنية التي رددها فاريشتا؟! وببساطة أكثر من كان صاحب الأداء الأفضل بين الاثنين؟..

كانت أول الكلمات التي نطق بها جبريل فاريشتا عندما استعاد وعيه على الشاطئ الإنكليزي بالقرب من أذنه كائن بحري من فصيلة قنديل البحر: (لقد ولدت من جديد أيها المغفل.. عيد ميلاد سعيد أيها السيد...) أما صلاح الدين شمشا فقد راح يسعل، وعندما فتح عينيه كأي طفل حديث الولادة راح يبكي بدموع حمقاء.



موضوع التناسخ والتقمص والولادة المتجددة كان دائماً الشغل الشاغل بالنسبة لجبريل الذي ظل طوال خمسة عشر عاماً من أكبر النجوم في تاريخ السينما الهندية، وحتى قبل أن يتغلب بما يشبه المعجزة على شبح المرض الذي توقع الجميع أنه سيجبره على إلغاء كافة العقود التي سبق له وأن وقعها.

ورغم أن ما حدث لم يتنبأ به أحد إلا أن خطر ببال واحد من الناس، ذلك أن ما إن تعافى وعاد ثانية إلى العمل، وبعد أسبوع واحد من احتفاله بالذكرى الأربعين لميلاده.. فإنه خرج من حياته القديمة واختفى فجأة وكأنه تبخر أو تلاشى.

وكان أول من لاحظ غيابه أولئك الرجال الأربعة المكلفين بنقله على الكرسي ذي العجلات الذي كان يستخدمه في الانتقال السريع من مشهد إلى آخر في استديوهات (د. و. راما).

حيث أنه كانت لديه القناعة بأن عليه أن يختزل طاقاته قدر ما يستطيع، وكان يزيحه أولئك الرجال بشيفرة من الخطوط والدوائر والنقاط تعلمها في صغره عندما كان يعمل حمالاً موزعاً لوجبات الغداء في أرجاء مدينة بومباي.

وبعد احتجابه انقض مديرو الشركات ومستشاروها القانونيون على أولئك الرجال الأربعة بحيث كانوا هم أول المتضررين من اختفاء فاريشتا الغامض، وبحيث تم طردهم جميعهم من العمل وبقي الكرسي ذو العجلات مهجوراً يتراكم عليه الغبار في زاوية من زوايا أحد الاستوديوهات.

أين اختفى جبريل؟ كان هذا هو السؤال الذي تردد بنفس واحد على ألسنة سبعة من المنتجين السينمائيين الذي انتابهم الرعب من الخسارة الباهظة التي سيتعرضون لها نتيجة توقف أعمالهم في تلك الأيام التي كانت فيها أعداد مرتادي صالات السينما آخذة بالتناقص، ولم يكن هنالك سوى اسم واحد يفعل فعل السحر ويضمن لهم النجاح الساحق لأعمالهم. لكن صاحب ذلك الاسم رحل واختفى.

بعد الاستفسارات الهاتفية، انطلقت دوريات الدرجات النارية، وفرق الضفادع البشرية للبحث عن جثته دون أدنى طائل وفي أحد استوديوهات راما السبعة وقفت الآنسة (بمبل بيلب زريا) آخر الصيحات في عالم نجمات الإغراء والتي كانوا يلقبونها بقذيفة التوابل تتحدث أمام نفر من الاختصاصيين الفنيين الذين وقفوا يتدافعون بالأيدي وقالت بشيء من التعالي: (إنها لضربة حظ لي.. كان من المقرر أن أؤدي في هذا اليوم بالذات المشهد الغرامي.. وقد كنت فزعة للغاية لمجرد التفكير بأنني سأقترب من ذلك الرجل بأنفاسه النتنة كروث الصرصار.. لقد كان من حسن حظه أن أفلام السينما (لا تطهر الأرواح).. لكنها منعت من الاستمرار في هذا الحديث من قبل الرقابة.. وغادرت مسرعة وهي تبكي.. والواقع أنها لم تكن مخطئة جداً في حديثها عن أنفاس فاريشتا الكريهة، بل أن وصفها لتلك النقطة بالذات كان أقل ما كان عليه الأمر في حقيقته. ذلك الرجل جبريل كان بالفعل مصاباً بالبخر وكانت تصدر عنه رائحة أشبه بمزيج من أكسيد الحديد والكبريت

وعلى الرغم من اسمه الملائكي فقد كان شعره الأسود بلون ريش الغراب يضفي عليه مظهراً كئيباً مسفراً.

اكتشف رجال الشرطة رسالة في منزل فاريشتا كتب فيها: (نحن مخلوقات الهواء.. جذورنا تضرب في الأحلام.. وتمتد إلى السحاب.. ونولد من جديد عندما نطير.. وداعاً).

ولقد وجدت هذه الرسالة ملقاة في إحدى غرف الطابق العلوي من فيلا إيفرست على جبل (ملابار).. أعلى منزل في أعلى بناء في أعلى منطقة في المدينة.. وقد نشر في الصحف شيئاً من هذه الرسالة مثل جبريل يطير هارباً.. كذلك نشرت الصحف صوراً لذلك البيت الأسطوري الذي أنفقت عليه ملايين الدولارات ليبنوا على ذلك الارتفاع الشاهق أشبه بخيمة بدوية.. أما ما حدث.. وما إذا كان جبريل قد صعد أم هبط.. أن انزوى في مكان ما.. فهذا لم يعرفه أحد ومع أن السيدة ميرثانت كانت تقرأ كل الصحف وتصغي إلى كل نشرات الأخبار في الإذاعة وتتابع برامج التلفزيون إلا أنها لم ترَ في هذه الرسائل كلها أي جانب من جوانب الحقيقة. وعندما ابتدأت تصلها همسات تلامسها فإنها اصطحبت ابنتاها وابنها وخرجت إلى سطح منزلها الشاهق الارتفاع في تلك المنطقة المدعوة فيلات إفرست..

لقد كانت جارة له وتقطن في شقة تحت شقته وكانت غنية ومتزوجة منذ ثلاثة عشر عاماً من رجل له وزنه في مجال صناعة الآلات وبالتحديد صناعة الرولمانات وكانت تتمتع بتلك النوعية من الجمال الصارخ الذي توحي بأنها تجاوزت منذ زمن بعيد تلك

الأرض التي كانت تقع تحتها.. وكانت شخصيتها قوية.. وتحب شرب الشمبانيا كما تحب السمكة الماء. كانت تعرف ما تريد وتعرف بالتالي كيف تحصل على ما تريده بسرعة فائقة.. قرأت ريخا ميرثانت رسالة الوداع التي خلفها جبريل ونشرتها الصحف فكتبت على الأثر رسالة وداع خاصة بها وجمعت أطفالها وتوجهت إلى السماء. وكان في رسالتها العبارات التالية (تزوجت قبل سنوات بدافع من الخوف أما الآن فإنني أقدم على عمل يدل على الشجاعة).

وعندما أدلى أحد البوابين في منطقة الفيلات بشهادته على الملاء قال: كنت أتمشى هنا ففوجئت بجسم يسقط.. وكان ذلك هو جسم الفتاة الكبرى وقد تهشمت جمجمتها تماماً. وعندما نظرت إلى الأعلى رأيت الصبي يسقط ولحقت به الابنة الصغرى كممت فمي بيدي واقتربت منهم ثم نظرت إلى الأعلى مرة أخرى فوجدت البيجوم بدورها تهوي نحونا. كان الساري الذي ترتديه يتطاير كمظلة كبيرة، ولم يكن من اللائق لي أن أمعن النظر إلى ما تحته..).

بعد رحيل جبريل ابتدأت صوره الموجودة في كل مكان تتعفن وتبلى. وأدى سوء التصرف من قبل عارضي أفلامه إلى أن تحترق تلك الأفلام بحيث تحول إلى نجم محترق تنتشر النار من داخله إلى خارجه. إنه موت إله.. أو هو شيء وأشبه ما يكون ذلك.. في حين أنه يطل بوجهه الكبير - في حياته - على عشاقه في الليل السينمائي المصطنع.. مشعاً متوهجاً كأنما هو كيان سماوي في حالة تتوسط المسافة ما بين الموت والقداسة؟ بل لقد كان بعضهم على قناعة

تامة أنها حالة أقرب إلى القداسة لأن جبريل فاريشتا أمضى معظم حياته الفنية الفريدة وهو يتقمص إيمان راسخ، مطلق شخصيات الآلهة المتعددة في شبه القارة في ذلك الفن السينمائي الذي تخصص به والذي يمكن أن يدعى السينما اللاهوتية، دون أن يغضب أحد رغم تجاوزه الحدود الدينية المسموح بها. حيث بلغ به الأمر أن يمثل دور كرشنا وهو يحمل مزماراً ويرقص بين الأبقار ذوات الضروع الممتلئة وبين أشجار جوز الهند الشامخة، بينما كان يبدو حكيماً رصيناً صغير الحجم. وكثيراً ما كان في مثل تلك المناسبات يهبط من السماء، ولكن دون أن يبتعد عنها كثيراً.

ولقد كان جبريل طوال عقد ونصف من السنوات يعتبر من أكثر الوجوه قبولاً، بل والوجه الذي يميزه كل الناس فور مشاهدته. وبالنسبة للمعجبين، لم تكن الحدود التي تفصل بين شخصيته الحقيقية كممثل وبين الشخصية التي يمثلها واردة.. ولا موجودة.. أما بالنسبة لجبريل نفسه فإنه لم يكن في الواقع يبدو متميزاً.. ومن الغريب أنه لم تكن تظهر عليه سمات النجومية، بل إن جفنيه الذابلين كانا يضفيان عليه ملامح شخص مصاب بالإجهاد بالإضافة إلى عدم التناسق في أنفه وذلك الامتلاء الزائد في شفتيه.. وأذنيه اللتين كانتا تبدوان أطول مما ينبغي "باختصار كان وجهه من أكثر الوجوه دنيوية وشهوانية لكنه بهذا الوجه كان يستطيع أن يجد تلك التعابير العظيمة التي دمرها مرضه الأخير شبه القاتل.. ومع ذلك فإن تلك الدنيوية كانت تمتزج على الرغم من كل شيء بلمسات من القداسة والكمال. نعم.. وبغض النظر عن

تباين الأذواق بهذا الخصوص فمن المؤكد أنه كان في ذلك الوجه سحر إلهي وهذا كل ما في الأمر، وعلى كل حال فقد كانت تسيطر عليه فكرة التحول من حين إلى آخر إلى تجسيد أحد الآلهة شأنه في ذلك شأن البشر المتحولين وهذا ليس غريباً ففكرة الولادة المتجددة هي بدورها سر إلهي أيضاً.

ولكن الأمر ليس دائماً بتلك الدقة فهناك حالات تقمص دنيوية أيضاً. ذلك أن جبريل فاريشتا ولد واسمه الحقيقي إسماعيل نجم الدين في قرية (بونا) وقد سمي إسماعيل تيمناً باسم ذلك الطفل الذي كان ضحية لأبيه إبراهيم، أما الاسم الثاني نجم الدين فمعناه الحقيقي نجم الإيمان، وقد تخلى عن هذا الاسم العظيم ليتكنى باسم أحد الملائكة الذي هو الملاك جبريل. وعندما وقعت طائرة البستان في قبضة مختطفيها راح بعض المسافرين يبوحون بذكريات ماضيهم أحدهم للآخر، وقد راح جبريل يبوح بأسراره لصلاح الدين شمشا، حيث أخبره بأن اختياره لهذا الاسم المستعار كان إكراماً لوالدته المتوفاة ـ الوحيدة التي أحبها في حياته لأنه كان في نظرها ملاكاً: (وكانت تلقبني فاريشتا الذهبي لأنني على ما يبدو كنت غاية في العذوبة والجمال).. وقد انتقل في طفولته إلى المدينة وعمل مع والده في بومباي حمالاً موزعاً لوجبات الغداء على عمال تلك المدينة وراح جبريل يشرح لفاريشتا معاني تلك الإشارات الغامضة.. الشيفرة التي كان يستخدمها حمالو الأطعمة من الصليب الأسود إلى الدائرة الحمراء والنقطة الصفراء.. وهو يستعيد بذاكرته الطريق إلى المنزل حتى صالة توزيع الوجبات..

ذلك المكان الذي يحمل إليه يومياً أكثر من مائة ألف من الدلاء التي كان بعضها يصل محملاً بطريقة سيئة وكانت تلك الإشارات لغته السرية الخاصة لأنهم كانوا أميين في غالبيتهم وتابع جبريل "تصور ريما ثلاثين أو أربعين وجبة غداء في طبق متسع محمولة على الرأس وعندما يتوقف القطار يتوجب عليك أن تندفع صاعداً أو هابطاً خلال ما لا يزيد عن دقيقتين لتعود إلى الركض في الشوارع التي تعج بالشاحنات والدراجات، كل ذلك وأنت تصيح انتبه طعام.. وكما في بعض الطرقات تتعرض للصوص المتخصصين في سرقة وجبات الطعام كما في مدينة يعاني أهلها من الجوع ولكننا كنا نجيد التعامل معهم.. ولم نكن نلجأ إلى الشرطة" .

كان الوالد والابن يعودان ليلاً وقد نال منهما الإرهاق إلى كوخهما قرب المطار في "سانتا كريز".. وعندما كانت والدة إسماعيل تلمحه وقد انعكست عليه أضواء الطائرات النفاثة المغادرة بألوانها الأخضر والأصفر والأحمر.. فإنها كانت تسارع بالقول: إن مشاهدتها له تحقق كل أحلامها، وكان في هذه إشارة إلى أن هناك، شيئاً خاصاً قريباً في شخصية جبريل لأنه ومنذ البداية كان يحس بأن لديه القدرة على تحقق رغبات الآخرين دون أن يكون لديه أية فكرة عن الطريقة التي يفعل بها ذلك.. وما لبثت نعيمة نجم الدين أن ماتت بعد أن صدمتها سيارة باص.. ولم يرد على لسان الأب أو الابن أي تعبير يوحي بالحزن على الإطلاق. بل دفنا أحزانهما تحت أعباء المزيد من العمل. وعندما بلغ جبريل التاسعة عشرة من عمره أصبح أبوه نجم الدين عضواً في رابطة

موزعي وجبات الغداء واتحاد بومباي لحمالي تلك الوجبات وفي العشرين من عمره مات والده.. سقط على خط السكة الحديدية عندما كان يحاول أن يهرب من بخار القاطرة. إلا أن الشاب اليتيم كان يعلم أن والده خرج من جلده ليرتمي في أحضان زوجته التي كان يمنحها خالص حبه.. إن بعض المهاجرين يشعرون بالسعادة عندما يرحلون. وفي اليوم التالي لرحيله ذاك عبر الحدود للقاء نعيمة فإن (بابا صاحب مهاتري) الأمين العام لرابطة الموزعين دعا الشاب للمثول أمامه وقال له (لا تقل أي شيء.. من الآن فصاعداً ستأتي للعيش في كنفي.. لقد أعلمت زوجتي الطيبة بهذا الأمر.. فلا تناقشني فيه).

كانت السيدة مهاتري امرأة نحيفة أشبه بقلم الرصاص بالمقارنة مع زوجها (بابا صاحب) ذي الكرش المكتنز ككتلة من المطاط. ولكنها كانت شديدة الامتلاء بالحنان، وعندما كان بابا صاحب يعود إلى المدينة كانت تبادر على الفور إلى إطعامه الحلوى عنوة بكلتا يديها، وفي أثناء الليل كان الوافد الجديد إلى المدينة - الأمين العام للرابطة - يجنح صائحاً بزوجته: (دعيني وشأني أيتها المرأة إنني قادر على خلع ملابسي بمفردي). كانا زوجين عاقرين لا أطفال لهما. وأدرك الشاب نجم الدين أن بابا صاحب كان يريده أن يتحمل جانباً من أعباء الحنان الذي كانت زوجته تلقي به على كاهله. ومع ذلك فإن المرأة لم تقبل بأن تعامل الشاب معاملة الأطفال. وكان بابا صاحب رجلاً عطوفاً لكنه كان يخفي عطفه ورقته بالتظاهر بالخشونة والميل إلى الصخب. وفي محاولة منه

لمواساة الشاب اليتيم فإنه كان يستدعيه إلى مكتبه ليحدثه عن فلسفة الولادة المتجددة والانبعاث محاولاً إقناعه بأن والديه أصبحا على أهبة الدخول مرة ثانية في هذه الحياة في مكان ما .. إلا إذا كانت حياتهما من التقى والورع بحيث تؤهلهما لبلوغ مرحلة المجد النهائي.

إذاً فقد كان مهاتري بالذات هو أول من أثار انتباه فاريشتا إلى عقيدة التناسخ الأزلي والأبدي.. وليس مجرد التقمص. ذلك أنه كان عالماً روحانياً هاوياً بحيث كان في بعض الأحيان يتمكن من جعل قوائم المنضدة تتحرك تلقائياً بل إنه كان في أحيان أخرى كان يحضر الأرواح في الكؤوس.. ولكنه قال لإسماعيل: (تخليت عن كل هذه الممارسات الآن بعد أن أصبت بالرعب لدرجة أنني كدت أن أفقد حياتي.. في تلك المرة حضرت إلى الكأس روح يبدو أنه لشخص ودود مرح.. وقد شجعني ذلك على أن أوجه إليه أسئلة في غاية الأهمية فسألته هل هنالك إله؟ وفوجئت بذلك الكأس الذي كان يصول ويجول على المنضدة، وقد خمد وسكن دون حراك ودون أدنى ارتعاش.. ثم توجهت إليه بالسؤال التالي: هل هناك شيطان وبغتة ابتدأ الكأس يهتز ويصدر أصواتاً اضطررت معها لإغلاق أذني ثم انطلق يسرع أكثر وأكثر إلى أن قفز على المنضدة وطار في الهواء وسقط على الأرض وتهشم وتناثر إلى ألف شظية وشظية.. صدق ذلك أو لا تصدقه.. ومنذ تلك اللحظة تعلمّت أكبر درس في حياتي.. لا تتدخل يا مهاتري في ما أنت لست كفؤاً لإدراكه).

وكان لهذه الحكاية أثرها العميق على أحاسيس الشاب لأنه كان حتى قبل وفاة والديه على قناعة بوجود عالم غيبي. وكان أحياناً يتأمل العالم المرئي فيتشكل لديه إحساس بأن كل شيء لا بد وأن يكون لديه امتداد تحت سطح هذا الهواء الهلامي بحيث تختفي تسعة أعشار الأشياء المرئية عن الأنظار. ولقد شب عن الطوق وهو مؤمن بالله وبالملائكة وبالشياطين وبالجن. لكنه كان يعتبر أن بصره ضعيف ولذلك فقد فشل في أن يشاهد شبحاً واحداً من تلك الأشباح في حياته.. وكان يحلم بأن يحصل في يوم من الأيام على نظارات سحرية خضراء تمكنه من مشاهدة ما يجري في عالم ما تحت الأرض وعبر ذلك الهواء الكثيف الذي يحجب الرؤية.. وكان قد سمع من أمه نعيمة قصصاً كثيرة عن النبي وكان يشعر أن كثيراً من اللاواقعية يحيط بتلك القصص فيحدث نفسه قائلاً: (يا له من رجل!.. كيف يمكن لأي ملاك أن لا يتمنى محادثته؟) وكان أحياناً يضبط نفسه متلبساً بالتفكير بطريقة فيها الكثير من الكفر والتجديف.. وقد تخيل نفسه في مرة من المرات وهو في حالة بين النوم واليقظة بأنه تزوج من بابا صاحب مهاتري ليدير أعماله كما فعل النبي بزواجه من خديجة واستيقظ من هذا الحلم وقد تورد وجهه بعنف من شدة الخجل. وابتدأ فيما بعد يصاب بالقلق بخصوص عدم نقاء سريرته التي تؤدي به إلى مثل تلك الكوابيس المزعجة. وكانت عقيدته الدينية في نظره مهزوزة بصورة أحس معها بأن هذا الجانب بالذات بحاجة إلى اهتمام أكثر من أية ناحية أخرى في شخصيته خاصة وأن استضافة بابا صاحب مهاتري له

في منزله أثبتت بأنه لم يكن وحيداً في هذا العالم وأن قوة ما تحرص على رعايته. ولقد أصيب بالذهول عندما استدعاه بابا صاحب إلى مكتبه في صبيحة عيد ميلاده الحادي والعشرين ليصرفه عن الخدمة دون أن يترك له فرصة الاسترحام وبعد ذلك بقليل قدم له بابا صاحب أعظم هدية تلقاها في حياته، عندما أخبره بأنه رتب لقاء مع السيد (د. و. راما) المنتج السينمائي الأسطوري ليجري له بعض الاختبارات وأضاف مهاتري أن ولداً بمثل وسامتك، حرام أن يبقى طوال حياته حمالاً للأطعمة.. اذهب وتحول إلى ممثل سينما، حتى لو أصبحت منحرفاً جنسياً.. لقد صرفتك من العمل عندي منذ خمس دقائق.

وتحول إسماعيل نجم الدين منذ ذلك الحين ليصبح جبريل فاريشتا. لكنه لم يصبح نجماً خلال السنوات الأربع الأولى من عمله، والتي كان فيها يتدرب على التمثيل بسلسلة من الأدوار الهزلية الثانوية ومع ذلك فقد ظل هادئاً مترويّاً ولم يتعجل الأمور. وجعله ذلك النقص في طموحه يبدو وكأنما هو لا ينتمي إلى الوسط السينمائي الذي يتميز المنتمون إليه بالإلحاح وتكريس الذات. ورأى فيه البعض أنه إما غبي أو عنيد أو كلا الأمرين معاً. لم يُقبل امرأة واحدة على فمها طوال تلك السنوات الأربع المقفرة لا على الشاشة ولا خارج إطارها وكان يسكن وحيداً في غرفتين شبه فارغتين بالقرب من مكان الاستديوهات، وتطوف في مخيلته دائماً الصورة التي يمكن أن تبدو فيها المرأة وهي عارية.. ولكن ينأى بتفكيره عن مسائل الحب والرغبة فقد اتجه بكل جوارحه إلى

المطالعة والدراسة. وأقبل على تلقي الثقافة بمبادرة ذاتية صرفة. وراح يلتهم الأسرار اليونانية والرومانية التي تستند على مبدأ كنية الخلق وتجسيدات الآلهة.. فيما قرأ قصة ذلك الفتى الذي تحول إلى زهرة ومن ثم إلى امرأة عنكبوت. ثم انتقل إلى دراسة الثيوصوفية عند (أني بيسانت) ومذهب وحدة الكون وحكاية الآيات الشيطانية في المرحلة الأولى من السيرة النبوية والتشريع السياسي والاجتماعي الذي استوحاه محمد من حريمه بعد عودته إلى مكة منتصراً. وقرأ كذلك عن السريالية وعن الفرشات التي تتسلل إلى أفواه الصبايا سعياً إلى جعلهن يفتتن بها، وعن أولئك الأطفال الذين يولدون بلا وجوه، وعن صغار الأولاد الذين يسترجعون في أحلامهم تجارب التناسخ الأولى التي تعرضوا لها في أدوار سابقة من حياتهم..

وراح جبريل يحشو دماغه بمعلومات لا أول لها ولا آخر. وكان يحس في لياليه المسهدة المؤرقة أنه كان مشحوناً بما لم يسبق لأحد أن عرفه واستغله فيه، والذي لم يكن هو نفسه يعرف السبيل للاستفادة منه حتى ذلك الحين.. ذلك السر العظيم الذي هو .. الحب المطلق.

لكنه حقق نجاحه المنتظر عندما ابتدأ يعمل في مجال السينما اللاهوتية وساهم بما لديه من مال مع المنتج (د. و. راما) في إنتاج قصة (غانيش) التي قام فيها بدور الإله الذي يحمل رأس فيل وتحول بذلك طفرة واحدة إلى نجم من نجوم النسق الأول ثم مثل فيلم عن مغامرات (هانومان) ملك القرود وقد أدت ظاهرة نجاحه

إلى ازدياد وتعميق إيمانه بأن هناك ملاكاً يحرسه لكنها أدت من جانب آخر إلى تعرفه إلى ريخا ميرثانت وقيام علاقة حميمة بينه وبينها .. تلك العلاقة التي انتهت نهاية مأساوية.

لقد أصبح يتمتع بجاذبية لا تقاوم في أوساط النساء، وأصبح له من ذيوع الصيت ما مكنه من ممارسة الغواية في تلك الأوساط حتى أن الأمر وصل ببعض النساء إلى أن يطلبن منه ممارسة الحب معهن وهو يرتدي قناع فانيش على رأسه. ولكنه يأبى ذلك إجلالاً لله.

وبالنظر لكونه نشأ نشأة تقية وفي بيئة محافظة فإنه لم يكن قادراً حتى ذلك الحين على فهم الحدود الفاصلة بين النوع والكم في العلاقات الغرامية النسائية، وأقام علاقات جنسية مع عدد كبير من النساء اللواتي كان ينسى أسماؤهن حتى قبل مغادرتهن للغرفة التي ضاجعهن فيها. وما لبث أن تحول إلى زير نساء وأصبح يمارس الريا والمخادعة بمنتهى الإتقان.. حيث أن رجلاً مثله يقوم بأدوار الآلهة، كان لا بد له من أن يكون فوق الشبهات ولقد استدعاه بابا صاحب مهاتري وهو على فراش الموت ليرجوه أن يتزوج ليثبت أنه رجل حقيقي ولكي يتجنب الفضائح والشائعات في عالم الخيال والمال والشهوات الذي أرسله هو إليه. وودعه جبريل بابتسامة غاضبة تركت ذلك الرجل يموت دون أن يكون مطمئناً لحقيقة نواياه، والواقع إن متعة الجنس الرهيبة التي انغمس فيها جبريل أدت إلى دفن أعظم مواهبه ألا وهي موهبة الحبيب الأصيل

المطلق الذي لا يعرف التراجع والتي لم يكن في حياته قادراً على ممارستها واستغلالها في نفسه.

وعندما تجسدت له ريخا ميرثانت من قلب الغيوم قالت له: (مشكلتك أنك بحاجة دائماً إلى من يغفر لك.. والله وحده يعرف سر تلك العقدة.. وهو وحده يعرف لماذا تهجر وتبتعد دائماً بهذا الأسلوب الإجرامي دون أن يحملك أحد وزر ما تفعله). ولقد أحس في ذلك الحين بالرغبة في أن يناقش تلك الفكرة مناقشة منطقية فصاحت به: (هل تعتقد أن هذه القضية هي أيضاً موهبة من الله. إنك مجرد إنسان قفز من الوحل وتسلق إلى الأعلى والله وحده يعلم أية أوبئة جلبتها معك من حيث أتيت).

دخلت ريخا حياته عندما اشترى ذلك المسكن الفاخر في منطقة فيلات إفرست وعرضت عليه عندما قابلها للمرة الأولى أن يزورها لتطلعه على مجموعتها من السجاد والتحف الأثرية. وكان زوجها مسافراً وبينما كانا يرتشفان الشامبانيا انطلقت تمارس عليه الإثارة والإغراء فقالت له: (لا ينبغي للآلهة أن يضعفوا ويشاركوا في تعاطي الكحول..) فأجابها بعبارة كان قرأها مرة في تحقيق صحفي أجري مع الأغا خان: (إن هذه الشمبانيا شيء لا بد منه مجاراة للمظاهر الخارجية التي تقتضيها الحياة الاجتماعية.. ولكنها تتحول إلى ماء بمجرد أن تلامس شفتاي). ولم يمض وقت طويل قبل أن تلامس هي شفتيه وتذوب من ثم بين ذراعيه.

لم يحس نحوها بالحب ولم يكن وفياً لها. وبلغ به الأمر أنه نسي عيد ميلادها وكان يتهرب حتى من الإجابة على مكالماتها

الهاتفية. ولم يكن يقوم بزيارتها إلا في الأوقات غير المناسبة حين تكون مشغولة باستقبال المدعوين على الغداء من أصدقاء زوجها. ومن جانبها فقد غفرت له كل ذلك شأنها شأن سواها إلا أنها لم تسامحه ببساطة ولم تسكت على استهتاره، بل كانت تتذمر من سلبيته نحوها بطرق جنونية وتوبخه بقسوة وتلعنه بسبب علاقته مع نساء تافهات، وكانت عندما تحتد كثيراً توجه إليه الاتهام بأنه على استعداد لمضاجعة شقيقته لو كان له شقيقة وبكل صفاقة ودون أدنى شعور بالذنب. لكنها كانت بعد كل شجار معه تنسى كل شيء وتسامحه وتدعوه لأن يساعدها في فك خطاف ثوبها. وكان جبريل يرى أنها تفعل ذلك معه نتيجة الخلل في وضعها الخاص ونتيجة شعورها بالذنب لعدم إخلاصها لملك الرولمانات زوجها. غير أنه لم يذكر ذلك على مسمع منها واكتفى بتلقي ضرباتها برجولة وصمت..

وكان دائماً يرجع إليها رغم إدراكه المسبق بأنها ستسيء معاملته طمعاً في أنها بعد ذلك ستواسيه وترفه عنه.. وكانت تعرف كيف تفعل ذلك..

بعد ذلك أشرف على الموت.. كان يؤدي أحد أدواره السينمائية في منطقة أقصى القارة الآسيوية من جهة الشرق، وكان دوره يتطلب أداء مشهد يتضمن صراعاً بينه وبين ممثل آخر حيث تلقى لكمة على فكه كما كان مقرراً.. وسقط على الأرض وغاب عن الوعي ولم يتمكن من النهوض ثانية. وقد حمّل جميع العاملين في ذلك الفيلم مسؤولية ما حدث للمثل البريطاني العملاق يوستاس

براون الذي وجه إليه تلك اللكمة. لكن يوستاس رفض ذلك التفسير بانفعال شديد لأنه أكد أنه لم يكن قاسياً وأنه لا يمكن أن يمس جبريل العظيم بأذى..

والواقع أن تلك اللكمة لم تكن هي التي طرحت جبريل أرضاً حيث أنه بعد أن تم نقله في طائرة عسكرية نفاثة إلى مستشفى بومباي، أجريت له الفحوص الدقيقة التي لم تؤدي إلى اكتشاف أي شيء، وظل يتمدد في حالة غيبوبة واحتضار..

وتناقص تعداد كريات دمه إلى رقم هابط بصورة غير معقولة وصرح ناطق بلسان المستشفى بالقول: (إن في المسألة شيء من الغموض، وما حدث كان بفعل الإرادة الإلهية).

وابتدأ جبريل يتعرض لنزف داخلي شامل من شتى أجزاء جسمه لسبب غير واضح وغير مفهوم ثم ابتدأ من شرجه وقضيبه وكان من المنتظر أن تتدفق الدماء بين لحظة وأخرى من أنفه وأذنيه، وظل على هذه الحالة سبعة أيام كانت تجرى له خلالها عمليات نقل الدم، ويتلقى كل ما في جعبة الطب من أدوية لوقف النزف بما في ذلك سم الجرذان المكثف، ومع أنه تحسن بصورة طفيفة إلا أن الأطباء يئسوا من حالته واعتبروه بحكم الميت وانتقلت الهند بكاملها لتمكث إلى جوار سريره وكانت أنباء حالته الصحية ترد في مقدمات نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية وألغت رئيسة الوزراء كل ارتباطاتها لتتوجه إلى زيارته عن طريق الجو وجلس نجلها إلى جوار سريره ممسكاً يده.

كان يسيطر على الهند بكاملها جو من الذعر مما سيحل بالناس إذا لم يرفع الله هذا العقاب عن أحد أشهر وأمجد تجسيداته ومما يخبئه الله لهم طالما كان ذلك هو ما يوقعه بجبريل وكان بعض الناس يتساءلون عما إذا كانت الهند ستستمر بعد موت جبريل.. وأقيمت الصلوات في المساجد والمعابد ليس فقط من أجل الإبقاء على حياة الممثل المحتضر وإنما من أجل مستقبل الناس جميعاً.. ومن أجل أنفسهم..

إنسانة واحدة لم تقم بزيارة جبريل ولم ترسل إليه الأزهار ولا حتى بطاقة بريدية واحدة.. ولم تكن تلك الإنسانة غير المرأة التي أحبته أكثر من الجميع ريخا ميرثانت التي احتجزت قلبها في غلال من حديد وتابعت شؤون حياتها اليومية بالصورة المعتادة، ولم تصرح مرة واحدة بالعزلة القاتلة بل كانت تلف نفسها وروحها..

ثم شفي جبريل.. وكان شفاؤه لغزاً محيراً تماماً مثلما كان مرضه. وقد تم الشفاء بالسرعة نفسها التي حدث فيها وقوعه في المرض وكان تفسير المستشفى لشفائه بأنه إرادة إلهية عليا. وأعلن عن عطلة رسمية بتلك المناسبة وأطلقت الألعاب النارية في سماء المدينة. غير أن جبريل نفسه كان قد تغير بصورة مذهلة بعد شفائه.. كان قد فقد إيمانه بالله.

خرج جبريل من المستشفى واخترق صفوف الجماهير المحتشدة بمساعدة الشرطة، واستقل سيارة مرسيدس وطلب من السائق أن ينطلق بأقصى سرعة هرباً من سيارات كل أولئك الذين كانوا يلاحقونه وتوجه إلى فندق (تاج) حيث توقف بالقرب من مائدة تعج

بالأطعمة المحرمة وبكل أنواع لحم الخنزير وراح يملأ طبقه بالبوران والجامبون والهام. وراحت شرائح الباكون تتدلى من زوايا فمه..

كان أثناء فترة مرضه قضى كل لحظة من لحظات وعيه يدعو الله ويبتهل إليه لكي يخلصه من الأوجاع والمرض.. ولكنه على مر الساعات ابتدأ يتحول إلى السخط والحنق والغضب.. وراح يوجه نداءات لله: (يكفي أيها الإله.. لماذا تعاقبني بالموت وأنا لم أقتل أحداً؟ أأنت تجسيد للانتقام أم للمحبة؟ ثم اكتشف أنه لم يكن هناك من أحد وأنه إنما كان يخاطب الهواء والفراغ وأنه كان في حالة من الحمى، لم يمر به في حياته ما هو أشد منها، حيث كان ينادي اللاشيء.. وفي ذلك اليوم المحير ابتدأ يتماثل للشفاء، ولكي يبرهن على عدم وجود الله وقف أمام تلك المائدة في أشهر فندق في المدينة ولحم الخنزير يتساقط من فمه. وعندما رفع بصره لحظة عن طبق الطعام فوجئ بامرأة تراقبه. وكان شعرها أشقراً إلى حد البياض ووجهها في بياض وشفافية الثلج. كانت تضحك من منظره وهو يزيل بقايا السجق من على زوايا فمه فصاح بها: (ألا تدركين حقيقة الأمر؟ ليس هناك أية صواعق.. تلك هي المسألة). عادت نحوه ووقفت أمامه وقالت: (إنك ماتزال حياً.. لقد استعدت حياتك.. تلك هي المسألة..).

ولقد أخبر ريخا بتلك الحادثة فيما بعد وقال: (في اللحظة التي التفت فيها إليه وسارت عائدة نحوي، وقعت في حبها.. إنها (البلوباكون) متسلقة الجبال المعروفة وقاهرة إيفرست الشقراء

ملكة الثلج.. وقد تحدثتني قائلة: (إذا لم تغير حياتك فإنك لن تحقق الغاية المرجوة من استعادتها.. وتكون قد استرجعتها عبثاً.. ولم أستطع أن أقاوم ذلك التحدي). ردت عليه ريخا: (عدنا ثانية إليك وإلى هذياناتك التناسخية.. أي هراء يدور في رأسك.. يالك من مجنون.. تغادر المستشفى عائداً من بوابة الموت ويدور في خلدك على الفور أنك لابد وأن تقدم على مغامرة دونما تمهل أو تريث.. وتجدها أمامك.. تلك الشقراء.. بما يشبه السحر.. إياك أن تظن أنني لا أعرف من أي صنف أنت يا جبريل والآن ما هي الحكاية بالتحديد.. هل تطمح إلى أن أسامحك مرة ثانية؟.. أم ماذا؟. أجابها (لا حاجة عندي لمغفرتك)، وغادر شقة ريخا وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي يخرج فيها من تلك الشقة..



بعد ثلاثة أيام من مقابلته لها.. صعدت البلوباكون إلى الطائرة ورحلت. ثلاثة أيام أمضياها معاً مختفين خارج حدود الزمن خلف لافتة على أحد الأبواب كتب عليها: (لا تزعجونا) ولكنهما في النهاية اتفقا على أن العالم حقيقة واقعة وأن الممكن حدوثه ممكن.. وغير الممكن غير ممكن.. السفن التي ترحل والحب في قاعة الترانزيت. وحاول جبريل أن يصم أذنيه عن هذا التحدث الجديد وصمم على العودة إلى حياته الأولى.

ولم يكن فقدانه للإيمان بالله يعني أنه لا يستطيع القيام بعمله. وعلى الرغم من فضيحة تناوله لحم الخنزير، المعززة بالصور

الفوتوغرافية في الصحف والتي كانت أولى الفضائح في حياته فقد وقع عقود تمثلاً لعدة أفلام.. وعاد إلى عمله..

وبعد ذلك.. وذات صباح كان الكرسي ذو العجلات ينتصب خاوياً.. وكان هو قد اختفى.. مسافر منتحل اسم إسماعيل نجم الدين على متن الطائرة إي ـ إي ـ 42 المسافرة إلى لندن.. واسم الطائرة البستان تيمناً بإحدى حدائق الفردوس. ويتابع جبريل فاريشتا قائلاً لصلاح الدين شمشا بعد ذلك بفترة طويلة: (لكي تولد من جديد.. لابد لك من أن تموت.. ومن ناحيتي أنا فقد مررت بمرحلة أصبحت فيها نصف ميت.. وقد تعرضت لمثل هذه الحالة مرتين.. في المستشفى وفي الطائرة.. وبإضافة الأولى إلى الثانية أكون قد قطعت الشوط كاملاً.. والآن يا صديقي ها أنا معك الآن يا صديقي ها أنا معك الآن في لندن الجميلة بعد أن تجددت. وأصبحت رجلاً جديداً في حياة جديدة.. ما قولك أليس هذا الشيء اللعين رائعاً) لماذا رحل؟ ... لقد كانت هي السبب.

التحدي.. الشيء الجديد وخشية كليهما.. أحدهما مع الآخر.. إصرار المستحيل على أن يحمل على.. التحول إلى حقيقة.. وكذلك.. ربما.. لأنه أكل الخنازير فقد أصبح لابد من عقابه.. عقاباً ليلياً مغرقاً في الشاعرية والحلم..



أقلعت الطائرة المتوجهة إلى لندن وعلى متنها أيضاً السيد صلاح الدين شمشا، الذي كان يشغل مقعداً بجوار إحدى النوافذ في الجزء من الطائرة المخصص لغير المدخنين.. رجل في حدود

الأربعين من العمر.. وسيم، يتميز بشفتيه اللتين كان يمصهما بطريقة تنم عن الضيق والتبرم بما حوله وحاجبيه الرفيعين المقوسين فوق عينين يراقب بهما العالم بازدراء.

وما لبث شمشا أن غط في النوم عندما وصلت الطائرة إلى ما فوق الصحارى التي تحف بالخليج الفارسي، وحلم بشخص تغلف ببشرة من الزجاج، يرجوه أن يخلصه من تلك البشرة التي تقيده وتعوق حركته، حيث التقط شمشا حجراً وراح يحطم ذلك الزجاج في حين تشققت الدماء غزيرة من جسد ذلك الغريب وحاول شمشا أن يلتقط القطع الزجاجية المتكسرة، وفي حين كان ذلك الغريب يصرخ ويتأوه من شدة الألم، ذلك أن قطعاً من لحمه كانت تلتصق بحطام بشرته الزجاجية.. وصحا شمشا من هذا الكابوس على صوت مضيفة الطائرة تسأله: (هل تحب أن تشرب شيئاً يا سيدي؟ مشروباً كحولياً أو سواه؟) أجابها متلعثماً وهو مايزال نصف نائم: (حسناً يا صغيرتي.. أحضري كأساً من الوسكي مع الصودا فقط). ابتدأت الطائرة تجتاز جيوباً هوائية في حين كان العامل القطري الذي يشغل المقعد المجاور له يثبت بمذياعه الترانزيستوري الفخم دون أن يثبت الحزام حول جسده، أشار له شمشا بوجوب الخضوع للتعليمات وتثبيت الحزام، لكن القطري أجابه: (ولما ذلك يا صاحبي إذا كان الله قدر لي الموت فلا بد من ذلك.. والعكس صحيح.. إذن ما قيمة هذه الإجراءات؟) راح شمشا يلعن في سره الهند ويهيئ نفسه على النجاة من قبضتها ويقطع عهداً على نفسه بعدم العودة إليها مرة ثانية.

ومضى صلاح الدين يستعيد ذكريات طفولته الأولى وصورة ذلك المتسول العملاق (شانجير شمشا والي) الذي كانت له سطوته عليه والذي كان يراقبه خلسة في كل حركاته وسكناته، بحيث لم يكن يستطيع أن يختلي بنفسه لحظة واحدة.

كان في منزلهم مكتبة لا بأس بها ولكن والده كان يزدري الكتب.. ولذلك فقد تركها مهملة تعبث فيها الديدان فساداً كما كان لدى والده مصباح سحري.. لكنه لم يكن ليلمسه.. كما لم يكن يسمح لأحد بأن يلمسه أيضاً، ورسخت لدى صلاح الدين منذ تلك الآونة القناعة بأن والده سيخنق كل طموحاته إذا لم يهرب مغادراً تلك البيئة.. وذلك المنزل. وفي الثانية عشرة من عمره ابتدأ يراوده حلم السفر إلى لندن الجميلة.. بكل ما فيها من جنيهات إسترلينية وجو رطب رائع بعدما أصبح يحس بالسأم من بومباي وأجوائها المغبرة وأرصفتها التي تعج بالمتشردين الذين ينامون على الأرصفة. وأصبحت أفضل القصائد بالنسبة إليه هي تلك التي تتحدث عن المدن الغربية وعندما زار فريق الكريكت البريطاني مدينة بومباي ليواجه الفريق الهندي، كان يتمنى من أعماقه أن يفوز الفريق البريطاني الخصم.

في الثالثة عشر من عمره تكرس في أعماقه الإحساس بأنه إما أن يغادر بومباي أو يموت..



وقد تحقق حلمه المستحيل عندما قرر والده أن يرسله إلى إنكلترا لتلقي العلم وتطوعت والدته (نسرين شمشا والي) بتوجيه النصح إليه قبيل سفره بألا يقتدي بالبريطانيين في قذارتهم، حيث أنهم لا يستخدمون الماء في المرحاض ويكتفون باستخدام الورق، وردّ عليها مستنكراً: (إن إنكلترا بلد حضاري عظيم.. فكيف تقولين ذلك؟).

كانت نسرين شمشا والي نحيفة.. أماً حنوناً مثالية تلفت أنظار الناس ملابسها ذات الألوان الصارخة.. ولكن كان يشفع لها عندهم براءتها ونقاؤها.. والحفلات المسائية الباذخة التي كانت تدعوهم إليها، حيث كان صلاح الدين يقوم بدور البواب في استقبالهم. وكانت تدعو إلى تلك الأمسيات عدداً من الموسيقيين والمغنين.. وعندما سافر صلاح إلى بريطانية ودعته أمه بابتسامة حزينة محاولة أن تكبت دموعها..

رحل إلى إنكلترا يرافقه والده وحلاّ في أحد الفنادق في مدينة لندن، حيث أمضيا هناك أسبوعين قبل أن يتوجه صلاح الدين إلى المدرسة الثانوية الداخلية المقرر أن يتابع دراسته فيها. أجبره والده في تلك الفترة على أن يعيش في تقشف، بحيث لم يكونا يتناولان إلا وجبة واحدة في اليوم.

وبعد أن عاد والده تاركاً إياه لدراسته.. قرر صلاح الدين أن يتحول إلى رجل إنكليزي بكل ما لهذه الكلمة من معنى وعلى الرغم من أن زملاءه في المدرسة كانوا يسخرون من صوته وطريقته في الكلام ويتحادثون ولا يمنحونه ثقتهم، فإن ذلك زاد من تصميمه

على أن يصبح واحداً منهم.. وقد تمكن من تحقيق ذلك خلال فترة قصيرة..

كان يعاني من الضنك لأن والده كان يقنن في الإنفاق عليه مدعياً أنه بذلك يحوله إلى رجل حقيقي..

بعد خمس سنوات، وبعد إنهاء الدراسة في المدرسة الثانوية، وبانتظار بدء العام الدراسي الجامعي، عاد إلى وطنه ليمضي تلك الفترة مع والده ووالدته. وقد لاحظت والدته أنه لم يعد يعجبه شيء وأنه ينتقد كل شيء في البيت وفي أساليب الحياة، وطرق صنع الطعام. وكان هو يرد على احتجاجات والده ووالدته على سلوكه هذا بالقول: (أياً كان شأني فإني أدين بذلك لكم). ورغم ذلك فقد وصل التناقض بينه وبين والده بالذات حد الشجار والخصومة. وحاولت والدته نسرين ومربيته (كاستوبرا) وزوجها البواب والحمّال (فالاب) إصلاح ذات البين غير أنهم جميعاً فشلوا في ذلك.. وعندما نشبت الحرب بين الهند وباكستان وقررت والدته التخلي عن حفلاتها المسائية اليومية والاكتفاء باحتفال واحد في أمسية الجمعة من كل أسبوع وبعد أن اضطرت لوضع الستائر السوداء الكثيفة على نوافذ المنزل الكبيرة منعاً لتسرب الضوء وخضوعاً للتعليمات العامة التي كانت تقتضي اتخاذ احتياطات الأمن ضد الغارات الجوية الباكستانية وكعادته القديمة فإن صلاح الدين كان في أمسية الجمعة تلك يقوم بدور البواب لاستقبال الضيوف.. ولكنه هذه المرة كان يرتدي زياً إنكليزياً .. وفي إحدى الأمسيات انطلقت صفارات الإنذار وهرع الضيوف للاختباء في أي

مكان يستطيعون العثور عليه.. تحت الأسرة.. وفي الخزائن.. وظلت (نسرين شمشا والي) وحيدة بالقرب من المائدة وهي تمضغ لقمة من السمك.. وابتدأت تحس بالاختناق نتيجة ابتلاعها (حسكة من حسكات السمك)، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها لإنقاذها.. حيث كان القصف الجوي قد بدأ.. وسقطت نسرين مغشياً عليها وما لبثت أن فارقت الحياة..

بعد أقل من سنة من وفاة (نسرين شمشا والي) تزوج شانجير دون سابق إنذار.. وتلقى صلاح الدين وهو في الجامعة الإنكليزية رسالة من والده تحمل النبأ وتطلب منه أن يبتهج.. على الأقل لأن والده تزوج من امرأة جديدة تحمل الاسم ذاته الذي كانت والدته تحمله (نسرين).

لكن صلاح الدين رد على رسالة والده برسالة تعبر عن الغضب والانفعال والقسوة. وأجاب والده برسالة من أربعة أسطر خلاصتها: (إنك تتحمل مسؤولية موقفك وتبعاته).. وبعد سنة من الصمت تلقى صلاح الدين رسالة من والده تحمل له الغفران.. ولكن صلاح اعتبر هذه الرسالة أقسى من سابقتها.

وعند تخرجه من الجامعة، وكان أول ما قام به هو الحصول على جواز سفر وجنسية بريطانيين، وأبلغ والده أنه صمم على الإقامة في لندن وأنه سيصبح ممثلاً، وكان رد والده غاضباً ساخراً هذه المرة حيث كتب له يقول: (لا بد وأن شيطاناً قد تقمص فيك وأثر على ملكاتك العقلية.. لقد أصبحت لا تحس بأية ارتباطات.. لا بي.. ولا بوطنك.. وقد فقدت الوفاء لذكرى والدتك الغالية..

وحتى لنفسك. وستمضي حياتك تحت أضواء المسارح تقبل النساء الشقراوات على مرأى من الغرباء الذين يدفعون المال للفرجة على مخازيك.. إنك لم تعد ابناً لي لكنك تحولت إلى وحش.. إلى غول.. إلى شيطان من شياطين الجحيم.. فقط أخبرني.. كيف سأواجه أصدقائي وأقول لهم أنك تحولت إلى ممثل؟).

وعلى حاشية الرسالة كتب الوالد ملحوظة صغيرة تقول لقد فقدت الحق بأن ترث عني المصباح السحري..

انقطعت رسائل الوالد بعد ذلك تقريباً.. باستثناء عدد قليل منها بالمضمون المؤنب السابق نفسه. ولكن إحدى تلك الرسائل كانت تقول: (إن الشيطان يسكن جسدك فقط يا ولدي.. أما روحك فإنها ما تزال طاهرة.. وهي تسكن عندنا في الشجرة التي تحمل اسمك.. وعندما تتحرر من ذلك الشيطان عد إلى هنا وابحث عن روحك الأزلية في تلك الشجرة فهي ما تزال مزدهرة في حديقة المنزل).. ولقد تغير خط والده في تلك الرسائل القليلة الأخيرة.. وما لبثت الرسائل نفسها أن انقطعت تماماً. وقد سمع صلاح الدين من الوافدين إلى إنكلترا من مدينتهم بأن والده تحول إلى ناسك يكرس حياته كلها في خدمة الدين الإسلامي.. وكان هذا النبأ مزعجاً للغاية بالنسبة لصلاح الدين وحمل مسؤولية ذلك إلى زوجة والده الجديدة نسرين الثانية التي كان يرى فيها ساحرة شريرة..

ومرت السنوات.. وعاد صلاح الدين الممثل العصامي الذي كوّن نفسه بنفسه إلى بومباي مع أعضاء الفرقة المسرحية التي يعمل

معهـا، لعـرض ترجمـة هنديـة لمسـرحية (المليـونيرات) لجـورج برناردشو.. على مسارح بومباي..

كان صلاح الدين شمشا قد قابل (باميلا لفليس) قبل نهاية العام 1960 بخمسة أيام.. وكانت هي تقف وسط إحدى الغرف التي كانت تعج بممثلات من معتنقات الأفكار التروتسكية وتوجه إليه نظرات ذات مغزى.. وقد تأملها هو بدوره طوال تلك الأمسية دون أن تتوقف عن الابتسام وأخيراً غادرت الغرفة مع رجل سواه.. فمضى إلى منزله وراح يحلم بعينيها وابتسامتها ونحافة خصرها.. ولون بشرتها.. وظل يلاحقها سنتين كاملتين.

إن إنكلترا لا تمنح كنوزها للوافدين إلا بعد ممانعة طويلة الأمد..

وفي إحدى الليالي.. تزوجها دون أن يدع لها فرصة التردد أو التفكير. غير أنه لم يتمكن على الإطلاق من معرفة ما يدور بخلدها فقد كانت غريبة الأطوار.. وعندما كان يرجوها أن تفتح ذلك الباب كانت تصيح: (دعني وشأني.. لا علاقة لك بي.. أنا لا أحب أن يراني أحد عندما أكون حزينة). ولكنه أخذ يحس بحاجة ماسة إليها.. كانت تشعره بوجوده.. وبعد مضي زمن طويل أنبأته بأن والديها ماتا منتحرين.. وأنهما انتحرا معاً في الفترة التي بدأت بها تدخل سن المراهقة.. وقد فعلا ذلك نتيجة الديون التي تراكمت عليهما بسبب المقامرة.. ولم يتركا لها سوى ذلك الصوت الأرستقراطي النبيل الذي يلفت الانتباه إليها لمجرد سماعه.. والذي كان يسبب لها الحسد من قبل الفتيات الأخريات.. في حين

كانت هي في واقع الأمر مدعاة للشفقة والرثاء، بسبب ما كانت تعاني من الضياع والإحساس بالعزلة والوحدة. كما أن انتحار والديها كان يسبب لها الشعور بعدم الثقة بالآخرين.. بالإضافة إلى حالة من الرعب الغامض من الحياة لا حد لها.

لم ينجب صلاح الدين من باميلا أي أطفال. وكانت هي تحمّل نفسها المسؤولية عن ذلك.. غير أن صلاح الدين اكتشف بعد عشر سنوات أن السبب الحقيقي كان يكمن في تكوين مورثاته التي تبين بالتحليل أنها - أي تلك الصبغيات - كانت غير متوازنة وغير متألقة. وقد عزا سبب خلافه اللاحق مع زوجته إلى هذه المشكلة بالذات.. مشكلة عدم الإنجاب.

التقى صلاح الدين ببعض الأصدقاء في الحانة.. وقد كان فوين يتكلم طوال تسع وعشرين دقيقة عن الأطفال الذين تم ضربهم حتى الموت وأولئك الذين قطعت أعناقهم بالخناجر وما لبث أن اندفع يشرب الروم بسرعة وبجرعات كبيرة حتى ابتدأ يترنح بعنف.. وفي تلك اللحظة صاح شاب من زاوية بعيدة من زوايا الحانة: (ينبغي أن نفهم الدوافع السياسية التي تكمن وراء ما حدث في آسام) ورد شخص آخر: (لماذا لا تقول إنها دوافع اقتصادية) وصاح شخص ثالث: (إن الأسباب الاقتصادية لا يمكن أن تكون تفسيراً لذبح الأطفال) فرد عليه الأول: (إذا كنت تقول ذلك عن قناعة فإنك لم تعان من الجوع في حياتك).

كان صلاح الدين شمشا يستمع إلى هذه المناقشات وفجأة تحول لونه وأصبح يشعر بالاختناق فأمسك به جورج من يده

واندفع به خارجاً إلى الشارع وهناك سأله: (هل أنت على ما يرام؟) وكان صلاح الدين في تلك اللحظة قد استرد أنفاسه فأجابه لاهثاً: (إنه الروم والإرهاق، وهذا كل ما هنالك) وكانت زينات وفوين قد لحقا بهما. وكان هناك تعبير في عيني زينات وهي تنظر إليه.. تعبير فيه مغزى آخر غير الشفقة.. تعبير أقرب إلى الانتحار..! وقالت له فيما بعد: (لقد تمكنا من تحطيم القوقعة التي تحمي نفسك بها). ورد عليها: (لماذا لا تتركيني وشأني.. إنني أشعر بالضياع في هذه المدينة التي ولدت ونشأت فيها.. وهي تجعلني أحس بالدوار فهي وطني وفي الوقت نفسه هي ليست كذلك.. إن هذه المدينة تجعل قلبي يرتعش ورأسي يدور)! أجابته: (يا لك من أحمق إنك تستطيع أن تسترجع أصلك الذي ولدت فيه). سألها صلاح في إحدى الليالي المسهدة التي لم ينم فيها كلاهما: (هل سبق لك أن تزوجت؟) فضحكت وقال: (حسناً أيها الأبله.. ما هي حاجتي للزواج؟ لا حاجة لي به على الإطلاق.. فلدي مشاغل كثيرة تمنعني من الزواج على الأقل).. وجهت إليه السؤال نفسه فأجابها: (إنني متزوج ومن امرأة غنية ولدي منزل واسع وفخم في منطقة نيتنغ هيل.. هناك حيث يسطو اللصوص على كل شيء من أجهزة الفيديو إلى المسجلات الستيريو.. بل وأكثر من ذلك على الكلاب المدللة الغالية!!.. يسرق الفقراء الكلاب الغالية ويغيرون أسماءها فيدربونها على أسماء جديدة ويعرضونها للبيع في أفخم محال لبيع الكلاب أو يعرضون إعادتها لأصحابها المفجوعين مقابل فدية ضخمة)..

ومن ثم حاولت زيني أن تعرف الطريقة التي يحصل بها صلاح على المال وعندما أنبأها بأنه يقوم بتقليد الأصوات المختلفة في الإذاعة كمؤثرات صوتية انطلقت تضحك بشدة لفتت أنظار نزلاء الفندق المجاورين لهما . وعندما خفت حدة نوبة الضحك قالت له: (أيها المسكين.. إن أولئك الإنكليز الأوغاد يعتصرون إمكانياتك ويستعبدونك).

وكان رأيها أن هذا العمل الذي يقوم به إنما هو مدعاة للسخرية لكنه رد عليها بالقول: (إني موهوب في تقليد الأصوات واللهجات.. فلماذا لا أستغل هذه الموهبة وأسخرها للحصول على المال).

ثم حدثها كيف أنهم يسمونه برجل الألف صوت وصوت وبأنه يستطيع أن يقلد كافة اللهجات ويقنع بها مستمعي الإذاعة بأنه بالفعل روسي أو صيني أو صقلي أو حتى بأنه رئيس الولايات المتحدة، وكيف أنه في إحدى التمثيليات الإذاعية قام بأداء سبعة وثلاثين صوتاً لأشخاص مختلفين.. وأن شريكة له أرمنية يهودية تسمى ميمي ماموليان.. وأنه وإياها يسيطران على موجات الأثير البريطاني وأن تلك المرأة تستطيع أن تقلد سلسلة من الأصوات لنساء في مختلف الأعمار.. وأنها نتيجة لتلك الموهبة التي تشابه مقدرته قالت له مرة: (لابد لي ولك من أن نتزوج أحدنا من الآخر) لكني قلت لها : (إنني تلقيت تربية معادية لليهود) فهزت كتفيها بلا مبالاة وقالت: (ماذا أفعل؟ ليس لي ذنب في ذلك.. ولكل إنسان نقيصة.. ولكننا لو تزوجنا فسنشكل هيئة أمم متحدة!). ولقد تمكنت زينات وكيل أن تطرد كافة النساء من مخيلة صلاح الدين

شمشا خلال فترة مكوثه في بومباي.. ومن جملة من طردتهم تلك الممثلة اليهودية حيث قالت له: (إنك وإياها عديما الشعور وإنكما موجودان فقط من خلال صوتكما.. ومن خلال الشخصيات التي تقومون بأدائها!) وقد أحس أنها على جانب من الصواب في ذلك عندما تذكر أن ميمي ماموليان كانت مهووسة بامتلاك العقارات في كل بلدان العالم وعزا ذلك إلى حاجتها إلى التجذر وتجاوز الشعور بالتشرد الذي يكرسه فيها الدين اليهودي.

وما لبثت زينات أن راحت تحاول جعله يكره البريطانيين بالقول: (إنك تحبهم كما يحب العبد سيده وأقسم على ذلك أنهم يزدرونك ويركلونك ومع ذلك فأنت تحبهم.. يا صلاح يا بني أياً كانت طريقة تفكيرك ووضعك.. عد إلى الوطن بحق القديس بطرس).

لكنه عاد يحدثها عن طموحه الأكبر في مجال التمثيل والذي كان قد شرع بتنفيذه من خلال البرنامج التلفزيوني الخاص بالأطفال.. والذي كان في بريطانيا يلاقى ردود فعل مختلفة أكثرها رافضة وسلبية. لدرجة أنها قد تجعله يتخلى عن الاستمرار فيها.. فقالت له: (إنك وسيم للغاية يا صلاح والسينما الهندية بحاجة لمثلك خاصة وأن هناك فراغاً تركه رحيل جبريل فاريشتا.. إنك تستطيع هنا أن تتفوق على الممثل العظيم باشان.. وحتى على جبريل فاريشتا نفسه). غير أنه رد عليها بالقول: (إن السبب الحقيقي لقدومي إلى بومباي لم يكن مجرد المشاركة في عرض مسرحية المليونيرات.. إنه سبب آخر أهم وأكبر وهو مقابلة ذلك الرجل الذي هو والدي شانجير والي.. الذي يملك المصباح السحري).

وعنـدما عرفـت زيـني بـأن والـده هـو شـانجير والي ظننتـه يمازحها .. فهذا الرجل من أثرياء بومباي العاملين في تجارة السماد من الذين يعيشون في منطقة الفضائح المعروفة بسكانها من ذوي الثراء الخيالي. وعندما تأكدت من أنه صادق فيما قال رجته أن يصحبها معه عند ذهابه لزيارة والده حتى تشاهد بأم عينها ذلك الرجل الأسطوري.. لكنه حذرها من أن والده لا يحترم الغرباء وأنه قد يسيء معاملتها .. بيد أنه تنازل ووعدها بتحقيق رغبتها رضوخاً لإصرارها.

كان السيد شانجير والي قد أصبح في المدة الأخيرة يقضي خمسة أيام من الأسبوع مع زوجته الجديدة نسرين الثانية في قصر مسور، وكان هو يسميه (القلعة الحمراء) في منطقة تل بالي المشهور بأن معظم سكانها كانوا من نجوم السينما. إلا أنه كان يمضي نهاية الأسبوع في منزله القديم في منطقة الفضائح حيث يمضي يومين مع ذكرى زوجته الراحلة نسرين. وكان الناس يتناقلون بأن زوجته الجديدة كانت ترفض بإباء أن تصاحبه إلى ذلك المنزل القديم. كما كانت هناك أنباء تتردد عن أنه يعاني بعض المتاعب في تجارته.. وأن الحكومة كانت تنوي مصادرة منشآته التجارية بسبب تراكم الضرائب عليه واستنكافه عن دفعها ولقد مضى صلاح الدين بصحبة زينات وكيل إلى ذلك المنزل القديم الذي أصبح له في هذه الأيام أبواب فولاذية ضخمة تفتح بأجهزة التحكم عن بعد. وعندما فتحت لهم الأبواب كان أول ما شاهده صلاح الدين شجرة الجوز التي كان والده يعتقد أن روحه تكمن في

أعماقها. وعند المدخل قابلهما العجوز الذي ميز فيه صلاح الدين ذلك البواب الذي كان فيما مضى شاباً وهو فالاب.. ولم يتمالك نفسه من احتضان ذلك الرجل بحرارة وشوق بالمقابل لم يخف فالاب دهشته لأن صلاح الدين ميزه بهذه السرعة رغم تقدمه في السن. ولم يلبث أن أعلمه بأن والده شانجير شمشا والي قطع عهداً على نفسه بأن يبقى هذا المنزل مخصصاً لإحياء ذكرى والدته نسرين الراحلة..

ولذلك فهو لم يغير في أقسامه الداخلية شيئاً يذكر.. وعندما دخلوا جمعياً إلى الردهة الأمامية صرخ صلاح الدين بحدة.. فلقد رأى شبح والدته.. وأصيبت زينات بالرعب.. فقد كانت امرأة نحيفة طويلة تجاوزت سن الشباب أمامهم وهي ترتدي (ساري) مزخرفاً بأحرف أبجدية وكلمات وكأنه مصنوع من ورق الصحف. غير أن فالاب الذي كان واقفاً لا ينوي على شيء رفع ذراعيه وهو لا يعرف كيف يفسر الأمر.. وعندما استعاد صلاح تماسكه أعلمه فالاب بأن السيد شانجير والده سمح لكاستوبرا التي هي زوجته (زوجة فالاب) بأن ترث عن الراحلة نسرين بعض أثوابها. وأضاف: (أنت تعلم يا صلاح يا بني.. أن والدتك كانت امرأة كريمة معطاءة.. وهذه المرأة التي مرت أمامك واختفت هي زوجتي كاستوبرا.. مربيتك القديمة!. ولا تظن أنك تعارض ارتدائها لبعض ملابس والدتك!!). رد عليه صلاح بانفعال إنه بالطبع لا يعارض.. ولم تلبث كاستوبرا أن دخلت إلى الغرفة ومع أن لقاءها بصلاح كان حاراً فقد كان الجو مشحوناً ومتوتراً. وذهب فالاب لإحضار البيرة

والمرطبات وفي تلك الأثناء أسرت زيني لصلاح بأن العلاقات في ذلك المنزل مريبة ومثيرة للتساؤلات لكون فالاب وكاستوبرا وحيدين طوال الأيام الخمسة لينعم إليهما والده في اليومين الأخيرين من الأسبوع.. وفجأة سمع صلاح صوت والده يعلق على غيابه الطويل الذي أدى به إلى الخلط بين مربيته كاستوبرا ووالدته. وعندما نظر صلاح إلى والده اكتشف أنه قد شاخ إلى درجة كبيرة وأنه أصبح أشبه بتفاحة متعفنة ذابلة، بحيث لم يكن قادراً على إخافة أحد كما كان شأنه في الماضي وأنه فقد الكثير من هيبته وتأثيره على الآخرين.. وجاءت كاستوبرا تدخن لفافة من التبع.. ولم يلبث والده أن جلس بجوارها مطوقاً إياها بذراعيه.. وعندما التمعت عينيا زيني وكيل دهشة، خاصة وأن العجوز شانجير شمشا والي لم يبعد ذراعيه من حول كاستوبرا عندما دخل زوجها وهو يدفع عربة محملة بالمشروبات.. وحاول صلاح أن يعلق على ما يراه إلا أن زيني همست مهيبة به أن يصمت. ولكنه لم يتمالك نفسه من الاستفسار: (وماذا بشأن زوجتك الجديدة يا والدي العزيز؟ أعتقد أنها تقبل بكل هذه التصرفات من قبلك؟) وتابع صائحاً: (وتفعل هذا في منزل والدتي؟) إن الحكومة تلاحقك لكون تجارتك مفلسة كما علمت.. وها أنا أفاجأ بأنك أنت أيضاً مفلس روحياً.. بدليل ما تفعله هنا لكاستوبرا أمام زوجها.. إنك تشتريها بمالك بلا شك.. كم تدفع لهما حتى تسمم حياتهما بهذه الطريقة؟ إنك رجل مريض دون أدنى ريب!!). وتدخل فالاب قائلاً: (بكل احترام يا سيدي لكنك مخطئ فيما تقوله.. لقد غبت عنا زمناً طويلاً جداً وها أنت

الآن تعود لتصدر علينا أحكامك الخاطئة.. أن والدك يدفع لنا من أجل ما نقدمه له من خدمات ومقابل ما تراه!). صاح به صلاح غاضباً: (كم يدفع لك حتى تقبل أن تتحول زوجتك إلى عاهرة؟) ردت كاستوبرا بازدراء: (يا له من مغفل على الرغم من ثقافته البريطانية.. إننا نحب والدتك ولكن يبدو أنك أنت لا تحبها.. ونحن بهذا التصرف نحيي ذكراها ليس أكثر). وقال فالاب: (إنه نوع من العبادة والتأمل الروحي).. وتدخلت زينات وكيل لتقول: (كف عن هذه المناقشة يا صلاح). توجهت إلى الكنبة التي كان يجلس عليها شانجير العجوز لتجلس على ذراعها وتابعت: (إنك لست ملاكاً.. ولهؤلاء الناس الحق في أن يعيشوا كما يشاؤون!!!) وربت شانجير على ركبة زيني.. في حين اعتبر صلاح هذا الموقف من قبلها خيانة لا تغتفر!!. قال لها شانجير الوالد: (عليك أن تحكمي فيما بيننا.. لقد جاء لينتقم مني.. وسأعطيه الفرصة ليفعل ذلك.. ولكني لن أسمح له بأن يصدر الحكم النهائي علي.. وسأقبل حكمك أنت).

وما هي التهم التي كان الابن يوجهها إلى الأب؟ إنها تهمة التجسس عليه في صباه ومراقبته بكل حركاته وسكناته.. وتهمة محاولة تحويله إلى حالة لا يقبلها.. وتهمة النكوص لعبادة زوجة جديدة.. والتجديف بعبادة شبح الزوجة القديمة.. وتهمة تملك المصباح السحري الذي مكنه من الحصول على كل شيء دون بذل أي جهد.. وأخيراً تهمة العهد الذي انقضى مؤخراً بمنحه ذلك المصباح السحري.

خاطبه والده قائلاً: (عليك أن تكف عن حملي على كتفك كمن يحمل ببغاء.. إني رجل عجوز في مراحل حياتي الأخيرة.. ولست ابن.. ولست نسخة عنك بأي حال من الأحوال). في تلك اللحظة وقعتا عينا صلاح على شجرة الجوز التي تبلغ من العمر أربعين عاماً.. والتي كان والده يعتقد أن روحه الطاهرة البقية تكمن فيها فصاح صلاح بوالده: (اقطع تلك الشجرة.. وبعها حطباً.. واصرف ثمنها فلم أعد بحاجة إليها). صمت الجميع.. وتخلصا من الإحراج باقتراح شانجير أن يقوموا بجولة في المنزل للتفرج على ما فيه من تحف تراثية من تاريخ المسلمين الهنود كان شانجير يعتز بها.. ولكن صلاح رأى في تلك الأشياء خاصة بتلك الرسوم المصورة على السجاد والتي تمثل بطولات حمزة عم النبي.. رأى فيها تجسيداً للوحشية وهوس في سفك الدماء.. والتمتع الوحشي بآلام الآخرين..

وبعد أن أتموا الجولة كان شانجير يشعر بالفخار لكونه ظهر أمام زينات وكيل على أنه رجل يعتد بانتمائه وأصالته وقال لها: (هذا هو أنا على حقيقتي.. ولكن انظري ما فعله بي ابني.. لقد حول نفسه إلى مقلد لكائنات غير موجودة ليس لدي الآن من يرثني ويتابع الطريق الذي سرت عليه وهذه هي الطريقة التي ينتقم بها مني.. إنه يستلب أصالتي.. والآن عليك أن تصدري حكمك بيننا كما اتفقنا في البداية!!).

مشت زينات وكيل باتجاهه ووضعت يديها على خديه.. وقبلته على رأسه.

أمضى صلاح الدين عدة أيام وهو يرفض أن يقابل زينات وكيل أو حتى أن يجيب على رسائلها التي تتركها له في الفندق بعد أن خذلته وخانته بتلك الطريقة. وانتهت الفترة المحددة لعرض مسرحية (المليونيرات) وحان الوقت بالنسبة لصلاح للعودة إلى الوطن.. وفي ذلك اليوم توجه صلاح إلى غرفته في الفندق ليفاجأ بزينات وكيل وقد جلست على الأرض أمام الباب بانتظاره. وكان في ذلك اليوم قد تلقى ظرفاً من أبيه يحتوي على قطعة من الخشب وكمية من أوراق النقد التي لم تكن روبيات وإنما جنيهات إسترلينية وعندما دخل إلى الغرفة خاطب صلاح زينات قائلاً: (هل تظنين إنني أحبك؟ هل تعتقدين إنني سأمكث معك؟.. إنني رجل متزوج). أجابته: (وإنني لا أريدك أن تبقى هنا من أجلي أنا وإنما من أجل نفسك).

قال لها: (تطلبين مني أن أخجل من نفسي وأبقى.. في حين أنك أنت التي لا تعرفين معنى الخجل.. وحقيقة الأمر أن الوقاحة وقلة الحياء صفة عامة بين الهنود.. وعليكم أن تعيدوا النظر في فهمكم لمعنى كلمة العار). ردت عليه: (حسناً.. لا حاجة بك إلى أن تقول ما هو أكثر من ذلك).

مع أن امرأة الأحلام تلك كانت أقصر قامة وأقل وسامة من الأولى الحقيقية، ومع ذلك فقد تذكر شمشا ذلك الكابوس في الوهلة الأولى التي لمح فيها هذه المرأة وهي تروح وتجيء في ممرات الطائرة البستان. وكان رأى طيف لها عندما نام نوماً مضطرباً بعد رحيل زينات وكيل وابتعادها عنه وكانت هذه المرأة تتكلم بصوت

ناعم وبلهجة كندية، وكانت تنقل أحمالاً من المتفجرات وتلفها على شكل طفل بلا حراك.. وما كان يبدو على أنه شعر ذلك الطفل كان في حقيقة الأمر أطراف أصابع الديناميت وأحس أنه على وشك أن يصرخ هلعاً عندما اكتشف ذلك ولكنه تمالك نفسه ببالغ الصعوبة.. وعاد يتابع قراءة الجريدة التي كانت في يده.. ولم يلبث أن غط في النوم.. وفتح عينيه بعد قليل ليرى المغامرة الثانية في تلك الرحلة المأساوية.. حيث كان هناك رجل يمرّ بالقرب منه وكأن ذلك الرجل ملتحي ويرتدي نظارة قاتمة من النوع الرخيص ولم يكن ذلك الرجل سوى جبريل فاريشتا نفسه الذي كان مسافر متنكراً على الطائرة نفسها، في حين كان يجلس إلى جواره رجل يرتدي بنطالاً من ذلك النوع الذي يرتديه عادة لاعبوا البيسبول.. ويرتدي قميصاً مشجراً لامعاً رسمت عليه صورة تنين صيني. أحس ذلك الرجل بشمشا يتأمله. قدم له نفسه على أنه (يوجين دمدي من الحرس المسيحي) سأله شمشا (هل تعني أنك رجل عسكري) أجابه الرجل ضاحكاً (نعم.. نعم.. يا سيدي إنني جندي متواضع في جيش العلي القدير.. إنني عالم ديني.. وكنت موفداً في بعثة تبشيرية في بلادكم العظيمة لمكافحة التوجهات الداروينية التي أخذت بالانتشار بين أبناء شعبكم.. وكنت مكلفاً بمحاربة داروين وكتبه وأفكاره. إن داروين هذا إنه الشيطان نفسه وأنا لا أقبل بأن يكون جدي قرداً من فصيلة الشمبانزي).

في تلك الأثناء أطفئت أنوار الطائرة ليبدأ عرض فيلم سينمائي على الشاشة في مواجهة الركاب، وتابع دمدي ثرثرته التي لم يتمكن

شمشا من إخفاء تبرمه منه. فلم يلبث دمدي أن نام نوماً عميقاً وفي الحين الذي كانت فيه عدوى النوم تكاد تصيب شمشا سطعت أضواء الطائرة فجأة وراح يركض في ممراتها أربعة أشخاص مدججين بالسلاح.

احتجز ركاب الطائرة لمدة مئة وأحدى عشر يوماً بعد أن أجبرت على الهبوط في مدرج صغير تحف به كثبان رملية صحراوية قرب واحة لعل أحد الشيوخ كان يملكها وبمجرد هبوط الطائرة في ذلك المكان.. امتلاء المدرج سيارات مصفحة وقوات عسكرية وبسيارات الليموزين المزينة بالأعلام التي كان أصحابها يستفسرون عن مصير الطائرة المنتظرة.. وفيما إذا كانت ستنسف أم لا؟ وكان الخاطفون الأربعة يتحفزون في زواياها وأيديهم على الزناد.. في حين انطلقت في أرجاء الطائرة أصوات عويل الأطفال. وسيطر الرعب على الجميع. وما لبث الخاطفون الأربعة.. الرجال الثلاثة والمرأة أن سيطروا على الموقف.. وكانوا جميعهم يتمتعون بالجمال والوسامة وكانت الأسماء التي أعلن عنها الشبان الثلاثة هي: دارا سينغ وبوتا سينغ وبان سينغ.. في حين كان اسم المرأة هو تافلين.

وبدا لشمشا أن الرجال الثلاثة هم من المغامرين ومحبي القتل الهواة.. وذلك أنه كانوا يفضلون الوقوف قرب أبواب الطائرة حتى يراهم الناس في الخارج دون أخذ الحيطة المطلوبة في مثل هذه المواقف وحيث كان يمكن لأي قناص من اصطيادهم جميعاً. إلا أن المرأة كانت تتجاوز تلك المظاهر السخيفة وكان يبدو عليها الضيق من تصرفات زملائها.. وكانت جميلة إلا أنها لم تكن تحاول

استعراض ذلك الجمال. وقدر شمشا بينه وبين نفسه أنها الأخطر من بين الجميع.. لم تكن تبحث عن مغامرات يعرضها التلفزيون شأن زملائها الشبان.. بل كانت تقوم بعملها بدقة وعلى الوجه المطلوب، ولذلك فقد كانت الوحيدة التي تبعث الرعب في نفوس ركاب الطائرة.

أما ما كان المختطفون يطلبونه فلم يكن فيه أي شيء جديد.. كالمعتاد فقد كانت رغباتهم الحصول على استقلال وطنهم وحرية التدين.. وإطلاق سراح بعض الموقوفين والعدالة وفدية مالية معينة تعينهم على الانطلاق إلى بلد يختارونه هم وقد تعاطف معظم المسافرين معهم في كل ذلك رغم كون أولئك المسافرين تحت تهديد القتل في أية لحظة.

وما لبث الخاطفون أن أطلقوا سراح معظم الركاب.. واحتفظوا بخمسين راكباً فقط.. وسمحوا للنساء والأطفال والشيوخ بمغادرة الطائرة واتضح أن صلاح الدين شمشا كان الوحيد بين زملائه الممثلين الذي قرر المختطفون الاحتفاظ به. أما المبشر يوجين دمدي فقد ثارت ثائرته عندما لم يسمح له بالمغادرة وراح يرغي ويزيد ويصرخ بالشتائم والسباب.. ولم تجد تافلين بُداً من إسكاته بأن ضربته على فكه السفلي بأخمص بندقيتها بعنف أدت معه الضربة إلى قطع جزء من لسانه مما جعلهم يطلقون سراحه خوفاً من إصابته بالغرغرينا.. وهكذا أطلق سراح المبشر بعد أن فقد الأداة التي تمكنه من ممارسة مهنته.. وحصل على حريته بعد أن فقد لسانه..

كان هناك مركبة تأتي إلى الطائرة (البستان) مرتين في اليوم لتزويدها بالطعام والماء.. بعد أن توقفت جميع أجهزة الاتصال فيها.. وبعد مضي عدة أسابيع ابتدأ بعض الركاب المحتجزين يصابون بحالات هذيانية.. ونظراً لعدم تجاوب السلطات مع طلبات المختطفين فقد أصيب الشبان الثلاثة بحالة سوداوية عميقة. وما لبثت تافلين أن استدعتهم إلى زاوية ثانية من زوايا الطائرة وعندما عادوا إلى أماكنهم لم تكن تافلين معهم.. وكان يبدو عليهم الخجل من أنفسهم.. وبعد قليل عادت تافلين بدورها وقد بدا عليها العزم والتصميم.. كانت تريد أن تثبت أمام الرهائن أن الفشل لا يفتت عزيمتها.. فوقفت أمام الجميع لتنزع عن جسمها ثوبها الوحيد وتقف عارية تماماً لا يغطي جسدها إلا القنابل والأحزمة والشحنات الناسفة المربوطة والمثبتة على صدرها وساقيها.. تماماً كما رآها شمشا من قبل في حلمه. وصاحت وهي في تلك الحالة: (سوف يسألنا التاريخ ما هي القضية التي تكافحون من أجلها) وكان جسدها في تلك الوضعية يجيب عن السؤال.

ومرت الأيام متثاقلة، وعثر جبريل فاريشتا صدفة في جيب المقعد على أوراق كتبها يوجين دمدي وخلفها هناك قبل مغادرته وراح النجم السينمائي يقلب تلك الأوراق وهو يغالب النوم ويفتح جفنيه الذابلتين بصعوبة. وكان من مضمون تلك الأوراق أن العلماء أنفسهم يشغلهم مسألة اختراع إله خاص بهم.. اختراع قوة موحدة تشمل كل تحولات الكهرباء المغناطيسية والجاذبية وصراع القوى..

بمعنى آخر مسألة الاختيار بين إله غبي غير مجسد وإله حقيقي مجسد وحيّ !! قال جبريل لشمشا: (إن الواحد منا لا يستطيع أن يطلب مفاتيح الفردوس من موجة كهراطيسية)، وما لبث أن أغمض عينيه ثانية وهو يقول: (إن مناقشة كهذه تجعلني أحس بالدوران والغثيان).

لم يعد شمشا ينتبه إلى أنفاس فاريشتا البخرة ذات الرائحة الكريهة، ففي جو كذلك الجو في طائرة مختطفة تعبق روائح التعرق الآدمي وأنفاس الناس فيها تصبح رائحة كتلك الرائحة أمراً عادياً.. ولقد أسند جبريل فاريشتا رأسه على كتف شمشا ونام أربعة أيام بلياليها.. وعندما استعاد وعيه وجد أن شمشا قد نقله بمساعدة ذلك المختطف الآخر الشبيه بتيس الغابات واسمه (جالاندري).. إلى نسق من المقاعد الخالية في منتصف الطائرة.. ومضى إلى المرحاض وبقي يتبول لمدة أحدى عشرة دقيقة.. وعندما عاد إلى الطائرة كان يبدو عليه الخوف الشديد..

وبعد مضي ليلتين أخرتين لاحظ شمشا أن جبريل يغالب النوم مرة ثانية أو بالأحرى يقصد مشاهدة تلك الأحلام التي كان يراها في نومه. وانطلق يعدد ثمانية من أعلى القمم في العالم، فقال له شمشا: (هل تعدد هذه القمم حتى تنام؟) فأجابه جبريل: (كلا يا صديقي.. ولكن حتى أبقى مستيقظاً).

كان جبريل يخشى أن ينام. ولم يعترف أن أحلاماً غريبة ابتدأت تلاحقه كلما نام رأى أحلاماً متسلسلة تعود للاستمرار من حيث انعطفت في حالات اليقظة واعترف جبريل لشمشا بذلك الوضع:

(إن أحلامـي الغريبـة تلـك أشـبه بشـريط فيـديو يتوقـف عنـدما استيقظ.. ويعود للاستمرار مـن حيث أنني عندما أنـام ثانيـة.. ألا يدعو هـذا للجنـون أم أنـه الجنـون بعينـه؟) أجابـه شمشـا: (إنـك لا تبدو مجنوناً)، فـرد عليـه جبريـل: (إذاً بحـق الجحـيم مـا ذلـك الـذي يدور في رأسي؟).

وكان جبريل يصبح كثير الكلام في حالات يقظتـه.. وراح في تلـك الطائرة القابعة قرب واحة (زمزم) يخبر الجميـع بـأنهم مـوتى وأنهـم يتـأهبون لـولادة جديـدة يتناسـخون مـن خلالهـا بأشـكال جديـدة وظروف جديدة وخاطب شمشا قائلاً: (ما قولك بـأم واحدة تلد خمسين طفلاً توأماً؟) كان التولد في نظر جبريل كلمة تتضمن في طياتها على كثير من المفاهيم.. بدءاً من التحـول إلى رمـاد والتحـول يولد حياة جديدة.. إلى مفهوم قيامة المسيح مباشرة وبعد الموت ومن ثم حلول الروح في جسد طفل حديث الولادة.. والتحولات الفئيوية التي تنتقل فيها الروح الإنسانية إلى أجساد الثيران. والأدوار المتعددة للحياة الواحدة. ولكن شمشا لم يكن يرى أن كل هذه التحولات مشروطة بالموت وإنما هي نوع من عودة الروح عبر بوابات مختلفة ومتعددة.. وأصر جبريل على أفكاره بالقول: (إن كل قديم لا بد له من أن يموت.. وإلا لما كان هناك جديد).. وكثيراً ما كانت مثل تلك الحوارات تنزع بجبريل إلى البكاء بدموع غزيرة.. بحيث يضيق به شمشا ويقول له: (قد يكون أيها المسكين أن نفسك القديمة قد ماتت.. وأن ذلك الملاك الحالم على وشك أن يولد في جسدك القديم!!).

بعد مئة يوم ويوم صرح جبريل لشمشا بالقول: (ألا تريد أن تعرف سبب وجودي معك هنا؟) سوف تعتبر هذا جنوناً ولكنني هنا من أجل امرأة: امرأة هي حب حياتي الأعظم.. بقيت معها ثلاثة أيام ونصف كانت من أعمق تجارب حياتي بل أعمقها على الإطلاق وأقسم لك عندما كنت أقبلها كانت تتطاير شارات تصعقني.. صدق ذلك أو لا تصدق.. كانت هي تقول إنها الكهرباء السالبة الكامنة من سجاد الغرفة.. ولكن ذلك غير صحيح بدليل أنه لم يحدث لي من قبل عندما كنت أقبل النساء الأخريات في الفنادق الأخرى. أما معها فقد كنت أصاب بصدمة كهربائية تجعلني أقفز وأرتد من الألم !!). لم يكن جبريل يجد الكلمات المعبرة عن حقيقة تجربته مع تلك المرأة الجبلية الجليدية (آليلويا كون).. وكان شمشا في تلك الأثناء يتذكر باميلا.. وزينات وكيل.. وابتدأ أخيراً يصاب بالغضب والإحباط غير أن جبريل لم يكن يلاحظ ذلك وقال له بصورة عفوية وهو يربت على ظهره: (ابتهج أيها الأحمق.. فلن يطول بنا الأمر كثيراً).

في اليوم العاشر بعد المئة.. توجهت تافلين إلى ذلك الرهينة (جالاندري) الشبيه بتيس وصاحت في وجهه: (إننا لم نتلق أي جواب على رغباتنا من أولئك الأوغاد بعد كل هذه الفترة الطويلة.. ولا بد من تقديم أضحية.. ولتكن أنت بالذات أول ضحية أيها الحواري الوغد الخائن). انطلق جالاندري يصرخ طالباً الرحمة.. ولكن تافلين اقتادته.. من شعره إلى أحد أبواب الطائرة وكان هو يزحف على يديه وركبتيه وقد اتسخ بنطاله من الخلف بمفرزاته

التي تدفقت منه من شدة الخوف وعند الباب أطلقت النار على مؤخرة رأسه ودفعت به إلى الخارج وأغلقت الباب.

صاح بها مان سنغ: (إلى أين سنمضي الآن. إنهم سيتعقبوننا أنى ذهبنا بقوات الصاعقة، لقد وقعنا في المصيدة!) قالت له تافلين بنعومة: (الاستشهاد مجد حقيقي.. وستتحول إلى كوكب أشبه بالشموس).

أقلعت الطائرة مرة أخرى باتجاه الغرب.. ووصلت إلى ما فوق جبال الألب ومن ثم إلى ما فوق فرنسا باتجاه الساحل البريطاني.. وكانت تصل رسائل لاسلكية تقول: (هل ترغبون بالحصول على إذن بالهبوط؟) دونما مجيب وابتدأت مؤشرات الوقود تتجه نحو الصفر.. فتفجر صراع بين تافلين وبين مان سينغ انتهى بأن غرزت تافلين خنجرها عميقاً في بطنه فسقط على الأرض عندما نهض كانت تافلين تنبه جميع من في الطائرة.. لأنها كانت كشأنها على الدوام تمسك بالسلك الذي بجذبه تسحب كل صمامات القنابل حول جسمها.. واندفع كل من دارا وبوتا باتجاهها ولكنها كانت قد جذبت السلك وانهارت جدران الطائرة.. لم يكن موتاً.. وإنما ولادة جديدة !!.

الفصل الثاني

ماهاوند

كانت والدة جبريل في بعض الأحيان في مرحلة طفولته تسميه (الشيطان) وذلك حين تعلم بما كان يقوم به في أثناء توزيعه لوجبات الطعام على عمال بومباي، حيث كان يعتمد أن يضع اللحم المخصص للمسلمين في أطباق الموزعين المختصين بإيصال تلك الوجبات إلى الهندوس.. وبعد قليل تقوم قائمة هؤلاء حتى ليكادوا يهاجمون الآخرين بأسلحتهم فتشب فتنة لا أول لها ولا آخر.. ومع ذلك فقد كانت والدة جبريل بعد ذلك تحتضنه وتهدهده بين ذراعيها، حيث ينام.. ويروح يتضخم حجمه حتى يتحول إلى عملاق بلا أجنحة.. وحتى تصبح قدماه في أقصى أقاصي الأفق في حين تكون ذراعاه تحيطان بالشمس! وكان في أحلامه يرى الشيطان وهو يرمي من السماء وهو يتشبث بغصن من سدرة المنتهي قرب العرش الإلهي.. وهو يحاول البقاء في تلك الأعالي.. إلا أنه يفشل ويسقط.. ومع ذلك يبقى على قيد الحياة وهو يغني من الجحيم السفلي أغانيه وآياته العذبة المؤثرة.. وتشاركه في ذلك الغناء بناته الثلاث اللات ومنات والعزى.. بحيث يرددن مخاطبات جبريل: (كم نخبئ لك من الخدع والأحابيل.. لك ولذلك التاجر الواقف على الأكمة؟!) ولكن قبل حكاية ذلك التاجر هناك حكاية يوحي بها كبير الملائكة جبريل تتعلق بنبع زمزم الذي يقوم هو - جبريل - بالكشف عنه لهاجر العصرية التي يهجرها النبي إبراهيم ومعها طفلها منه..

يهجرها في الصحراء ولا تجد ما تشربه إلا الماء البارد من ذلك النبع.. وعندما يقوم (جرهم) لاحقاً، بطمر ذلك النبع بالوحل والذهب، مما يطمس آثاره يعود جبريل ليهدي إلى مكانه (المطلب) صاحب الخيام الحمراء القرمزية.. والذي هو والد فرجل ذي الشعر الذهبي الذي يصبح بالتالي والداً للتاجر.. والذي سنروي قصته..

عندما أصبح ذلك التاجر ورجل الأعمال الناجح في الرابعة والأربعين من العمر.. وبينما كان كعادته يصعد باتجاه قمة الجبل.. كانت المدينة في أسفل السفح تقيم الاحتفالات وتحتفل بالأعياد ولكنه يتابع صعوده وحيداً.. كان ذلك التاجر عالي الجبين ذا أنف أشبه بمنقار النسر عريض الكتفين ضيق الورك.. ذا قامة معتدلة.. واسع العينين.. وتظلل عينيه أجفان طويلة أشبه بأجفان فتاة!! وكانت خطواته عريضة بالنسبة لطول ساقيه ولذلك فقد كان خفيف الحركة سريع المشي شأنه في ذلك شأن كل اليتامى الذين يتحاشون بخفة حركتهم أن يبقوا مستهدفين من قبل من يتصدرون لاضطهادهم. كان يقضي معظم أيامه على ذلك الجبل.. بحيث كان أحياناً يقضي معظم أيامه على ذلك الجبل.. وبحيث كان أحياناً يقضي شهر بكامله بالقرب من القمة، وذلك هو التاجر ورجل الأعمال الناجح الذي أصبح اسمه فيما بعد (محمد).

كانت مدينة الجاهلية مشيدة بكاملها من الرمال.. وكان سكانها عبارة عن ثلاثة أو أربعة أجزاء من الرحل الذين لا تربطهم بالأرض أية جذور. وقد استهوتهم الإقامة في ذلك المكان على مفترق الطرق

التي كانت تسير عليها قوافل التجار. وكان الأغنياء منهم قد أقاموا لأنفسهم أبنية شاهقة ذات نوافذ زجاجية ولكن تلك الأبنية ككل أبنية المدينة كانت مشيدة من الرمال. كان كل شيء في ذلك المكان يتكون في أساسه من رمال متناثرة. ولذلك فقد كان الماء العدو اللدود لمدينة الجاهلية.. وكان موزعو الماء وبائعوه من السقايين يعتبرون منبوذين. ولم يكن في تلك المدينة إلا قلة قليلة من أشجار النخيل التي تضع جذورها في أعماق الأرض سعياً وراء الرطوبة. أما الماء فقد كان غير موجود إلا في بعض الغدران والينابيع التي تترقرق تحت الأرض ومن تلك الينابيع ذلك النبع الأسطوري بئر زمزم.. الذي كان يقع بالقرب من البيت.. بيت الحجر الأسود.. وكان يستقي من ذلك البئر ذلك السقاء المنفر المسمى خالد.

كانت تلك المدينة تعتبر بحق مدينة التجار.. وكانت تتزعمها قبيلة قريش. وفي تلك المدينة تحول أحد أولئك التجار إلى نبي وأصبح مؤسس أحد الأديان العظيمة في العالم.. وقد واجه في هذا اليوم بالذات.. يوم عيد ميلاده الرابع والأربعين منعطف حياته الكبير حيث بلغ أذنه صوت هامس يقول له: (من أنت وما هي حقيقتك؟ أرجل أنت أم فأر؟) ولقد سمعنا ذلك الصوت من قبل!.

وفي قديم الزمان أتى إبراهيم إلى هذا الوادي ومعه هاجر وولدها إسماعيل. وهناك تخلف إبراهيم عن هاجر في ذلك المكان النائي الجاف القاحل. وسألته في ذلك الحين هل يمكن أن تكون تلك إرادة الله؟ فأجابها: إنها كذلك. يا له من وغد، لقد كان الرجال منذ القدم يستخدمون الله لتبرير ما يمكن تبريره!! وبعد رحيل

إبراهيم راحت هاجر ترضع إسماعيل حتى جف حليبها وانطلقت تعدو بين مرتفعي الصفا والمروة بحثاً عن إبراهيم أو عن أي شبح لأي إنسان أو حيوان حتى ظهر لها جبريل وهداها إلى مياه زمزم. وبهذا الأسلوب استطاعت هاجر أن تستمر في العيش هي وطفلها إسماعيل.

ولكن ترى هل كان أهالي تلك المدينة يحتفلون بهذه الذكرى؟ أبداً.. بل هم في واقع الأمر كانوا يحتفلون بزيارة إبراهيم لذلك المكان. وكانوا يتجمعون هناك ويقومون بالصلاة والعبادة.. ولكن الأهم من كل شيء أنهم كانوا يتجمعون للإتجار وإنفاق المال وكسبه.

لقد كانت مدينة الجاهلية في ذلك اليوم تعبق بالعطور من كل أصنافها . وكان الحجاج يشربون خمر البلح.. ويتجولون في السوق الكبير.. في عيد إبراهيم.. وكان بين هؤلاء رجل يفوق ماهاوند بطول قامته، ويتميز بلحيته المناسبة لوجهه النحيل، إنه كريم أبو سنبل عظيم الجاهلية وزوج المرأة فائقة الجمال هند، وكان هذا الرجل رئيساً لمجلس المدينة.. وكان غنياً فوق كل تصور، ذلك أنه كان يمتلك المعابد التي كانت تشمخ عند مدخلها بالإضافة إلى ذلك فقد كان لديه من الإبل. وكانت زوجته أجمل نساء المنطقة. إذن ما الذي كان يقلق ذلك الرجل ويزعزع ثقته بنفسه، إنه لا أحد سوى ماهاوند !!.

شق أبو سنبل طريقه في وسط الازدحام وبين أولئك التجار القادمين من كافة الأرجاء ومن كافة الانتماءات. وكان الضجيج يملأ المكان وكان الشعراء يقفون على أماكن مرتفعة ويلقون

قصائدهم المنظومة بوزن الرجز بينما كان غيرهم يلقون بقصائد من أوزان أبلغ تأثيراً. وكان المعروف أن القصائد السبع التي تفوز في تلك المنافسة تعلق على جدران البيت العظيم.. بيت الحجر الأسود!! أومأ أبو سنبل عندما لمح شاعراً بعينه يمضي إلى جواره، وكان ذلك الشاعر نحيفاً عسي المظهر، وقد نظر إلى أبي سنبل وسأله: (ما الذي يقلقك أيها الشيخ؟) رد عليه أبو سنبل: (يالك من فتى لقد أطبقت شهرتك الآفاق حتى قبل أن تسقط أسنانك اللبنية.. انتبه إلى نفسك وإلا اقتلعت أسنانك الدائمة من فمك) أجابه الشاب: (إنك كلما اقتلعت لي سناً نبت لي بدلاً منه سن جديد أقوى وأحد.. وأقدر على العض وإسالة الدماء الغزيرة الحارة) رد عليه أبو سنبل: (يبدو أنك تحب طعم الدماء). هز الشاب كتفيه بلا اكتراث وقال: (إنني شاعر.. ولا بد للشاعر أن يحب طعم الدم، حيث أنه يصبح شاعراً حقيقياً عندما يتمكن بأشعاره من أن يجرح!!).

ولم يكن ذلك الشاب سوى شاعر الهجاء (بعل). قال له عظيم الجاهلية: (إن لدي مهمة أحب أن أكلفك بها!! وهي مهمة أدبية.. وأنا أعرف حدودي أقف عندها.. فالشعر الهجائي أمر خارج حدود إمكانياتي).. وكانا في تلك الأثناء قد وصلا إلى مدخل بيت الحجر الأسود.. وتابع أبو سنبل: (ثم لا تنسى أن لي عليك حقوقاً.. أليس كلانا نخدم السيدة ذاتها؟!) فار الدم في تلك اللحظة من وجنتي الشاعر بعل.. وخاصة عندما دفعه الشيخ إلى داخل البيت.. وعندما أصبحا في الداخل كانت الآلهة كلها تشرف عليها من الإله

بعل والإله قابيل ونفروح ومناف ونصر وقزح.. بالإضافة إلى ذلك الإله المسمى الله الذي كان الجاهليون يعتقدون أن له سطوة كبيرة على كافة الآلهة.. انحنى كلاهما تحت نصب العزى ومناة وما لبثا أن أصبحا تحت الإلهة اللات التي تضاهي الله في نفوذه وسطوته. وكانت هذه الآلهة ومعبدها تشرف عليها عائلة عظيم الجاهلية أبو سنبل أو بالأحرى عائلة زوجته هند وكذلك كان معبد كل من العزى ومناة.

وفي ذلك المكان فاجأ عظيم الجاهلية الشاعر بعل بركلة على كليته أسقطته أرضاً وهو يتلوى من الألم.. وخاطبه قائلاً بحنق: (إنني أعرف أيها التافه أنك تنكح زوجتي.. هيا انهض وسر أمامي). تحامل الشاعر على نفسه وهو يعاني شديد الألم.. وما لبثا أن خرجا إلى خارج ذلك البيت واتجها إلى مكان كان يقف فيه كل من السقا خالد.. وسلمان الفارسي.. والعبد العملاق بلال الذي اشتراه ماهاوند من صاحبه وأعتقه.. والذي كان له صوت يضاهي حجمه من حيث القوة والضخامة.. عند ذلك أشار عظيم الجاهلية إلى هؤلاء الثلاثة وقال مخاطباً بعل: (هؤلاء هم الذين أطلب إليك التوجه إليهم بهجائك المقذع.. ولم يتمالك بعل نفسه من الضحك باستخفاف رغم خوفه وألمه وقال: (هؤلاء المهرجون السخفاء؟!.. أتباع ماهاوند؟! هل يدور في خلدك أن إله ماهاوند الواحد سيدمر آلهتك الستة والثلاثين؟ إن ذلك لا يمكن أن يحدث..) أجابه أبو سنبل: (ادخر إهانتك وسلاطة لسانك لتبثها ضد هؤلاء من خلال أشعارك. يجب أن تعلم أنني أريد أن تكون تلك الأشعار آية في

البلاغة والتأثير.. لا تناقشني وافعل ما آمرك به، ليس لديك أي خيار آخر)!!.

كان ماهاوند هو العدو الأول لأبي سنبل في تلك الآونة.. وتذكر كيف أن ذلك العبد الضخم بلال كان في منتهى الصلابة.. لدرجة أن سيده الأول الذي باعه لماهاوند حاول إرضاخه بتعذيبه وبوضع الصخور الثقيلة على صدره.. وكان في تلك الأثناء يسأله.. من هو إلهك؟ فكان يجيب: أحد. أحد.. أحد. وظل على تلك الحال حتى جاء ماهاوند واشتاره وحرره، وراح أبو سنبل يفكر: إن بعل على خطأ إذ يستهتر بهذه المجموعة.. وأنا أخشى ماهاوند لهذه الأسباب بالذات بسبب صلابة وعناد أتباعه. ماهاوند نفسه رجل طموح يحلم بأن يكون السيد الأول في مدينة الجاهلية.. ولابد من أنه يخطط لذلك.. من خلال تلك الخلوات التي يهيئها لنفسه في ذلك الجبل والتي يدعي أنه يقابل الملاك فيها.

كان في مدينة الجاهلية عصابات متخصصة بخطف الحاجات من النساء والمطالبة بفدية كبير لتخلية سبيلهن.. وكان يتردد في بعض الأوساط أن أبا سنبل يقابل زعماء تلك العصابات ويتعاون معهم على التنظيم.. وقد صرح ماهاوند برسالته: عبادة الإله الواحد.. دون غيره.. ولو انتشرت ديانة كهذه في تلك البلاد.. إذن لخسر أبو سنبل كل شيء.. وكان أبو سنبل في تلك اللحظة يجلس في منزله.. صفق بيديه فدخل عليه المخصي.. قال له أبو سنبل بلهجة آمرة: أرسل رسولاً إلى بيت الكاهن ماهاوند وسنفاوضه على

أن يقبل بثلاثة من آلهتنا على الأقل.. في مقابل أن نقبل نحن بإلهه الواحد.

تلامذة ماهاوند الثلاثة: السقاء، والهاجر، والعبد يقضون جل وقتهم في الاغتسال بالماء من بئر زمزم وبالصلاة. إن حبهم للماء هو خيانة لحضارة الصحراء بطريقة أو بأخرى ويراقبهم الشاعر بعل من طرف خفي لكن سلمان يكتشفه فينبئ (بلال) بذلك قائلاً: لقد اختار بعل مهاجمتنا!.

يبتسم بلال بغير اكتراث في تلك الأثناء يشرئب السقاء خالد إذ يرى حمزة عم ماهاوند يتجه إليهم بادي القلق كان حمزة رغم أعوامه الستين معروفاً في المدينة بأنه مصارع الأسود وواحد من أبرز صناديدها. ومع أنه كان أضأل شأناً من ذلك الصيت الذائع وتلك السمعة المدوية التي لعله كان ينفق بعضاً من ماله لتكريسها في أذهان الناس؟ وينبئ حمزة الشبان الثلاثة بأن ماهاوند لم يعد. فيقلق بهذا الشأن كل من خالد وبلال.. وإلا أن سلمان يظل هادئاً، وبعد لحظات يطل عليهم ماهاوند فجأة ويجلس على حافة البئر ويخاطبهم قائلاً لقد عرضت علي مساومة، يجيبه خالد صائحاً دون تفكير: إذا كانت من أبي سنبل، فلنرفضها. ويقول المؤمن بلال لا تقدم عظاتك للرسول.. إنه بالطبع لابد وأن يكون قد رفضها. يسأل سلمان الفارسي: ما هو نوع تلك المساومة؟ يبتسم ماهاوند بهدوء ويجيب: جميل أن يكون واحد من الثلاثة يريد أن يفهم؟ ويتابع أنها مسألة صغيرة.. إن أبا سنبل يريد من الله أن يسدي إليه جميلاً.. ينظر حمزة إلى وجه ابن أخيه فيلمح عليه التعب والإعياء،

يقاطع خالد ماهاوند مرة ثانية صائحاً: لا شيء البتة.. إن الله لن يمنح أبا سنبل أدنى عطف. لكن حمزة يمسكه. يتابع ماهاوند: يريد أبو سنبل من الله أن يتكرم - وقد استخدم كلمة يتكرم - ويعترف بثلاثة.. ثلاثة فقط من آلهتهم الاثنان مائة والستين ويقر بأن هؤلاء الثلاثة جديرون بالعبادة.. يصيح بلال: لا إله إلا الله.. يغضب ماهاوند ويخاطب جماعته بانفعال. ألا تعفون إلي أيها المؤمنون.. ألا تصغون إلى رسولكم؟ يعودون إلى الصمت فيتابع: أبو سنبل يريد من الله أن يعترف باللات والعزى ومناة في مقابل قبوله بنا ومهادنتنا بالإضافة إلى اختياري أنا لأصبح عضواً في مجلس مدينة الجاهلية؟

يقول سلمان الفارسي إن هذا مجرد فخ.. هل هذا هو الوحي الذي تنزل به جبريل إليك في الجبل؟ لابد وأن في الأمر خدعة ما أو تزويراً ما، يهز ماهاوند رأسه قائلاً: إن جبريل يخاطبني فاسمع صوته يتردد من أعماق نفسي وروحي ولذلك فلا مجال للمغالطة، يرد عليه سلمان: ربما كانت خدعة من نوع جديد.. إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً.. لقد مضى علينا زمن طويل ونحن نردد بناء على توجيهاتك: إن لا إله إلا الله.. والرضوخ لهذه المساومة يضعفنا حيث لن نجد بعد من يؤمن بما تقوله. يرد عليه ماهاوند ضاحكاً: إنك مازلت حديث العهد بيننا، وأنت لا تعرف الناس هنا على حقيقتهم.. ألا ترى أنهم حتى الآن لا يعيروننا أي انتباه ولا يحسبون لنا حساباً.. ألم تقرأ ما قاله فينا الشاعر بعل.

اصغ إلي بإمعان إيها الرسول

إن ما تبشر به من الوحدانية

وقولك أحد .. أحد .. أحد

لا يعد أي شيء لأهالي مدينة الجاهلية

وهو مردود عليك؟

إنهم يسخرون منا في كل مكان.

يبدو القلق على وجه حمزة ويقول: إنك لم تكن تلتفت إلى ما يقولونه عنا من قبل.. ما الذي استجد بعد لقائك مع أبي سنبل؟ يجيبه ماهاوند: إنني أحياناً أفكر في أن أهون المسألة على الناس حتى يسهل عليهم الإيمان بما أقوله؟

تبادل التلاميذ النظرات المرتابة فلاحظ ماهاوند ذلك وصاح بهم: لقد لاحظتم جميعكم أننا فشلنا حتى الآن في كسب المؤمنين بديننا .. إن هؤلاء الناس لا يرغبون بالتخلي عن آلهتهم.. ومالبث أن نهض وابتعد عنهم.. ويمضي ليتوضأ وحيداً على الطرف الآخر من البئر، ثم يقوم ليصلي، وبعد أن ينهي صلاته ما يلبث أن يعود لينضم إليهم وهو يقول: أصغوا إلي جميعاً .. إنه عرض جدير بالاهتمام.. يجيبه خالد بمرارة: بل هي صفقة مغرية.. يهدئ حمزة من روع خالد ويعود ماهاوند فيقول: ليس المطلوب أن يصبح الآلهة الثلاثة في سوية الله ولا حتى اللات نفسها، ولكن أن تعطي هذه الآلهة أهمية متوسطة بصورة تظل معها أقل شأناً من الله.. إن أبا سنبل يطلب أن تقبل هذه الآلهة الثلاثة.. وسيصبح سكان مدينة الجاهلية بأكملهم معنا بنفوسهم وأرواحهم.. يسأله سلمان: هل سينظف البيت العظيم بعد ذلك من تلك الأنصاب؟ يجيبه ماهاوند

أن هذا لم يتم الاتفاق عليه. يهز سلمان رأسه بأسى ويقول: إن هذه الخدعة إنما تهدف إلى القضاء عليك. ويصف بلال مستطرداً إن الله لا يمكن ولا يقبل بأن يكون أربعة آلهة. في حين يقول خالد وهو يبكي: ما هذا الذي تقوله أيها الرسول.. هذه الآلهة التي ذكرتها اللات والعزى ومناة.. إنها جميعاً من الإناث؟ هل سيكون لنا آلهات مؤنثات؟

يتدخل حمزة ليحسم المناقشة فيقول لماهاوند: إننا لا نستطيع أن نبت في هذه المسألة يا ابن أخي.. ومن الأفضل لك أن تصعد الجبل مرة ثانية وتستشير جبرائيل في هذا الشأن..

يحس جبرائيل بقلبه يكاد يقفز من صدره هلعاً وخوفاً ويحدث نفسه قائلاً: المفروض بي أن أعرف الإجابة على هذه التساؤلات. إنه يخشى هذا التاجر ماهاوند.. أليس غريباً أن يرتعش كبير الملائكة في مواجهة إنسان فانٍ؟.. ليس لديه الإجابة.. ليس لديه ما يقوله لهذا الرجل.. وها هو ماهاوند يقبل ليتلقى منه الوحي ليسأله الاختيار فيما بين الوحدانية والتعددية.. ويحدث جبرائيل نفسه: وها أنا أقف كالأبله.. ما الذي أقوله لماهاوند.. النجدة! النجدة!.

يصعد ماهاوند إلى أعلى الجبل وعندما يصل إلى تلك المغارة يحس بالتعب وما يلبث أن يغط في النوم. ولكنه كان نوماً من نوع مختلف.. كان حالة بين النوم واليقظة.. وكان في تلك الحالة يحس بألم حاد يجتاح أعماقه ويطل عليه جبريل من علٍ وهو يشعر

بالاضطراب ويحدث نفسه: ها أنا أخرج من أعماق هذا النائم.. أنا الملاك.. النفس الأخرى لماهاوند..

إنـي مـرتبط بـه بحبـل مـن النـور ولا يمكـن أن يعـرف أو يميـز الواحـد منـا الآخـر.. لا يمكـن لأحـد أن يميـز مـن منـا الـذي يحلـم بالآخر.

ويحـس جبريـل باليـأس فهـو لا يعـرف الإجابـة عـن تسـاؤلات ماهاوند. يسأله *ماهاوند: لقد رأوا منا المعجزات ومع ذلك فإنهم لم* يؤمنـوا بنـا، لقـد رأوك تهـبط إلى المدينـة وتفـتح لي صـدري، ورأوك وأنـت تغسـل قلـبي بمـاء زمـزم وتعيـده إلى جسـدي.. ومـع ذلـك فمـا زالوا يعبدون الأصنام.. وعندما أتيت في تلك الليلة وطـرت بـي إلى القدس.. ألم أعد لأخبرهم بما رأيته بالتفصيل ومع ذلك فقد ظلوا يتوجهون إلى اللات لقد هونت عليهم الأمـور حـين طـرت بـي عاليـاً حتى بلغت بي العرش، وحين فرض الله على المؤمنين أربعين صـلاة ألم أعد عدة مرات بناء على اقتراح موسى لأرجو الله أن يخفف هذا العبء.. حتى استجاب الله وقبل بخمس صلوات!! ومع ذلك فهم يحبون مناة ويفضلون العزى.. ماذا بوسعي أن أفعل، ما الذي سأتلوه عليهم!!!

لكـن جبريـل يظـل صـامتاً ولا يجيـب ويواصـل ماهاونـد أسـئلته بإصـرار! هـل يمكـن أن أعـترف بـاللات ومنـاة والعـزى علـى أنهـا ملائكة؟ أليس لك أخوات؟ هـل يمكـن أن تكـون هـذه الأسمـاء بنـات الله؟ هـل أقبـل بخـداع نفسـي وخيانـة مبـدئي مـن أجـل كرسـي في مجلس المدينة؟ بالهواني وضفاري!! إنني لا أستطيع أن أبت حتى إذا

كان عظيم الجاهلية مخلصاً في وعده حقاً.. إنني ضعيف في حين أنه وفي.. لكن انضمام سكان المدينة إلي يستحق أن أقبل بإضافة ثلاثة أسماء إلى قائمة الملائكة؟ هل يمانع الله في الاعتراف بثلاثة ملائكة في مقابل أن ينفذ الجنس البشري بأكمله؟ إنني لا أعرف شيئاً هل سيكون الله فخوراً بهذا الإنجاز أم أنه يشعر بالضغينة ثم أي نوع من الكائنات هو الله؟ وبالتالي أي نوع من الكائنات أنا نفسي!!!؟

وما لبث الوحي أن يهبط.. وماهاوند على حالته الأولى بين النوم واليقظة.. يحس بالتشنج!! لدرجة تبرز معها عروق رقبته.. ويمد يده ليضغط بها على صدره وبطنه.. وتبدأ المعجزة بالحدوث.. حيث يبدو وكأنه يستل شيئاً من أعماقه بالقوة.. ويبدأ يحس بتلك القوة تصل إلى فكيه اللذين يبدأان بالتحرك.. حيث يتباعدان ويتقاربان ثم تصل القوة إلى الحبال الصوتية!!

إنه ليس صوتي.. إنني لا أعرف كلمات من هذا القبيل إنه ليس صوتي.. ولكنه صوت.. تنفتح عينا ماهاوند على اتساعهما.. إنه يرى طبقاً ما.. وما يلبث جبريل أن يتذكر نعم أنه يراني أنا وفمي ينفتح وشفتاي تتحركان.. قوة ما تحركهما.. ما هي تلك القوة؟ إنني لا أعرف وكلمات تصدر من فمي:

ليست لعبة مسلية أن تكون رسول الله

ولكن.. ولكن.. ولكن الله ليس ظاهراً

الله وحده يعلم رسول من أنا؟!!

وهاهم في مدينة الجاهلية مايزالون في انتظار عودة ماهاوند بفارغ الصبر وأكثرهم نفاذاً للصبر هو خالد في حين يجلس حمزة على الأرض وهو يعبث بالحصى. أما سكان المدينة وزوارهم فهم يملؤون السوق وخيامه وينصتون إلى الشعراء وهم يتنافسون. وما يلبث خالد الذي كان ينتظر قرب بوابة المدينة أن يأتي لاهثاً وهو يقول: لقد عاد الرسول ولكنه ليس قادماً إلى بئر زمزم كما ويردد بعض المنتظرون عند جذوع أشجار النخيل! إذن فليس هناك رسالة!! لكن خالد يرد عليهم لاهثاً لا بل إن هناك رسالة.. فمظهره يوحي بذلك ولكنه لم يكلمني بل توجه إلى السوق!!

ويفاجأ أصحاب الخيام بماهاوند يقبل عليهم مغمض العينين ويسألونه أسئلة تنم عن القلق فلا يجيبهم.. بل يمضي ليدخل إلى خيمة الشعراء.

كان عظيم الجاهلية يضطجع على سجاد من الحرير قرب المنصة ومعه زوجته الفاتنة هند، ينهض أبو سنبل ويصيح بماهاوند : أهلاً بك أيها الكاهن الحكيم، ويسمح لتلاميذ ماهاوند بالدخول إلى ذلك المكان للمرة الأولى. ويتكلم ماهاوند دون أن يفتح عينيه! إن هذا تجمع للشعراء ولكنني لا أدعي أنني واحد منهم.. فأنا رسول الله وإنا أستوحي كلامي من الواحد الأحد الذي هو أعلم من كل الذين يجتمعون هنا!! يبدأ الموجودون بالتملق وهم يتهامسون بأن ذلك المكان ليس مكاناً دينياً .. وأن الحجاج إنما جاؤوا إلى هنا للتسلية والمتعة.. ويصيح أحدهم: اسكتوا هذا الرجل واطردوه من هنا، لكن أبو سنبل يسكت الجميع ويتوجه إلى

ماهاوند قائلاً: إذا كان ربك قد كلمك فعلاً فلا بد لجميع الناس أن يسمعوك، وبعد لحظة من الصمت المطبق يبدأ ماهاوند بالتلاوة بصوت مرتفع: بسم الله الرحمن الرحيم.. والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما خفي لقد رأى من آيات ربه الكبرى. ودون أن يبدو على ماهاوند أي شيء من التردد تابع التلاوة بصوت واضح مرتفع.. أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.. وعندما سمعت هند الآية الأولى هبت واقفة في حين أن عظيم الجاهلية قد سبقها إلى الوقوف ويتابع ماهاوند تلاوته: تلك الغرانيق الأولى.. وإن شفاعتهن لترتجى!! وتعلو صرخات الاستحسان من أنصار الآلهة اللات في أرجاء المكان وفي اللحظة ذاتها تتوجه الأنظار إلى عظيم الجاهلية وقد وضع إبهامه على شحمتي أذنيه ويصيح: الله أكبر.. وما يلبث بعد ذلك أن يسجد ضاغطاً جبهته على الأرض.. وكذلك هند التي تنتظر طويلاً لتقتدي به في حين كان السقاء خالد يقف قرب مدخل الخيمة يراقب هذا المشهد مذعوراً.. حيث ابتدأ كل من تجمع في ذلك المكان من الرجال والنساء يحذون حذو عظيم الجاهلية ويخرون سجداً على الأرض ويظل الرسول واقفاً.. وتنفر الدموع لتسيل غزيرة على الرمال من عيني السقا خالد وينطلق

راكضاً على غير هدى.. ويبقى ماهاوند واقفاً بلا حراك ودون أن يندى له جفن في عينيه اللتين ظلتا مغمضتين.

كان عم النبي حمزة في طريقه إلى بيته وحيداً مطأطئ الرأس يفكر في ذلك النصر المشؤوم الذي حققه ابن أخيه.. وفجأة سمع زئيراً فرفع رأسه ليرى في مواجهته أسداً أحمر اللون يتحفز لينقض عليه.. ولم يجد بُداً من المواجهة وهو أعزل تماماً من أي سلاح.. فصاح بذلك الوحش: هيا تقدم أيها الوحش الوغد.. لقد سبق لي أن مزقت بيدي هاتين كثيراً من القطط الكبيرة مثلك.. عندما كنت أصغر سناً.. وعندما كنت شاباً. وتلعلع ضحكة عالية من ورائه تتردد أصداؤها في أرجاء المكان ويلتفت حمزة ليرى مصدر تلك الضحكة.. وعندما يعاود النظر إلى الأمام يفاجأ بذلك الأسد وقد اختفى.. ويجد نفسه محاطاً بأناس من سكان الجاهلية يرتدون ملابس تنكرية احتفاء بالأعياد.. ويدرك حمزة أن تلك الليلة ستحفل بالرعب والجرائم وما يلبث أن يصل إلى بيته ويستل سيفه ويخرج مرة ثانية وهو يحدث نفسه قائلاً: أفضل لي أن أقتل أعدائي.. في هذه الليلة التي هي الليلة الأخيرة من الاحتفالات بعيد إبراهيم يجن جنون المدينة الجاهلية.. وتعلق القصائد على جدران بيت الحجر الأسود.. وتحل العاهرات محل الشعراء ليبدأن غنائهن الليلي لاجتذاب الزبائن..

وبعد بحث طويل مضنٍ في أزقة المدينة يعثر حمزة على ضالته.. ذلك الأسد الأحمر ذي الفكوك الثلاثة.. وتبدأ معركة ضارية بين مجموعتين من الرجال المقنعين.. وينتبه حمزة إلى أن خالد وبلال

يرتدون الأقنعة أيضاً ولكنهم يتعرضون لهجمة شرسة من قبل أعدائهم المقنعين أيضاً.. فيستل سيفه ويزأر وهو يكر على مهاجمتهم.. ويركز أكثر ما يركز على ذلك الرجل الذي يتقنع بقناع الأسد الأحمر ذي الفكوك الثلاثة.. والذي يلاقي مصرعه على يديه..

يطير جبريل فوق المدينة ليراقب القتال الدائر في أرجائها.. لقد شرب التلامذة الثلاثة خالد وسلمان وبلال من الخمر أكثر مما ينبغي لهم بعد زمن طويل من الامتناع عن احتساء الخمر وذلك نتيجة شعورهم بالتعاسة من جراء ما حدث وراحوا يستفزون الناس حيثما ساروا رغبة منهم في تدمير كل شيء وكادت المعارك تنشب ولكنها سرعان ما تنتهي في اللحظة التي يصل فيها حمزة، وفي إحدى المعارك يهاجم حمزة رجلان.. فلم يلبثان أن يسقطا أرضاً مضمخين بدمائهما، وأصيب كل من خالد وبلال وسلمان ببعض الجروح ولكنها لم تكن جروحاً بليغة ولذلك فإنهم لم يكترثوا بها.. لكن ما سبب لهم الهمّ هو اكتشافهم أن القتلى الثلاثة المقنعين بأقنعة الأسود الحمر إنما كانوا أخوة هند.. وعقب حمزة على ذلك بالقول: لقد انتهى أمرنا وجلس أتباع ماهاوند يبكون عند سور المدينة، بعد أن عرفوا أنهم تورطوا في قتل أولئك الذين يرتدون أقنعة الأسود الحمراء.

يستفيق النبي ليجد نفسه مستلقياً في سرير صنعت أغطيته من الحرير وقد تعرى تماماً من ملابسه.. ويميز بالقرب منه طيف امرأة طويلة القامة سوداء الشعر.. فاتنة تغني تلك الأغنية التي

كانت النسوة ينشدنها لتشجيع الرجال للمضي إلى ساحة المعركة ولم تكن تلك المرأة سوى هند.. سألها: ما الذي حدث لي؟ ترى هل هاجمني أحد؟ تجيبه بسخرية: هاجمك أحد؟ وما تلبث أن تصفق بيديها طالبة طعام الفطور فيدخل العبد بكل ما تطلبه.. ويعين أحدهم ماهاوند في ارتداء ثوب حريري ذي لونين: الأسود والذهبي.. يعود ليسألها: ما هذا الثقل الذي أحسه في رأسي.. هل ضربني أحد؟!! تجيبه: يا لك من رسول؟ ألم تكن لتدخل بيتي وأنت بكامل وعيك؟ بكامل إرادتك؟ لكنه لا يدرك المغزى الحقيقي لكلماتها فيسأل: ترى هل أنا سجين؟ فتهز كتفيها دون اكتراث وتجيبه: كنتُ أتجول في طرقات المدينة فتعثرت بجسدك وأنت ملقىً فاقد الوعي.. وقد كلفت خدمي بنقلك إلى هنا على حمالة.. أفلا تشكرني؟ يقول لها: شكراً لك. ترد عليه لا أعتقد أن أحداً تعرف عليك وأنت على تلك الحال.. إلا لكانوا قتلوك.. لابد وأنك تقدر ما كانت عليه طرقات المدينة في الليلة الفائتة.. تصمت قليلاً وتتابع قائلة بقلق.. إن أشقائي لم يعودوا إلى بيوتهم حتى الآن!! ما تلبث تجلس بالقرب منه وتداعب بأصابعها صدره من فتحة في الثوب الذي يرتديه وتقول له: لابد وأنك كنت مغشياً عليك.. ما الذي حدث لك؟ هل أصبحت ضعيفاً إلى حد أن يغمى عليك؟ ترفع أصابعها إلى شفتيه وتتابع متمتمة: إنني زوجة عظيم الجاهلية!.. وكلانا أنا وهو لسنا صديقين لك.. وعلى أي حال فإن زوجي رجل ضعيف!! والناس يظنون أنه ذكي ماكر.. ولكنني أعرف الحقيقة أكثر منهم.. إنني أتخذ لنفسي العشاق ولا يعارض هو في ذلك.. لا

يفعل شيئاً حياله لأن معابد الآلهة اللات والعزى ومناة تشرف عليها عائلتي.. الآلهة التي اعترفت بها على أنها من ملائكتك! لقد كان آخر عشاقي هو ذلك الفتى بعل. تلمح الغضب في عينيه لكنها تتابع بهدوء: إنني أعرف أنك تكره ذلك الشاب لكن ذلك غير مهم.. فأنت لا يضاهيك أحد.. لا بعل!! ولا حتى أبو سنبل.. أنا فقط أضاهيك!! يقول لها يجب أن أغادر هذا المكان، ترد عليه: بهذه السرعة.

بعد أن علمت هند بمقتل إخوتها ثارت غضباً وطالبت بالانتقام من قاتليه وملاحقة ماهاوند وأتباعه، وقد نبه النبي تلامذته بأن جميع أتباعه قد غادروا المدينة إلى غير رجعة بمن فيهم عمه حمزة الذي اختفى في مكان مجهول.. كل ذلك رغم أن أبا سنبل لا يتعاطف مع زوجته في تعطشها للأخذ بالثأر لأنه ما يزال يحسب الأرباح التي سيجنيها من جراء اعتراف ماهاوند بالآلهات الثلاث، لكن ماهاوند لا يستمع لنصح أتباعه ويتوجه إلى البيت الكبير.. بيت الحجر الأسود.. حيث لحق به تلاميذه على الرغم من خوفهم الشديد.. حتى يقف في مواجهة الأصنام الثلاثة ويعلن على الناس إلغاء الآيات التي أوحى إليه بها الشيطان.. ويصرخ بصوت مرتفع بآيات جديدة لتسجل بدلاً منها في القرآن: إلهكم الذكر وله الأنثى.. تلك إذن قسمة إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان.. وبعد أن يتلو ماهاوند هذه الآيات الجديدة.. يغادر المكان قبل أن يخطر لأحد بأن يلتقط أو يقذف بالحجر الأول.

بعد حذف تلك الآيات الشيطانية يعود النبي ماهاوند إلى منزله.. ليواجه أول عقاب له بسبب ذلك.. بانتظاره هناك.. وليجد زوجته ذات السبعين عاماً تستلقي ميتة وقد أسندت ظهرها إلى أحد الجدران.. فيحس بالشقاء ويظل صامتاً طوال أسابيع.. في حين يعلن أبو سنبل غضبه عليه وعلى أتباعه فيمنعهم من العمل ويسمي دينهم دين الخضوع ويوعز إلى رجال العصابات بملاحقة المؤمنين بذلك الدين أنى قابلوهم. ويعرض أهالي الواحة المسماة يثرب والواقعة إلى الشمال من مدينة الجاهلية على المؤمنين بأن يأووهم في بلدهم.. ويوافق حمزة على هذا العرض ويقتنع به ماهاوند قائلاً: إنك لن تستطيع أن تنشر رسالتك هنا يا بن أخي.. ولم يقر لهند قرار حتى تقطع لسانك.. وأرجو المعذرة على طريقتي في الكلام معك.

وقال له خالد: لقد شككت بامرأة أيها الرسول.. وظننت أنك خنتنا وخذلتنا ولكنك أثبت أنك أذكى وأبعد نظراً منا.. لقد جعلتنا نرى الشيطان بأم أعيننا وجعلتنا نرى هزيمته أمام الله الحق.. ولقد قويت بذلك إيماننا وإنني آسف على ما بدا مني من شك وريبة.

ومن قمة الجبل يراقب جبريل المؤمنين وهم يهربون من مدينة الجاهلية إلى إمبراطورية الشمس في اليوم الأول من السنة الأولى من الزمن. ويتسلل ماهاوند بدوره هارباً. وعندما بلغ نبأ هربه مسامع الشاعر بعل ينظم بعل أشعاراً بهذه المناسبة تقول:

كيف أصبحت أفكار دين الخضوع تبدو

وهي تولي الأدبار مذعورة هاربة

ويصل ماهاوند إلى الواحة.. ويبقى جبريل وحيداً على قمة الجبل ترفرف حوله ثلاثة مخلوقات مجنحة هي اللات والعزى ومناة وهي تحاول أن تمزقه بمخالبها .. ويحاول هو أن يقي نفسه من ضرباتهن التي لا تنتهي ولكنهن يبقين أقوى منه فهن مجنحات وسريعات الحركة.. ولأنه كان يحلم فقد كان هذا مفروضاً عليه.. وهو لا يقدر حتى أن يتمنى ابتعادهن عنه.

الفصل الثالث

لامنون دالتو (لندن)

كانت روزا دياموندا في الرابعة والثمانين من عمرها تقطن منزلاً منعزلاً في منطقة القناة الإنكليزي. وبينما كانت في يوم من الأيام تراقب الشاطئ من إحدى نوافذ منزلها المغشاة بالثلج وتستعيد ذكرياتها القديمة فيما بينها وبين نفسها وتفكر بالأشباح وبحكايات عنها سمعتها في طفولتها صاحت فجأة بانفعال: إنني لا أصدق ذلك. ونهضت مسرعة بساقين لا تكادان تحملانها وارتدت معطفها وقبعتها وحملت عكازتها وخرجت.. في حين كان جبريل فاريشتا قد استعاد وعيه على الشاطئ حيث سقط.. ونهض وفمه مليء بالثلج..

بصق جبريل ما في فمه.. والجدير بالذكر أن أنفاسه لم تعد بطريقة أخرى بخرة ذات رائحة كريهة.. وصاح بصلاح الدين قائلاً: هيا بنا نشرق ونشع.. دعنا نجتاح هذا المكان كالعاصفة. ولكن صلاح الدين شمشا لم يتحرك فظنه جبريل ميتاً.. وقال: لا تستطيع ذلك الآن بعد أن قطعنا كل هذه المسافة، لكن صلاح الدين لم يكن ميتاً بل كان يبكي.. وكانت الدموع تتجمد على وجهه، في حين كان جسده مغطىً بطبقة من الجليد أشبه بالزجاج.. وتحقق بذلك حلمه القديم.. ذلك الكائن الذي كان يتردد في أحلامه.. ولذلك فقد كان يخشى أن يتكسر جلده الجليدي.. وكان يخاف أن يرى دمه يتدفق من جسده، وانتابه شعور بأنه ربما سقط في مكان

آخر غير إنكلترا .. ربما في الجحيم. ولكن الجحيم مختلف تماماً عن هذا المكان، إذن لعله في النزل الذي يفصل بين الحياة والموت.. وعند هذه الفكرة ابتدأ يرتعش.. وبعد لحظات خيل إليه أن الموت ينحني له.. وسمع نقاشاً بين شخصين يقول أحدهما : إنه مايزال حياً . ثم سمع جبريل يرد قائلاً : لكن أنفاسه أصبحت بخرة إلى حد منفر للغاية.. لعل ذلك بسبب أنه لم ينظف أسنانه منذ زمن طويل؟

لقد تحولت أنفاس أحد الرجلين بحيث أصبحت عذبة لطيفة.. في حين أصبحت أنفاس الآخر كريهة منفرة.. إن سقوطهما بتلك الطريقة يمكن إلا أن يخلف بعض المضاعفات ويؤدي إلى بعض التحولات. فالأنفاس اللطيفة تتحول إلى أنفاس كريهة الرائحة والعكس بالعكس وحول رأس جبريل فاريشتا كان هناك توهج يلفت النظر وهو ما جعل روزا دياموندا تشعر بأنها على وشك الإغماء.. ولعلها تلك الصدمات التي تلقاها شمشا بصدغيه هي التي أدت إلى ظهور كدمات متورمة منتفخة والتي كانت تخفيها قبعته المستديرة التي لم تفارق رأسه.

عندما أمعنت روزا دياموندا النظر إلى جبريل فاريشتا وهو يسير بخطى متعثرة على الثلوج والتوهج الذهبي الغريب حول رأسه.. لم تفكر بالملائكة بل بالضباب الذي كان يغلف المكان.. ومع ذلك فقد راح الدم يتدفق بعنف شديد إلى حد أنها خافت من أن يتوقف عن النبض..

كان من عادتها أن تتعرى في منزلها في أيام الصحو على سبيل النزهة في ذلك القسم المنعزل من الشاطئ.. بطريقة عدائية

عنيفة.. إذ أنها غالباً ما تطردهم وتغلظ لهم في الكلام مدعية أن ذلك الشاطئ ملكاً لها. أما بالنسبة لجبريل فقد كان الأمر مختلفاً إذ أنها لم توجه إليه أية إهانة بل على العكس.. تبسمت وهي توجه إليه الدعوة لدخول منزلها قائلة: من الأولى لك أن تدخل صديقك ذاك إلى المنزل وتدفئه..

كان وجه صلاح الدين شمشا في شبابه رقيقاً في منتهى البراءة.. ولعل هذا هو السبب الذي دفع زوجته باميلا إلى أن تقع في حبه وتتزوجه. أما في ذلك اليوم فقد استيقظ شمشا ونظر إلى نفسه في المرآة ففوجئ بوجهه القبيح يبادله النظرات.. وفوجئ بكدمات بارزة متورمة ظاهرة في صدغيه.. وعزا ذلك فيما بعد بينه وبين نفسه إلى الصدمات التي تعرض لها أثناء سقوطه.

وفكر في أن يجري اتصالاً هاتفياً يعلم من خلاله زوجته بأنه لم يمت.. ولكنه تردد في ذلك لأن النهار لم يطلع بعد.. والواقع أنه لم يكن يعرف الوقت بالتحديد حيث أنه اكتشف أن ساعة يده قد ضاعت منه ولم يكن هناك ساعة حائط في المنزل الذي كان فيه، وأخيراً حزم أمره وقرر أن يتصل وبعد أن أدار قرص الهاتف بالأرقام التسعة جاءه من الطرف الآخر صوت رجل يصيح متذمراً.. ماذا تريدون بحق الجحيم؟ كان ذلك الصوت ناعساً، ولكنه كان مألوفاً تماماً بالنسبة إليه فما كان منه إلا أن أجاب آسف.. أرجو المعذرة.. لابد وأن الرقم خطأ.. وما لبث أن استلقى في تلك الحجرة المجهولة وهو يرتدي تلك البيجاما الحمراء المخططة بالأبيض التي لم تكن له.. استلقى على وجهه على

السرير الضيق وراح يبكي ويعتصر الوسادة وهو يقول: اللعنة على الهنود.. اللعنة على ذلك الوغد.. اللعنة عليهم جميعاً إنهم يفتقرون إلى الذوق وفي تلك اللحظة بالذات كان رجال الشرطة قد وصلوا إلى المكان لاعتقاله.

كان شمشا نائماً وهو محاط بزجاجات الماء الساخن التي حرص كل من جبريل وروزا على إحاطته بها حتى يستعيد نشاطه بينما كان جبريل يروح ويغدو في غرفة المكتبة القديمة الخاصة بزوج روزا المتوفي، وهو يقاوم النوم لأسباب خاصة به، وكانت روزا قد عادت إلى المكان الذي كانت تجلس فيه وهي تراقب الشاطئ. وفجأة رأت أشباح رجال كثر يتحركون على الشاطئ.. فنهضت لتبحث عن نظاراتها.. وعندما عادت كان الشاطئ يعج بالأشباح والظلال.. وكان جميع هؤلاء يتحركون بحذر وخبث وكان معظمهم يلبسون أحذية ثقيلة.. واتضح أن شخص ما أبلغ السلطات بوجود أشخاص على الشاطئ. لعل وجودهم هناك غير شرعي.. وما لبث الشاطئ بعد قليل أن أصبح يعج بسبعة وخمسين من رجال الشرطة وكان خمسة منهم قد أخذوا مواقعهم قرب مداخل المنزل والباب الأمامي.. في حين كان ثلاثة منهم يرتدون ملابس مدنية عادية قد دخلوا المنزل وميزت روزا أحدهم الذي كان المفتش الشاب لايم.. فوكزته في صدره محتجة وهي تقول: أفي هذه الساعة من الليل يا فرانك؟ ماذا يعني ذلك؟ لكنه لم يجبها خاصة وأنه كان يقف هناك مع رجال من دائرة الهجرة ومع ذلك فقد تردد قبل أن يقول لها: أرجو المعذرة يا سيدتي دياموندا لكن بلغنا ادعاءات ومعلومات لها

ما يبررها .. ولابد من تفتيش منزلك ولدينا إذن بذلك.. قالت روزا: لاداعي للاضطراب يا عزيزي فرانك.. وقبل أن تكمل عبارتها كان رجال الشرطة قد بدؤوا يتسحبون وينظرون إلى ما وراء روزا حيث كان صلاح الدين شمشا يقف وهو يثبت البيجاما بيده اليسرى على جسده.. في حين كان يفرك عينه بيده اليمنى. وقال أحد ضباط الهجرة لروزا: نرجو عفوك أيتها السيدة، وفجأة حدث ما يشبه الطوفان من رجال الشرطة باتجاه شمشا، مما أدى إلى احتجاز روزا دياموندا في زاوية الردهة بصورة لم تتمكن من رؤية أي شيء ولم تسمعه كذلك وهو يخاطبهم صائحاً: إنني لست واحداً من المتسللين بالزوارق. كما أنها لم تسمع أي من اعتراضاته على قسوتهم في التعامل معه ولم تنتبه إليه وهو يقول لهم عليكم أن تصدقونني فأنا مواطن بريطاني. ولكنه على الرغم من ذلك لم يبرز أي وثيقة تثبت صحة كلامه إذ أنه في ذلك الظرف لم يكن معه أي جواز سفر ولا أية بطاقة شخصية.. وتعقيباً على ذلك قال واحد من ضباط الهجرة ساخراً: لابد وأن عرائس البحر قد ثقبن جيوبك ونشلن جواز سفرك منك. لم تسمعه روزا وهو يصيح بهم محاولاً إفهامهم أنه ممثل في برنامج الأطفال في التلفزيون إلا أن ما لم يجرؤ شمشا على الإفصاح عنه هو رقم هاتف منزله في لندن.. ولو أنه فعل ذلك لكانوا اتصلوا بذلك الرقم وتأكدوا من صحة كلامه.. ولكن سبباً وجيهاً من ذلك هو الصوت الذي سمعه على الطرف الآخر من الهاتف عندما اتصل قبل ساعات من تلك اللحظة. حاولت روزا أن تتدخل ولكن الرجال وضعوا حداً لتدخلها قبل أن

يصبح مجدياً . وفي تلك الأثناء التي كان رجال الشرطة فيها يقومون بدفعه إلى خارج المنزل تمكن شمشا من لمس جبينه بإحدى يديه حيث أحس بأسوأ كابوس تعرض له في حياته.. أحس بقرنين أخذا ينموان والاستطالة.. تماماً كقرني تيس.

وقبل أن يخرج رجال الشرطة شمشا ليودعوه في تلك الشاحنة السوداء المقفلة التي يسمونها (ماريا السوداء).. كان جبريل فاريشتا قد هبط إلى الردهة مراقباً ذلك المشهد من زاوية جفنيه.. ولم يتمالك نفسه من القول: ما الذي يريده هؤلاء الرجال. وعندما نظر بعضهم باتجاهه استطاعوا أن يروا نوراً متوهجاً ذهبي اللون ينبعث حول رأسه وصاح به شمشا : النجدة النجدة يا جبريل. ولكن عيني جبريل وقعتا على عيني روزا دياموندا، وأحس أنه لم يعد يستطيع أن يبعد نظره عنها.. لكنه ما لبث أن أومأ برأسه وعاد أدراجه صاعداً السلالم إلى الطابق العلوي.. ولم تبدر أية محاولة من الرجال لإلقاء القبض عليه. وعندما وصل شمشا إلى (ماريا السوداء) لمح ذلك الخائن جبريل فاريشتا ينظر باتجاهه من شرفة غرفة النوم الخاصة بروزا، وفي تلك اللحظة لم يكن ذلك النور يشع حول رأسه.

حدث منذ زمن بعيد أن سافرت روزا وكانت بعد يافعة إلى الأرجنتين وهناك قابلت الدون إنريك دياموند الذي وقع في حبها وتزوجها . كان هناك سحر لا يقاوم في عينيها هو الذي يدفع الرجال إلى الانبهار بالاستسلام.. و الآن بعد أن احتجز شمشا راح جبريل فاريشتا يستعرض ما حدث ولم يتمكن إلا أن يستغرب

سلوكه تجاه صديقه في تلك الليلة التي وقعت عيناه فيها على عيني روزا.. وكان مايزال حتى ذلك الوقت يسعى جاهداً لمقاومة النوم حتى لا يعود إلى تلك الأحلام المتسللة الرهيبة.. لكنه في تلك اللحظة بالذات ابتدأ يشعر أن تلك الكوابيس أصبحت تتسلل من حلمه وتجبره على متابعتها في يقظته.. وقد بقي في ذلك المنزل مع روزا دياموندا وهو يتأمل بمنتهى الحيرة كيف أنه لم يبذل أي جهد لمساعدة شمشا.. كما أنه لم يجد تفسيراً لذلك المظهر الغريب الذي كان رأى شمشا يبدو فيه لحظة اعتقاله. وكان يقضي معظم وقته مع روزا التي كانت تحدثه عن ذكرياتها.. وفي أكثر من مناسبة رافقها إلى سوق القرية حيث كان الناس ينظرون إليها باستهجان ولكن روزا ما كانت لتأبه بهم. وكانت أحياناً تغني إحدى الأغنيات القديمة باللغة الإسبانية. ثم تنتقل لتحدثه عن الإنكليز الذين استوطنوا الأرجنتين وما قدموه لتلك البلاد من إنجازات وثم عن الثورات التي حدثت ضدهم من قبل الأهالي.

وفي يوم عيد ميلاد روزا التاسع والثمانين ذهب معها إلى سوق القرية ليشتريا كعكة وزجاجة شمبانيا احتفاءً بالمناسبة وفي السوق، وبينما كانت روزا تثرثر مع الخباز أصيب جبريل بنوبة ألم حاد تمزق أحشاؤه إلى حد أنه اضطر إلى الاستناد على عمود النور.. لكنه ما لبث أن تحامل على نفسه وعاد معها إلى المنزل للاحتفال بعيد ميلادها حيث ارتدت ثوباً طويلاً فضي اللون وظلت ترقص حتى الصباح، حيث كان الجهد الذي بذلته أكثر مما تتحمله وهي في تلك الحالة من الشيخوخة والمرض وأصيبت بحمى خفيفة..

وفي الوقت نفسه كان جبريل يعاني من نوبات ألم حاد في أحشائه مما جعله يشك في أنه مصاب بالقرحة أو التهاب الزائدة الدودية لكنه رغم كل تلك الآلام استطاع في تلك اللحظات بالذات أن يكتشف سر بقائه في ذلك المنزل مع تلك المرأة العجوز.

لقد أوقعته روزا دياموندا أسيراً لإرادتها تماماً كما وقع الملاك جبريل أسيراً تحت سيطرة ماهاوند الذي كان يجبره على الكلام حسب حاجته ورغبته!!

وتحقق جبريل فاريشتا من أن روزا دياموندا في حالة احتضار، ذلك أن الحمى تفاقمت لديها وأخذت تهذي بكلمات ذات ارتباط بذكريات حياتها في الأرجنتين في الثلاثينات. ورغم أن جبريل كان يحس بألم شديد وحرقة حول سرته فقد استلقى مستسلماً على مقعد وثير بالقرب من سرير المرأة المحتضرة.. وما لبث أن أحس بجفنيه يثقلان.. وبعجزه عن الحركة نتيجة لتثاقل جسده.. وحدث نفسه قائلاً: أنني على وشك الجنون.. هذه المرأة تحتضر.. وأنا سأفقد صوابي.

حاول أن ينهض عن المقعد ولكنه لم يستطع وكأنما كانت هناك صخرة ثقيلة قد وضعت فوق صدره وكان في بعض اللحظات يتعرض إلى ما يشبه أحلام اليقظة.



كانت تلك الليلة في سيارة ماريا السوداء باردة للغاية ولم يلبث ضابط الهجرة ستاين أن عاد يقول له: من عادتنا في هذه البلاد أن تقوم بتنظيف ما تتسبب بتلويثه، ونهض واقفاً ليمسك بشمشا من كتفيه ويجذبه ليجعله منحنياً باتجاه الأسفل وتدخل نوفاك ليقول: هيا نظف قذارتك تلك. ووضع برونو بدوره يده الضخمة على عنق شمشا دافعاً إياه باتجاه الأسفل وقال له بلهجة آمرة: باشر على الفور حتى تنجز تنظيف الأرضية في أقصر وقت ممكن.

وحتى في تلك الأثناء التي فيها صلاح الدين شمشا ينفذ رغماً عنه أقسى وأشد طقوس إذلاله فإنه كان يتأمل من طرف خفي ملامح أولئك الضباط الذين كانوا يعتقلونه ويضطهدونه بينما كانوا هم يتحدثون أحاديث مختلفة غير مترابطة عن التلفزيون وعن مهامهم في مراقبة الجماهير في مباريات كرة القدم والمناسبات التي تجرى والتي يحتشد فيها الناس بأعداد هائلة.. وفي تلك الأثناء ابتدأ شمشا يزعق كالخنزير بينما كان الشرطيون الشبان يتفحصون بأيديهم أجزاء تكوينه المختلفة.. وقد حاولوا حريصين على الرغم من استهتارهم على توجيه ضرباتهم على الأجزاء الطرية المغطاة باللحم حتى يتجنبوا أن يسببوا له الكسور أو الكدمات.

بعد مضي زمن معين لم يستطع شمشا أن يقدره في سيارة ماريا السوداء التي كانت سبباً لسقوطه الرهيب من قمة المجد إلى حضيض المذلة، وأصبح يحس بنوع من خدر وضعف الحس.. وفي تلك اللحظات كان ضباط ورجال الشرطة يتحدثون عن ضرورة

زيادة عدد أجهزة الكمبيوتر لتحقيق السرعة في الحصول على المعلومات.. فخطرت لشمشا فكرة بدت له ملائمة تماماً وصاح بهم: أسألوا الكمبيوتر عن حقيقة شخصيتي.. وتابع مغمضاً اسمي الحقيقي هو صلاح الدين شمشا والي، وأنا عضو في رابطة الممثلين وفي اتحاد السيارات ورقم عضويتي في (غاريك) كذا وكذا.. استشيروا الكومبيوتر أرجوكم. وأجابه أحد رجال الشرطة: هل تحاول أن تغرر بنا.. انظر إلى نفسك أنت أشبه بتيس مرذول.. وأخذ الجميع يسخرون مما تفوه به من كلام إلا أن الضابط ستاين تدخل ليقول: من الأفضل أن نتحقق مما يقوله. وتوقفت السيارة وقام الجميع بعقد مؤتمر أو اجتماع طارئ خاص للاتفاق على عقاب ملائم واستطاع شمشا أن يدرك أن مراجعتهم لمركز الكومبيوتر التابع للشرطة أوضحت لهم أنه بالفعل بريطاني من الدرجة الأولى ولكن ذلك لم يؤد إلى تحسين موقفهم معه بل على العكس تماماً حيث أحس بأنه أصبح عرضة إلى أشد مما كان معرضاً له من قبل.. فقد سمع أحجهم يقول: إننا نستطيع أن ندعي بأننا قبضنا عليه في حالة غيبوبة على الشاطئ.. وقال آخر هذا لا ينفع بسبب وجود تلك المرأة العجوز وذلك الرجل الغريب الأطوار.. وعلينا أن نفكر بصورة أدق.. لنقل أنه لفظ أنفاسه في سيارة لندافع عن أنفسنا.. ومن ثم خرج الأمر من أيدينا. وتدخل شخص ثالث ليقول: على رسلكم نتركه، علينا أن نلفق الحكاية فيما بعد ولكن أولاً ما ينبغي علينا فعله هو أن نجعله يغيب عن الوعي.

استعاد شمشا وعيه في سرير أحد المستشفيات، وكانت رئتاه تفرزان سائلاً لزجاً أخضر اللون وأصابته نوبة طويلة من السعال.. ونام على أثرها .. وعندما صحا مرة أخرى لقى فوق راسه وجهاً لامرأة تبتسم بثقة وتقول له وهي تربت على كتفه: ستكون على ما يرام، كل ما أنت مصاب به هو التهاب رئوي بسيط. ثم قدمت له نفسها على أنها (هيا سميث فيلبس) اختصاصية بالعلاج الفيزيائي.. ولم تلبث أن قامت بتعديل وضعه فقلبته على جنبه وثبتت وعاء من الورق المقوى بالسائل اللزج من فمه وقفزت إلى السرير وامتطت شمشا كمن يركب حصاناً وأوضحت له ما تقوم به بالقول: إنها أوامر الطبيب.. وسوف تتلقى جلستين من هذا النوع يومياً مدة كل منها ثلاثون دقيقة. ثم شرعت تضرب وتلكم صدره وبطنه بقبضتي يديها المطبقتين اللتين كانتا تبدوان خبيرتين. وقاومها شمشا وهو يصيح: أخرجوني من هنا .. هل أخبرتم زوجتي بما حل بي..؟ لكنه أخيراً خضع مهزوماً.. وعندما انتهت جلستها كان لا بد له من أن يخبرها مغلوباً على أمره بأنه يشعر بتحسن كبير فأجابته: ستستعيد عافيتك وتغادر سريرك خلال فترة وجيزة. وأضافت بشيء من الاضطراب أرجو معذرتك. وغادرت المكان بعد أن أسدلت الستائر المحيطة بسريره لتعيدها إلى ما كانت عليه، أدرك شمشا بتفحص سريع لوضعه الجسماني أن تحوله الأخير لم يطرأ عليه أي تبديل وهذا ما جعل معنوياته تحبط.. وما لبث بعد قليل أن سمع صوت ما من مكان غير بعيد عنه، يصرخ بألم ممض: آه لم يعاني إنسان على الإطلاق مما

أعانيه.. وبعد قليل وصلت إلى مسامعه أصوات كثيرة تتذمر وتشكو بطريقة مشابهة، وخيل إليه أنه يسمع أصوات حيوانات من كل الأنواع.. ثيران وقرود وببغاوات، وقد انتابه حاسة الشم لديه بأن تلك الصيحة قد تبدأ برائحة كريهة تزكم الأنف..

حاول أن يقف إلا أنه سقط على الأرض وذلك لأنه لم يتعود على ساقيه الجديدتين. وأخيراً وبعد عناء استطاع أن يسير بضع خطوات إلى أن يصل إلى أقرب ستائر إليه حيث فوجئ بالضابط ستاين تلتمع على وجهه ابتسامة ماكرة ويقول: أنت على ما يرام أليس كذلك؟ فاندفع شمشا يمطره بوابل من الأسئلة: متى أستطيع أن أرى الطبيب؟ متى أستطيع أن أذهب إلى المغسلة؟ متى أستطيع أن أغادر هذا المكان؟ أجابه ستاين برصانة: الطبيب سيحضر قريباً والممرضة فيلبس ستخدمك وستغادر المكان بمجرد أن تشفى قريباً. كل الذي حدث أنك غبت عن الوعي والأشخاص التسعة بمن فيهم أنا يذكرون ذلك جيداً وهذا من حسن الحظ.. أما تلك العجوز السيدة داموندا فقد عثروا عليها ميتة في سريرها. واختفى ذلك الشخص المتطفل الآخر في مكان مجهول! احتمالات أن يكون هناك لعبة قذرة لم تستبعد حتى الآن.. وفي المحصلة أنصحك أيها المواطن صلاح الدين بألا تتعب نفسك بتقديم أية شكوى، فالحقيقة أنك بهذين القرنين البارزتين وهذين الظلفين الضخمين لن تصلح لأن يؤخذ بكلامك أو يعتمد عليك.. أما الآن فطاب نهارك. قال ستاين ذلك وخرج إلى الأبد من حياة صلاح الدين الجديدة. صحا صلاح الدين في تلك الليلة على همسات تقول أنت

يا إبليس استيقظ. وكان يقف أمامه مخلوق بجسم إنسان ورأس نمر مفترس وفي فمه ثلاثة صفوف من الأنياب وشرح له هذا الكائن الموقف بوضوح: أنت كما ترى لست لوحدك.. ولقد أغفى حراس الليل وبهذا تمكنا من الوصول إليك.. وفي تلك اللحظة ارتفع صوت ذلك الرجل المتألم منتحباً: آه.. لو أن أحداً عانى ما أعانيه. فزمجر الرجل النمر أو (المانتيفور) كما كان يحلو له أن يسمي نفسه وتابع يقول باستهجان، يا لهذا المنتحب.. كل ما فعلوه له أنهم جعلوه أعمى!.. صاح شمشا مضطرباً: من فعل.. ماذا؟ ولقد أصيب صلاح الدين بالذهول لأن الكائن الآخر أوحى له بأن حالات المسخ هذه هي مسؤولية كائن ما فقال له: إنني لا أرى من أستطيع أن أوجه إليه اللوم بهذا الخصوص. طحن المانتيفور بأسنانه بخيبة أمل وقال: هناك امرأة في الناحية الثانية وقد تحولت إلى ما يشبه ثور الماء.. وهناك رجال أعمال من نيجيريا برزت لهم أذناب طويلة.. كما أن هناك مجموعة من السياح من السنغال.. كانوا بانتظار الانتقال من طائرة إلى أخرى.. فتحولوا إلى أفاع رقطاء. وأنا بالذات كنت أعمل - موديلاً - وعارضاً للأزياء من الطراز الأول وبأجر مرتفع أنظر إلي الآن من سيقبل بأن أشتغل عنده؟ وما لبث المانتيفور أن انفجر باكياً بدموع غزيرة.. فرد عليه شمشا بصورة عفوية: على رسلك كل شيء سيكون على ما يرام وستعود الأمور إلى نصابها أنا واثق من ذلك.. تشجع يا هذا. تمالك ذلك المخلوق نفسه وقال بحدة: لابد لنا من الهرب من هنا قبل أن نتعرض إلى ما هو أسوأ مما نحن فيه.. فأنا أحس بتغير جديد يطرأ علي في

كل ليلة.. ومثلاً لاحظت أنني في المدة الأخيرة أصبحت أضرط باستمرار ودائماً أرجو المعذرة على هذه العبارة.. ولكن أرجو أن تفهم ما أعنيه..

حاول شمشا أن يفهم ولو جانباً من الحقيقة فاستفسر مستوضحاً: ولكن كيف يفعلون ذلك؟ أجابه المانتيفور برصانة وبهمس: إنهم يذكرون المواصفات.. وهذا كل ما في الأمر..

إنه المقدرة على الوصف الدقيق. فناقشه شمسا بالقول: من الصعب تصديق ذلك.. لقد عشت هنا سنوات طوالاً قبل أن يحدث لي هذا. تيبست الكلمات في حلقه عندما رأى المانتيفور يرمقه بنظرات تدل على عدم الثقة ويسأله: سنوات طوالاً؟ كيف ذلك؟ لعلك مخبر.. نعم لعلك جاسوس؟، انطلقت في تلك اللحظة صرخات حادة منتحبة من إحدى زوايا القاعة وكان هناك امرأة تولول وتصيح: دعوني وشأني.. أريد أن أخرج، ينبغي أن أذهب إلى الله.. يا عيسى.. يا إلهي. وبعد قليل أطل من بين الستائر رأس ذئب ووجه عبارات توحي بالتعجل إلى المانتيفور الذي همس بدوره قائلاً: سيأتي الحراس بعد هنيهة.. إنها السبب مرة ثانية.. بيرتا الزجاجية. استفسر صلاح الدين على الفور: الزجاجية؟! رد عليه المانتيفور بنفاذ صبر: لقد تحولت بشرتها إلى زجاج.. وقد حطم لها الأوغاد ذلك الزجاج بشكل لم تعد معه قادرة حتى على المضي إلى المرحاض. أوضح له المانتيفور ذلك دون أن يعرف أنه يصرح له بما يفسر ويحقق بالنسبة لشمشا أسوأ الأحلام التي رآها في حياته.. سحب الذئب المانتيفور بعيداً وهو يقول له: هل هو معنا أم لا؟ فهز

المانتيفور رأسه بغير اكتراث وقال: إنه غير قادر على اتخاذ قرار نهائي بهذا الشأن وهو لا يصدق ما يراه بعينيه تلك هي المشكلة. وما لبثا أن وليا هاربين وهما يسمعان وقع أقدام الحرس بأحذيتهم الثقيلة.

لم يظهر الطبيب في اليوم التالي.. ولا حتى باميلا زوجته.. وراح شمشا ينام ويصحو بذهول وحيرة تامين. وكانت هيا سميث تأتي في أوقات محددة لتمتطيه وتوجه إليه اللكمات وعندما انتهت مهمتها في إحدى المرات همست في أذنيه: (أنت مع البقية؟) وفهم أنها تتشارك في المؤامرة الكبيرة فأجابها: إذا كنت أنت معهم تستطعين أن تعتبريني في عدادكم..

حتى ذلك الحين لم تظهر زوجته باميلا.. وفي تلك الليلة أبلغ شمشا كلاً من المانتيفور والذئب بأنه معهم.. حتى النهاية. تم تنفيذ الهروب الكبير بعد بضع ليالٍ عندما أنجزت هيا سميث إفراغ رئتي شمشا من ذلك السائل اللزج. وتبين أن تلك العملية كانت منتظمة بشكل جيد وعلى نطاق واسع. وكان هناك كثير من الهياكل التي انطلقت عبر ذلك الليل المتوهج. وقد لمح شمشا كائنات لم يكن يتخيل لها وجوداً من قبل: رجال ونساء أنصاف نباتات.. وحشرات عملاقة وأناس نبت أجزاء منهم من الحجارة أو الآجر.. وأخيراً أصبحوا في الخارج ينطلقون بلا أمل ولكن دون إحساس بالخزي. وكان هو وهيا سميث يركضان جنباً إلى جنب.. وكان ظلفاه يصطكان بأرض الرصيف الصلبة. قالت له: هلم بنا باتجاه

الشرق وسارعا باتجاه الشرق على الطرقات الأقصر مدى المؤدية إلى لندن.

أصبح (جيمي جوشي) عشيق باميلا شمشا منذ الليلة التي بلغها فيها نبأ موت زوجها في حادثة طائرة البستان. ولذلك فإن سماع جيمي لصوت زميله القديم في الجامعة صلاح الدين على الهاتف في منتصف الليل وهو يردد من خارج قبره تلك الكلمات الخمس المألوفة: آسف، أرجو المعذرة الرقم خطأ. بعد أقل من ساعتين من اللحظة التي مارس فيها كل من جيمي وباميلا عمل الحب بالاستعانة بزجاجتين من الويسكي.. هذه المفارقة وضعت جيمي في عنق الزجاجة، ولقد سألت باميلا بعد أن تململت في سريرها نصف نائمة والقناع الأسود على عينيها: من كان ذلك؟

فرد عليها جيمي بطريقة حازمة مجرد فضولي.. لا تقلقي!

كان جيمي رجلاً ضئيل الحجم، يبتسم بعصبية.. وفي تلك اللحظة بالذات استلقى إلى جوار باميلا في السرير عارياً.. وراح يمتص إبهام يده كعادته دائماً عندما يكون متوتراً. وحدّث نفسه قائلاً: ليسامحني الله إنها زوجته رغم كل شيء. ولقد اكتشف في نفسه كراهية عميقة نحو شمشا.. وكان يرفض رفضاً قاطعاً فكرة عودته من الموت.. وكان جيمي جوشي قد اندفع إلى منزل باميلا في اللحظة التي بلغه فيها النبأ وفوجئ بها هادئة جافة العينين.. ورافقته إلى غرفة مطالعة زوجها.. التي كانت تسودها الفوضى وقالت له: كنت أعتقد أن موته سيترك فراغاً في حياتي. وأحس جيمي في تلك اللحظة بأنه كان على وشك البكاء.. وأحاطته علماً

بأنها كانت تشرب الويسكي منذ ساعات دونما توقف.. جلس إلى جوارها على الأريكة (السرير) ووطد عزمه على القيام بالخطوة الأولى.. فقالت له: لك كل ما تريد.. وبعد أن ضاجعها أحس بالدموع توشك أن تنفر من عينيه فقرر أن يغادر السرير ويتمشى في أرجاء المنزل وقصد إلى الطابق الثاني الذي كان صلاح الدين يصر على تسميته بالعرين.. جلس على حافة كرسي صديقه بالزاوية ذاتها التي كان مرة قد جلس فيها قبالة فتاة نحيلة ترتدي ثوباً قصيراً ولفاحاً أحمر سن الريش. في ذلك الحين لم يكن يمتلك الشجاعة ليبادر تلك الفتاة بالتحية.

لكنه في النهاية التفت إليها وتمتم بكلمات لا معنى لها فوجهت إليه نظرة ازدراء حادة وقالت له: ليس بيني وبينك أي حديث أيها الرجل.. فأصيب لحظتها بالانهيار وقال للفتاة دونما تفكير: هل لي أن أعرف لماذا تتسم جميع الفتيات في هذه المدينة بالفظاظة؟ أجابته دون تريث أو تفكير لأن معظم الشبان فيها مثلك.. وفكر وهو يستعيد مرارة تلك الذكرى أنه لن يخجل بعد ذلك أبداً.. لكنه قال في نفسه: يجب أن تواجه الحقيقة يا جيمي أنك لا تستهوي الفتيات. وأضاف محدثاً نفسه: ربما كنت ميتاً.. وربما لم أكن كذلك!!.

كانت الغرفة التي يجلس فيها تمتلئ بصور فوتوغرافية تحمل تواقيع أصحابها بالإضافة إلى ملصقات ومجلدات الصور التذكارية وصور لنجوم السينما.. كان هناك شيء طريف في كل مكان تقع عليه العين، منافض رماد على هيئة بيانو.. مهرج عيني بطل خلسة

من خلف أحد رفوف الكتب.. ومشاهد من الأفلام السينمائية.. مصباح محمول على تمثال برونزي لبروس.. مرآة على شكل قلب.. سجادة حمراء بلون الدم.. كل ما في تلك الغرفة كان يوحي بشيء واحد.. حاجة صلاح الدين إلى الحب، رغم أنه لم يكن فاشلاً مع النساء.. وحتى باميلا بكل جمالها وإشراقها لم تكن لتشبع فيه ذلك الجوع المزمن.. وكان من الواضح بالتالي أنه أصبح أبعد ما يكون عن أن يكون كافياً بالنسبة لها!! عندما أوشكت زجاجة الويسكي الثانية على النفاذ كانت باميلا تسند رأسها على كتفه تقول له: إنك لا تستطيع أن تتخيل الراحة التي يشعرني بها وجودي مع شخص مثلك لا أجد نفسي مضطرة للشجار معه بعد كل مرة أعبر فيها عن رأيي.. أما هو فلا يستطيع أحد أن يفهمه. قال لها جيمي: صلاح الدين كان بالفعل صلاح الدين.. اسماً على مسمى.. لأنه في الواقع صاحب أرض مقدسة يسعى الوصول إليها.. وتلك الأرض بالنسبة له هي إنكلترا وكنت أنت في نظره جزءاً من تلك الأرض. قالت له: بل لقد كنت أنا في نظره بريطانيا اللعينة كلها. مدت يدها إليه وجذبته نحوها حيث كان فمها بانتظاره.. ثم قالت: هل تفهم ما أعنيه؟ ... نعم .. لقد فهم!! فما بعد راحت تعبث بشعرها.. ثم انحنت فوق آلة التسجيل الضخمة وضغطت على أحد أزرارها.. وانطلق صوت الشريط.. فوجد جيمي نفسه يبكي بانفعال وعاطفة وهو يستمع إلى ذلك الإيقاع الموسيقي المعبر عن الألم.. لقد كان ذلك الإيقاع المزمور السابع والثلاثين بعد المئة (ترنيمة المصاعد) ومن سفر المزامير في التوراة.. حيث الملك داوود

يصبح عبر قرون من الزمن كيف يمكن أن ترنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟ على أنها بابل هناك جاسبا.. آه.. آه.. بيكنا وبكينا أيضاً إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني.. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك.. إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي.. وما لبثت باميلا غطت في النوم بعد أن رددت الأسطر الأخيرة من الترنيمة.. وبينما كانت تحلم اندفع جيمي المؤرق المسهد وراح يهزها بعنف حتى تستيقظ فصاح بها: لا جدوى من الكتمان ولابد لي من أن أخبرك.. إنه ليس ميتاً، صلاح الدين إنه حيٍ يرزق.

تنبهت تماماً.. وما لبثت أن جاءت إليه واندفعت دون سابق إنذار تضربه وتلكزه في صدره وذراعيه وكتفيه.. في حين أنه أرخى جسمه تماماً.. حتى استنفذت كامل طاقتها وأصبح جسمها ينضح بالعرق.. فجلست إلى جواره وهي تلهث. وبعد قليل سألها بهدوء: ما الذي فعلته؟ أجابته: آه يا إلهي أنا آسفة. رد عليها: ذلك شبيه بما فعلته أنا في صيف 67 في مظاهرة ضد الحرب، وكان هارولد ولسون قادماً إلى البلدة تعبيراً عن دعم حكومة العمال للتورط الأمريكي في فيتنام وقد نظمت حملة احتجاج جماهيرية ضده وتوجه شمشا إلى هناك وكان في الحادية والعشرين من عمره.. وكان المطر غزيراً جداً.. وقد سرنا أو بالأحرى انجرفنا في تيار الجماهير حتى بلغنا مجلس المدينة. وعندما وصلت سيارة ولسون حدثت حالة هياج وافترقت أنا عن شمشا لأتسلق سيارة الليموزين وأبتدأ القفز عليها بعنف وأنا أهتف سوف نقاتل سوف ننتصر.. يعيش هوشي منه.. وانبرى صلاح الدين يصرخ طالباً مني أن

أتوقف عن ذلك لأن عناصر الأمن كانوا قد تسللوا إلى ما بين الناس وكان هو مصاباً بالجراح الشديدة من جراء ذلك. وكان ويلسون يتقوقع في المقعد الخلفي من السيارة وأنا أهتف هو.. هو.. هو.. هوشي منه وفي اللحظة الأخيرة المناسبة تنفست بعمق وألقيت بنفسي في خضم الجماهير واختفيت دون أن يتمكنوا من القبض علي.. ولقد خاصمني صلاح الدين بعد تلك الحادثة ولم يكلمني طوال أسبوع أو يزيد.

وعندما كلمني بعد ذلك كان كل ما قاله لي: لعلك انتبهت إلى رجال الأمن.. كانوا على وشك أن يمزقوك إرباً برصاص بندقياتهم.. ولكنهم لم يفعلوا ذلك.. لا أدري لماذا! كان جيمي يجلس إلى جوار باميلا على حافة الأريكة وقال لها ما أريد أن أعبر عنه هو أنني أعرف ما يحس به الإنسان عندما يمارس العنف والضرب.. إن ذلك أمر مستهجن.. ولكنه ضروري للإنسان في بعض الأحيان. أجابته: آه يا إلهي أنا آسفة.. ولكن ذلك خفف عني كثيراً بالفعل.

في صباح اليوم التالي استغرق الاتصال بمكتب الخطوط الجوية نحو ساعة بسبب كثرة المكالمات التي تستفسر عن الكارثة.. وقالت المرأة من الطرف الآخر لباميلا: أنا آسفة أيتها السيدة ولكن الطائرة تحطمت في الجو على ارتفاع ثلاثين ألف قدم.. ولم ينج أحد .. وانبرت باميلا تشتم جوشي بغضب قائلة: أيها التافه الأبله!! هل قلت إنه ما يزال حياً. فتح فمه محاولاً أن يجيب لكنها لم تترك له فرصة ليقول أي شيء بل صاحت به، أغرب عن وجهي قبل أن

ارتكب حماقة ما .. إنني لا أستطيع أن أصدق أنني اقتنعت بترهاتك بخصوص ذلك الصوت الذي سمعته على الهاتف.. وكان لابد أن أفهم الأمر كما ينبغي.

وفي اللحظة التي غادر جيمي فيها ذلك المنزل كانت باميلا تحدث نفسها قائلة: نحن نعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل.. ولسوف يسبب كل منا للآخر شقاء وتعاسة لا حد لها ربما على مدى عقدين من الزمن!!

في تلك الأثناء كانت تفكر بوضوح الخطأ في تحديد الأصوات.. قالت في نفسها: في هذا الموضوع بالذات، كان ينبغي أن أكون أكثر ترفقاً.. كان اسمها الحقيقي قبل زواجها من شمشا (باميلا لفلس).. كانت هي بالذات تملك صوتاً اضطرها طوال حياتها لتدفع فدية كبيرة كضريبة على امتلاكها لمثله.. صوت هو باختصار تجسيد للأرستقراطية البريطانية المغناج، وفي الوقت نفسه انعكاس للبيئة البريطانية بكل ما فيها من مباذل ومزايا .. وكان ذلك الصوت هو سبب مأساتها في سنوات صباها الأولى.. إذ أنها كانت بسببه باستمرار هدفاً لمطاردة السادة الأثرياء.. والباحثين عن المتعة العابرة والنوعيات الأخرى من رجال الأعمال.. أما (الخضر) ومنظموا مسيرات السلام وأولئك الذين يسعون لتغيير العالم.. الذين كانت تتعاطف معهم فقد كانوا يعاملونها بالشك والارتياب ويتجنبونها أو حتى ينبذونها .. إذ كيف يمكن لأي إنسان أن يكون في مصاف الملائكة في حين يبدو على جانب كبير من عدم النقاء

بمجرد أن يحرك شفتيه بالكلام..؟ صرت باميلا أسنانها وهي تزيد من سرعتها في قيادة السيارة.

أحد الأسباب المنطقية لفشل زواجها قبل أن يضع القدر حداً لذلك الزواج ويرسم نهايته، كان أنها تحققت من أن شمشا لم يكن يحبها على الإطلاق وكل ما هنالك أنه كان يستهويه صوتها.. ذلك الصوت الذي كانت تفوح منه رائحة فطائر اليوركشاير.. الصوت القلبي اللون الضارب إلى الحمرة.. النابع من إنكلترا حلم حياته الأبدي.. إنكلترا التي كان يرغب ويسعى بشكل محموم إلى سكناها. كان زواجاً قائماً على النفع المتبادل.. وكان كل مهما يندفع بكل جوارحه باتجاه الشيء الذي كان الآخر يسعى للهرب منه!!

كانت هنالك كثير من المشكلات في حياتها عليها أن تعالجها.. وقد شرعت الآن بالقيام بذلك بقيادة السيارة بأقصى سرعة.. بالهرب من تلك المشكلات.. ولعل قضاء بعض الوقت في أحد الأماكن الريفية العالية يحول مجرى حياتها.. التداوي بالترف والبذخ.. مئة ميل في الساعة.. وابتدأ الجو يصبح رديئاً بصورة مفاجئة.. غيوم.. برق.. مطر غزير.. وظلت تزيد من سرعتها.

والدها الذي ورثت عنه ذلك الصوت.. تلك التركة تلك اللعنة.. والدتها التي كانت تتحرق شوقاً للقياه طوال غيابه في فترة الحرب.. حتى وهو في حالة إفلاس وعندما وقع في الدين نتيجة لمقامرته بما يملك هو وزوجته والدتها، إذ أنها لحقت به إلى أعلى ذلك البناء ليكتشفا معاً طريقهما إلى النهاية بالانتحار.. ولم تغفر لهما باميلا على الإطلاق لأنهما لم يتركا لها حتى الفرصة لإبلاغهما بعد

غفرانها. وقد نبذت بعد موتهما كل ما تبقى منهما في تكوينها.. فلم تتابع تحصيلها الجامعي.. وبما أنها لم تستطع أن تتخلص من صوتها فقد قررت استخدامه في أحاديث لو سمعها والداها المحافظان لحرماها من الميراث.. ثم تزوجت من رجل هندي.. وعندما اتضح أنه يشبه والديها إلى حد كبير من حيث طريقة تفكيره الأرستقراطية.. فقد فكرت بالتخلي عنه.. ولكن هل تمكنت من تنفيذ هذه الفكرة؟.. لقد تمكن الموت مرة أخرى من الاحتيال عليها وخداعها.

في تلك اللحظة كانت تحاول تجاوز شاحنة تقطر خزاناً للأغذية المثلجة وقد أفقدها الرؤية الرذاذ المتناثر من عجلات تلك الشاحنة.. فغاصت في لجة من الماء بعد أن انحرفت عن الطريق وانزلقت السيارة وهي تدور حول نفسها وهي تلمح الأضواء الأمامية للشاحنة تتوجه نحوها وكأنها عينا ملاك الموت عزرائيل.. ولم تلبث سيارتها أن ترنحت وتدحرجت خارج مسار ذلك الخطر الماحق حتى استقرت بصدمة عند حافة جدار صلب بعد أن التفت حول نفسها مرة أخرى مئة وثمانون درجة. بتوقيت اعتباطي.. لتتوجه إلى الحياة.. في تلك اللحظة بالذات التي كانت فيها الشمس تكسر حدة العاصفة.

في تلك الليلة جلست باميلا شمشا في أروع أثوابها في قاعة فخمة في أحد المطاعم الفاخرة.. وتناولت طبقاً من لحم الطرائد واحتست زجاجة من نبيذ ممتاز على طاولة منقلة بأدوات من الفضة وكؤوس من الكريستال وهي تحتفل ببداية جديدة.. بولادة

جديدة.. وتوجهت بعد قليل إلى غرفة نوم أشبه بغرف النوم الخاصة بالأميرات.. حيث شربت نخب نفسها التي كونتها كما تشاء من براندي نابليون.. وراحت تحدث نفسها: وداعاً يا صلاح الدين. أنت لم تهتم بي في حياتك.. استرخ الآن بسلام. وعندما حلمت.. كان وجهه يملأ أحلامها.. وقال لها: إن الأشياء توشك على النهاية.. وهذه الحضارة هنالك قوة ستجهز عليها، لقد كانت حضارة مترفة وتافهة.. همجية ومسيحية.. كانت مجد العالم وينبغي أن نحتفل بذكراها الآن قبل أن يحل الظلام. لم تتفق معه حتى في الحلم.. ولكنها كانت تعلم وهي تحلم أن ما من جدوى في أن تقول له ذلك. وتوجه جيمي جوشي بعد أن طردته باميلا إلى مقهى شاندار لصاحبه سفيان في شارع.. وجلس هناك يرتشف فنجاناً من القهوة تحت لوحة تمثل امرأة أسطورية عارية الصدر ذات رؤوس متعددة تغطي حلمتي نهديها غيوم صغيرة متناثرة ولاحظ السيد سفيان صاحب المقهى أن جيمي كان غارقاً في الكآبة فتهادى نحوه بطاقيته البيضاء الصغيرة التي تؤكد تدينه الشديد وقد خضب لحيته بالحناء بعد أن حج إلى مكة مؤخراً وكان محمد سفيان هذا رجلاً ضخماً قوي الذراعين وذا كرش ويبدو عليه الورع.. وعندما اقترب سأله جيمي: هل تظن أنني أبله حقاً أم تُرى ما رأيك؟. رد عليه سفيان بسؤال: أليس لديك بعض المال؟ أجابه جيمي: ليست مشكلتي من هذا النوع. قال سفيان: ألا تقوم بأي عمل؟ الاستيراد مثلاً أو التصدير؟ أو الدراسات أو إدارة محل تجاري؟ أجابه جيمي في حياتي لم أكن أفهم في الحسابات.

- وأين يقيم أفراد أسرتك؟
- ليس لي أسرة!!
- إذن ما عليك إلا أن تصلي لله حتى يؤنس وحدتك!!
- إنك تعلم أيها العم أنني لا أصلي!!
- لاشك أبداً في أنك أشد حماقة مما تتصور..

رد عليه جيمي وهو يرتشف آخر قطرات القهوة من فنجانه:

- شكراً جزيلاً أيها العم فقد قدمت لي مساعدة عظيمة للغاية!!

بعد قليل دخل إلى المقهى حنيف جونسون المحامي البارع والناجح الآسيوي الأصل، وقال له سفيان: هذا الرجل يحيرني إنه في الأربعين من العمر وغير متزوج ويتقاضى دريهمات من تدريس الفنون العسكرية في المركز الرياضي.. ويعيش على الهواء وليس في قلبه أثر للإيمان. هل تستطيع تفسير هذا اللغز؟.. ولكز حنيف جونسون محمد في كتفه وقال: لعله يسمع أصواتاً يوحى بها إليه: صاح سفيان ساخراً.. أصوات آه.. ومن أين تأتي تلك الأصوات؟.. من الهاتف أم من السماء.. أم من جهاز التقاط مخبأ تحت معطفه؟

رد عليه حنيف برصانة: بل أصوات من داخله.. وهناك على طاولته في الطابق الأعلى بعض الأشعار بعنوان - نهر الدم - إن معنا يا صديقي سفيان شاعراً كبيراً.. عامله باحترام.. إنه يقول إن الطريق نهر.. ونحن في تيار ماء.. والإنسانية نهر من الدماء!! هبً

جيمـي واقفـاً بغضـب وصـاح بحنيـف: لسـوف أقتلـك علـى هـذه السـرقة.

وطوال ثلاثة أيام لاحقة بقـي جيمـي منـهاراً رغـم جهـود سـفيان وزوجته وابنتيهما (ميشال) و (أناهيتا) والمحامي حنيف جونسـون.. وقد علق سفيان علـى المسـألة بـالقول: يبـدو أنـه أصـبح أبكمـاً. وفي أمسية اليوم الرابع رن جرس الهاتف في مقهى شاندار، وردت عليه أناهيتا سفيان التي ما لبثت أن نادت بصوت مرتفـع: السـيد جيمـي جوشـي لـه مكالمـة شخصية!! وبنظـرة واحـدة تمكـن سـفيان مـن أن يلاحظ مدى السعادة على وجه جيمـي.. وتمـتم هامسـاً لزوجتـه أن الأصـوات الـتي يجـب علـى هـذا الشـاب سماعهـا ليسـت أصـوات داخلية بحال من الأحوال.

حـدث مـا لم يكـن متوقعـاً ولا متصـوراً بـين بـاميلا وجيشـيد (جيمـي) حيـث قضـيا سـبعة أيـام بلياليهـا وهمـا يتبـادلان الحـب بحماسـة لا تفـتر وبحنـان لا حـدود لـه وكأنهمـا همـا اللـذان ابتـدعا الحـب. ولقـد ظـلا عـاريين تمامـاً سـبعة أيـام كاملـة وأنبـأ جيشـيد باميلا بأنه لم يشعر في حياته بمثـل هـذه المتعـة إلا يـوم تعلـم ركـوب الدراجـة أول مـرة عنـدما كـان في الثامنـة عشـر مـن عمـره!! وفي اللحظة التي تفوه فيها بتلك الكلمات خشـي أن يكـون قـد أفسـد كـل شيء وأن توحي تلك المقارنة بإهانة ضـمنية لبـاميلا فمـا كـان منـها إلا أن قبلته وشكرته على أنـه تفـوه بأجمـل مـا يمكـن أن يكـون رجـل قد خاطب به امرأة على الإطلاق.. وفي الليلة السـابعة اسـتفيقا من نـوم خـالٍ مـن الأحـلام علـى صـوت لا يحتمـل التأويـل.. يحـاول أن

يتسلل إلى البيت.. همست باميلا في أذن جيمي مذعورة: إن لدي عصا هوكي تحت السرير. رد عليها جيمي وهو خائف بالدرجة نفسها ناوليني إياها. قالت له باميلا: سآتي معك. رد عليها: آه لا تفعلي ذلك.. ومع ذلك فقد هبطا السلالم معاً وعندما وصلا إلى الطابق الأرضي أضيئت الأنوار فجأة فصرخ كل من جيمي وباميلا معاً في آن واحد وسقطت عصا الهوكي منهما واندفعا يركضان باتجاه الطابق العلوي بأسرع ما أمكنهما الركض، وكان يقف في الردهة الأمامية من المنزل شبح أشبه بالكابوس.. كان يقف تحت الأضواء الساطعة قرب المدخل الذي هشم زجاجه ليتمكن من إدارة القفل وبالتالي من فتح الباب.. كان يقف مجللاً بالوحل والثلج والدم.. مخلوق كث الشعر بحوافر تيس عملاق ورأس يعلوه قرنان مغطى بالقذارة والروث وتباشير لحية طالت خصلاتها. كان يقف هناك وحيداً لا يراه أحد وقد ترنح ذلك الكائن الخرافي خطوة أو خطوتين باتجاه الأمام. وما لبث أن سقط على الأرض حيث استلقى ساكناً بلا حراك!! أما في الطابق العلوي من المنزل.. في عرين صلاح الدين فقد كانت السيدة باميلا شمشا تتلوى بين ذراعي عشيقها وهي تبكي من أعماق أعماقها وتنشج بأعلى صوتها: لا.. لا.. مستحيل. لقد انفجرت تلك الطائرة وانفجر زوجي معها.. لم ينجُ منها أحد هل تسمعني.. إنني أرملة شمشا التي مات زوجها أشنع ميتة.

أصيب السيد جبريل فاريشتا الذي كان مسافراً في القطار إلى مدينة لندن بنوبة خوف من أن الله لابد وأن يفقده عقله انتقاماً

منه، لكونه تخلى عن الإيمان به وكان خوفه ذلك مشوشاً متناقضاً، حيث أنه كان يخشى من أن تطغى عليه تلك القوة التي لم يعد يؤمن بوجودها .. أو أن يتحول من خلال جنونه إلى تجسيد كبير الملائكة.. ذلك الوهم الذي يملأ عليه كل جوارحه، راح يرتعش بصمت إلا أنه طمأن نفسه بأن المقطورة التي كان يجلس فيها .. تلك الشبابيك الواقية لابد وأن تحميه بشكل أو بآخر.. وكان يجلس في تلك المقطورة في مقعد إلى جوار النافذة بحيث يدير ظهره لاتجاه القطار.. ذلك أنه لسوء حظه كان هناك شخص آخر سبقه إلى المقعد الآخر المتجه إلى الأمام، وكان القطار ينطلق بسرعة.. وأحس بإرهاصات تلك المدينة الكبرى التي كان يمضي إليها والتي كان لها تأثير السحر على نفسه.. وفي تلك اللحظة عادت موهبة الأمل القديمة وقابلية التجدد والتعامي عن متاعب الماضي واستنزاف المستقبل.. فقفز من مقعده ليلقي بنفسه على المقعد المقابل ميمماً وجهه شطر مدينة لندن بطريقة موحية معبرة.. لفظ اسم المرأة بصوت مسموع.. آليلويا .. رد عليه الشخص الآخر في المقطورة قائلاً: آليلويا أيها الأخ.. المجد لله يا سيدي أمين..

تابع ذلك الغريب يقول: يجب أن أوضح لك يا سيدي أنني ضد أي تعصب طائفي ولو أنك قلت: لا إله، لكنت أجبت بملء صوتي: إلا الله!!.

أيقن جبريل فاريشتا أن نطقه باسم آليلويا عن غير وعي منه.. تم تأويله من قبل رفيق رحلته بطريقة مغلوطة على أنه مقدمة لعرض انتمائه الاجتماعي والديني. وصاح به ذلك الرجل يعرِّفه

على نفسه: إنني باجون مسلمة.. أنا أنتمي إلى أحد الأديان الإنسانية. وكان واضحاً أن الكلمات مضغوطة في أعماق السيد مسلمة ذاك وأنه كان يوشك على الانفجار بتلك الكلمات وبما أنها ابتدأت تتدفق منه فلم يكن هنالك بد من السماح لذلك السيل من الانطلاق كما يحلو له.

كانت ملابسه تدل على الثراء.. وعرف جبريل أنه يمتلك متاجر للاسطوانات والأشرطة ومحلاً لبيع الأدوات الموسيقية وأنه هندي من غويانا، لكن كما قال: لم يبق شيء في تلك البلاد ولذلك فإن الناس ابتدأوا يغادرونها بسرعة تفوق الطائرات.. أما أنا فقد انتعشت أحوالي بحمد الله وأصبحت أتوجه إلى الكنيسة بانتظام صباح كل أحد.. وأعترف لك بشعوري بالضعف حيال مجموعة التراتيل الإنكليزية ولذلك فإنني أغني مع المرتلين بصوت مرتفع. واختتم سر وسيرة حياته بأن أتى بصورة عارضة على ذكر وجود زوجة ونحو دستة من الأطفال.. وقدم له جبريل تهانيه. وكان في أعماقه يتمنى لو أنه يسكت.. لكن مسلمة اختار تلك اللحظة ليفجر قنبلته بحبور: لست بحاجة لأن تحدثني عن نفسك فأنا أعرفك.. ومع أن وجود شخصية مثلك في هذا القطار أمر مستغرب.. فإنني أحترم خصوصيات الناس.. وأعتقد أنك على الأقل لا تشعر بالضيق من هويتك وانتمائك فأنت الرجل المشهور جبريل فاريشتا الأسطوري نجم الشاشة وقرصان أشرطة الفيديو.. وبما أنني أنزع إلى الإيمان بوحدة الوجود فإن تعاطفي الشخصي معك ينبع من إتقانك لتمثيل أدوار الآلهة في كل الأديان المعروفة.

فأنت يا سيدي عبارة عن قوس قزح وهيئة أمم متحدة تجمع كل الآلهة. أنت باختصار تجسد المستقبل. اسمح لي أن أتوجه لك بالتحية.. أصيب جبريل بما يشبه فقدان التوازن من شدة الذهول وبدأ يشعر بالرعب لأن رائحة جنون ما كانت تفوح من مسلمة، وراح يقيس المسافة التي تفصل بينه وبين باب المقطورة بنظرات قلقة.

واستمر مسلمة في الحديث قائلاً: إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه أياً كان اسم الإله فإن هذا الاسم يظل مجرد رمز.. فمثلاً إن اسمك المعروف هو جبريل فاريشتا.. ولكن اسمك كإله غير معروف.. فما هو اسمك الحقيقي؟؟ عندئذ أدرك جبريل أن الرجل مجنوناً وأن التخيلات تسيطر عليه.. وراح يلوم نفسه على كونه المسؤول عن تحريض ذلك الرجل على الهذيان من خلال كونه مضطرباً من جراء تلك المخاوف المتعلقة بحالته العقلية التي كانت تسيطر عليه، وحدَّث نفسه قائلاً: لقد تسببت لنفسي بالتعرض لهذا المجنون الثرثار الذي ربما كان خطراً والذي لا يعرف إلا الله من أي مكمن هاجمني! وفجأة زعق مسلمة وهو يهب واقفاً: إنك لا تعرف اسمك الحقيقي.. إنك مجرد ممثل دجال ومشعوذ.. إنك زائف تفوه عليك. هبَّ جبريل واقفاً فاختل توازنه ومال متثاقلاً في محاولة منه لتجنب ذراعي مسلمة الممدودتين حيث صدم أحدهما قبعة جبريل فسقطت على الأرض، عندئذ فغر مسلمة فاه ووقف مشدوها.. وبعد لحظات من ذلك جثا على ركبتيه وهو يتوسل إليه أن يسامحه ويغفر له ويقول: لم يكن لدي أدنى شك بأنك في يوم من الأيام

ستأتي وبأنني سأقابلك.. أرجو أن تغفر لي هياجي الساذج. وفي تلك الأثناء دلف القطار تحت أحد الأنفاق.. ولاحظ جبريل أنه وذاك الرجل محاطان بدائرة ذهبية من نور ينبعث من خلف رأسه. لمح على زجاج باب المقطورة انعكاساً لتلك الهالة التي كانت تحيط بشعر رأسه فاندفع مسلمة جاهداً في محاولة لفك ربط حذائه الذي خلعه ونزع بعده جرابه معرياً قدميه التي كان فيها ستة أصابع وقال ليس لدي أدنى شك في دلالة هذه الظاهرة أنني أختلف عن الآخرين.. وكنت طوال حياتي أعرف أنها تشير إلى كوني اصطفيت وخصصت لشيء ما!!

كان ذلك الرجل يعتبر نفسه الشخص الذي وقع عليه الاختيار ليصبح الوكيل المساعد له. تجاوز القطار النفق.. وكان جبريل قد توصل إلى قرار بشأن مسلمة، فراح يخاطبه بأسلوب مسرحي: انهض يا باجون مسلمة.. يا ذا القدم السداسية الأصابع. فأجفل مسلمة مذعوراً واقفاً وقد أطبق كفيه أحدهما على الآخر أمام رأسه وانحنى بإجلال وغمغم قائلاً: الذي أريد أن أعرفه يا سيدي هو ما الذي سيحدث.. إفناء.. أم خلاصي؟ وما الذي جعلك تعود الآن يا سيدي؟

قال جبريل بسرعة: إنها مسألة استطلاع وتقويم.. ولابد من الإطلاع على مجريات الأمور.. ولقد أصبح الجنس البشري خاضعاً للاختبار وسجلات هذا الجنس مليئة بالفساد.. لابد من القيام بإعادة النظر في الوقت المناسب.. أما الآن فإن ظهوري يجب أن يظل سراً من الأسرار لأسباب جوهرية.. وضع قبعته على رأسه

مبتهجاً بما قال بإنجازه وهز مسلمة رأسه بانفعال وقال: بوسعك يا سيدي أن تعتبرني موضع ثقتك وهرب جبريل من المقطورة تطارده أوهام ذلك الرجل المجنون وكان يسمع أثناء هربه تسبيحات مسلمة: أليلويا .. أليلويا ..

اختار لنفسه مقطورة في نهاية القطار.. وهناك جلس محدقاً نحو لندن بقلب راعش.. محاولاً أن يجد تفسيراً منطقياً لتلك الهالة التي لمحها حول رأسه.. لكنه فشل في ذلك.. وزاد في إحساسه بأسى أنه أبصر ريخا ميرثانت تعبر من جوار نافذته على ذلك البساط الطائر وكان الجو في الخارج أشبه بما يظهر على شاشات التلفزيون بعد نهاية الإرسال وكان ذلك نذيراً بعاصفة ثلجية. ولقد لوحت له ريخا بيدها .. إنه الجزاء والعقاب يتتبع خطواته على بساط طائر. أغمض عينيه موطناً العزم على ألا يرتجف!!

كانت أليلويا تخاطب طالبات إحدى المدارس الثانوية وهن يتأملنها بوجوه متعبدة وهي تقول: إنني أعرف الماهية الحقيقية للأشباح.. ففي أعالي جبال الهيملايا كثيراً ما يواجه المتسلقون أشباح أولئك الذين سبقوهم وفشلوا في المحاولة تصحبهم وتتعقب خطاهم وارتفعت أيدي الطالبات وهن يسألن: أية أشباح يا آنسة. هل يخطر لك أن توقعي بنا؟

وعرفت أليلويا ما يدور في خلد الفتيات لأنها سمعتهن يتهامسن أثناء دخولها إلى غرفة الصف: هل هذا هو لونها الحقيقي؟ كم تبدو شاحبة، إن ذلك أمر لا يصدق كيف صمد لونها الثلجي أمام كل هذا التعرض للشمس على ارتفاع ثمانية آلاف متر.. هل هذه

هي (آليلويا كون) عذراء الثلج وملكة الجليد وانساب إلى مخيلتها ذكرى جبريل فاريشتا وصوته يردد على مسامعها دون توقف: رغم ما يشيعونه عنك فأنت يا صغيرتي لست جبلاً من الجليد.. إنك سيدة تضجين بالعواطف وساخنة جداً. وكان ينفخ على أصابعه متظاهراً بأن أطرافها قد تحرقت ويقول: آه... أنا أشد سخونة من أن أتحمل.. أرجوك أن ترشي علي الماء البارد..

وعادت آليلويا لتكرر على مسامع الطالبات ما بدأت بالحديث عنه وقالت: في أثناء صعودي إلى قمة إيفرست اصطدمت بمنزلق جليدي.. وفوجئت برجل يتقوقع على نفسه ويترنم بلحن قديم وأدركت على الفور من طراز ألبسته أنه شبح موريس ويلسون ذاك اليوغي الذي قرر عام 1934 أن يتسلق إلى القمة وحيداً بعد أن صام ثلاثة أسابيع من أجل أن يحقق التوحد بين جسده وروحه اعتقاداً منه بأن ذلك الجبل أضعف من أن يفرق بينهما مرة ثانية وبحيث لا يملك إلا أن يستسلم وينهزم أمام قوته المطلقة تلك، وانطلق بعد ذلك في طائرة شراعية إلى أقصى ارتفاع أوصلته إليه.. حيث مضى بعد ذلك عامداً إلى تحطيمها ومن هناك مضى يتسلق الجبل إلى غير رجعة، ففي تلك الأثناء التي رافقها فيها طوال نهار كامل تصرفت آليلويا بشكل طبيعي لأنها كانت تحس أنها تعرفه معرفة وثيقة وخطر لها أن لقاءها به ربما كان تنبوءاً بالمستقبل لأن حلم حياتها تحقق في تلك الفترة ذلك الحلم المستحيل، حلم بلوغ القمة. ومن الممكن أن يكون موريس هو بالنسبة لها تجسيداً لملاك الموت وتابعت آليلويا مخاطبة الطالبات بالقول: أردت الحديث عن

الأشباح لأن معظم المتسلقين يحسون حيال مثل هذه المشاهدات بحرج شديد ويتناسونها تماماً لكن مثل هذه الحكايات تحدث بالفعل وعلي أن أعترف صراحة رغم حرصي الشديد على أن تظل قدماي راسختين على أرض صلبة.

وضحكت عند نطقها بهذه العبارة الأخيرة لأنها تذكرت أنها قبل صعودها إلى قمة إيفرست كانت قد ابتدأت تعاني من آلام مبرحة وأن طبيبتها الخاصة في بومباي أخبرتها بأنها تعاني من هبوط في قدميها وبالتعبير المتداول من حالة قدمين مفلطحتين.. وقد حذرتها طبيبتها بالقول: إذا وجهت عناية خاصة إلى قدميك فإنك ستكونين على ما يرام. وإذا كنت مهملة فستجدين نفسك عاجزة عن المشي عند بلوغك الأربعين من العمر.

وعندما سمع جبريل بأنها صعدت إلى قمة إيفرست وهي تثبت على قدميها قوسين صناعيين فقد صار يناديها بالكسيحة والعرجاء.. وكانت قد أخفت حقيقة ذلك الألم في قدميها عن زملائها من المتسلقين لأن سحر إيفرست كان طاغياً على كل ما عداه.. ولأن الطالبات أصررن على أن يسمعن حكاية صعودها إلى قمة إيفرست فقد راحت آليلويا تقول: كنا نشكل ثنائياً أنا و(شنيريا بمبا) وكان هناك ثنائي آخر يسبقنا.. كان الجو رائعاً والسماء صافية ولم يكن في نيتي أن أمضي صاعدة دونما أوكسجين.. ولكنني عندما رأيت (بمبا) عازماً على ذلك قررت أن أتصرف مثله. كان تصرفاً غبياً يدل على نقص الخبرة، كان تنفس بمبا منتظماً وكنت أتنفس معه بالانتظام نفسه ولكنني كنت أحس بقوة تحاول

انتـزاع قمـة رأسـي.. وكنـت أصـر بأسـناني بأقصـى مـا أسـتطيع.. وجررت نفسـي أخيراً لأستقر على قمة صخرة مغلفـة بالجليد . وفي تلك اللحظة أحسست أنني أستطيع أن أشاهد وجهه بمجرد أن أمد يدي وأرفع عنه الحجاب، وأذكر أنني كنت أشعر بأنني أسبح في تلك الفسحة الضئيلة التي تفصل بيني وبين السماء والأرض تتساقط حولي من كل جانب.. ولقد كان هناك ضوء عجيب.. كان الكون كله قد تحول ليصبح ضوءاً محضاً.. وكنـت أود لـو أمـزق ملابسـي عـن جسـدي حتـى أدع ذلـك الضـوء يتغلغـل عـبر بشـرتي إلى أعمـاق أعماقي، وكانت أقواس قـزح تتراقـص وتتمـاوج في وهـج الشـمس.. وكان هنـاك ملائكة بالفعل.. ولم يكن الآخـرون يمازحوننا عندما أخبرونا ذلك، لقد شاهدت الملائكة بأم عيني وكذلك فقد شاهدها شيريا بمبا .. وكانت حدقتا عينيها تبدوان ناصعتي البياض.. كان يمكن أن نموت هنـاك بعد أن أعمانا الثلج وسلبت عقولنا الجبال وبعد ذلك سمعت صوتاً كأنه طلقة بندقية.. وقد قطع ذلك الصوت علـى تـأملاتي وزعقـت مناديـة (بمبـا) وعنـدما سمعـني تحـرك وانطلقنا في طريق الهبوط.. وشققنا كلانا طريقنا إلى المكان المتفق للقاء حيث تكورنا نحن الأربعة في خيمة صغيرة على ارتفاع سبعة وعشـرين ألـف قـدم.. وظللت طوال الليـل أكـرر السـؤال: مـا هـي حقيقة ذلك الصوت؟ هل أطلق أحدكم النار من بندقيـة؟ فنظـروا إلي جميعاً كأنني مصابة بلوثة وأجابني إنك تعرفين أنه ليس هنـاك أية بنادق في هذا الجبل، وكانوا على حق.. ولكنني سمعت ذلـك الصوت.. صوت الطلقة وصداها، وهذا هو كل شيء. هذه هـي

نهاية قصة حياتي. أنهت كلامها بطريقة مباغتة ثم تناولت عكازاً ذا مقبض من الفضة وتأهبت للرحيل.. وتجمعت الطالبات حولها يسألنها بإصرار: بعد يا إلهي ماذا كان ذلك الصوت.. وفجأة كان مظهر آليلويا يوحي بأنها أكبر من سنها الحقيقي ألا وهو ثلاثة وثلاثون سنة بعشرة سنوات على الأقل.. هزت كتفيها بعدم اكتراث وأجابت ربما كان شبح موريس ويلسون. وما لبثت أن غادرت غرفة الصف وهي تحرك عكازها ببطء ومشقة.

وهذه هي مدينة لندن الجميلة.. وعندما خفف القطار من سرعته في محطة فكتوريا غادره جبريل قبل أن يتوقف تماماً وانطلق مسرعاً بين عربات الأمتعة والأهالي الذين ينتظرون القادمين.. وكان بعضهم يوجه نظرات ساخرة إلى قبعته المضغوطة على رأسه أكثر مما ينبغي، ولم تظهر ريخا ميرثانت في أي مكان فاستغل جبريل هذه الفرصة وراح يركض بين الناس المنتشرين في أرجاء المحطة ولكنه فوجئ بها عند حاجز التذاكر على بساطها الطائر على ارتفاع ثلاثة أقدام فوق الأرض دون أن يراها أحد سواه، صاح بها غاضباً: ما الذي تريدينه مني؟.. وما هي علاقتك بي؟. ردت عليه مباشرة: أريد أن أراك وأنت تسقط ألا ترى أنني جعلتك تبدو كالمجنون تماماً؟ كان الناس يبتعدون عن طريق جبريل.. ذلك الرجل الذي كان يرتدي معطفاً فضفاضاً وقبعة مضحكة.. ويركض بادي الانفعال.. وكان هناك صوت طفل يقول: ذلك الرجل يكلم نفسه. فنهرته أمه وقالت: أصمت.. حرام أن يسخر الإنسان ممن ابتلي بعاهة. واندفع جبريل على درجات

السلالم المؤدية إلى نفق المترو فتركته ريخا يمضي حيث يشاء وابتعدت ببساطها الطائر.. إلا أنه عندما وصل إلى رصيف القطار المتوجه شمالاً لمحها مرة ثانية. لكنها هذه المرة كانت تظهر له في صورة ملصقة على جدار الممر.. فأطلق صرخة مدوية واندفع هارباً باتجاه رصيف القطار.. حيث قفز إلى داخل إحدى المقطورات ليجد ريخا ميرثانت تجلس في مواجهته وقد طوت بساطها ووضعته على ركبتيها، وظل جبريل فاريشتا يهرب من مكان إلى آخر في أنفاق ميترو لندن.. لكنه كان يجد ريخا ميرثانت في كل مكان يصل إليه.. وكانت أحياناً تحتك بالجزء.. من جسمه. وعلى مشارف خط الميترو بوليتان وراحت تلوح لنا بأطفالها من على قمم الأشجار.. وعندما وصل إلى جوار مصرف إنكلترا ألقت بنفسها عليه بطريقة مسرحية من أعلى واجهة المصرف.. لوح لكثير من سيارات التكسي دون أن يتجاوب معه أحد من السائقين.. فاضطر إلى العودة لجحيم تلك الأنفاق ليتابع هربه الملحمي.. وأخيراً ألم به الإجهاد فاستسلم وخرج إلى مكان تصور أنه المحطة الأخيرة في رحلته العبثية الطويلة، إلى حلم مستحيل بولادة جديدة.. وما لبث أن وصل إلى طريق شبه مهجور مغمور بأوراق الشجر الصفراء.. كان الظلام قد بدأ يخيم.. وابتدأ هو يتعثر في مشيته مدفوعاً ببقايا أمل يمكن أن يتلاشى إلى أن وصل إلى حديقة مجهولة ذات طابع شبحي بأضوائها التي تحيط بها من حول السور.. وبينما كان يسقط على ركبتيه إعياء في ذلك المكان المنعزل وفي تلك الليلة الشتوية لمح طيف امرأة تتحرك نحوه ببطء وتثاقل.. على العشب

الذي كان الثلج يتناثر عليه، وظن للوهلة الأولى أنها آلهة الانتقام ريخا ميرثانت وقد أتت لتقبله قبلة الموت الأخيرة.. وتستدرجه بذلك إلى أقبية العالم السفلي الذي يبدو أعمق غوراً من العالم الذي دمرت له فيه روحاً لم يعد يكترث.. وعندما وصلت تلك المرأة إلى جواره.. كان قد سقط باتجاه الأمام مستنداً إلى مرفقيه وقد تدلت أطراف معطفه العريض حوله بحيث أصبح يبدو كخنفساء ضخمة تحتضر وهي تضع على رأسها لأسباب غامضة تلك القبعة الممتلئة الرمادية القذرة وتناهت إلى مسامعه صرخات مذعورة تند عن شفتي المرأة.. ولهاث ملهوف تمتزج فيه أحاسيس السرور بالدهشة.. وقالت له المرأة: إنك ما تزال حياً لقد استعدت حياتك وهذا هو المهم.. سقط نائماً وهو يبتسم عندما رأى قدمي آليلويا المفلطحتين من خلال ذرات الثلج المتساقط.



الفصل الرابع

عائشة

كان الحلم يطير إلى قصر مشيد على الطراز الهولندي في ذلك الجزء من مدينة لندن المسمى كنسنغتون.. ويتسلق بسرعة إلى الطابق الرابع من ذلك البناء حيث تسدل ستائر ثقيلة على نافذة بغرفة جلوس.. حيث يجلس هناك ويحلق بعينيه في أغياب المستقبل إلى الإمام الملتحي المعمم.. من هو؟ إنه منفي.. لكن كونه منفياً لا ينبغي أن يفهم خطأ على أنه لن يعود.. فالمنفي هو حلم بعودة مجيدة مظفرة.

تجمدت عقارب الزمن فتحول الإمام إلى مجرد صورة فوتوغرافية تأبى الحركة، ثبتت بشكل غير معقول فوق أرض الوطن بانتظار اللحظة الآتية حتماً.. وعندها تبدأ الصورة الفوتوغرافية بالحركة وتعود الأرض إلى حالتها المألوفة!.

المنزل الذي هو فيه ليس أكثر من شقة مستأجرة مجرد صالة انتظار.. الصورة كانت في ذلك المنزل هي مجموعة من البطاقات البريدية عليها صور من وطنه يسميه بكل بساطة (دش).. ومنها صورة لجبل يشرف على مدينة ومنظر رائعة الجمال تظللها شجرة ضخمة وصورة لمسجد وأما في غرفة نومه وفي سريره الصغير فقد كانت هناك أيقونة ضخمة في منتهى القوة والتأثير.. وهي لامرأة ذات قوة خارقة.. وقامتها الطويلة وشعرها الأسود يضاهي قامتها بطوله الإمبراطورة.. وماذا يمكن أن يكون اسمها غير.. عائشة؟

الإمام المنفي على الجزيرة وعائشة في الوطن دش.. كلٌ منهما كان يتآمر على الآخر ويراهن على موته!!

كانت الستائر تظل مسدلة طوال النهار خوفاً من أن يتسلل الشر عبر النوافذ، والشر في نظر الإمام هو الفرنجة، وكل ما هو قادم من الخارج!!.

قلما كان يخرج لاستنشاق الهواء في كنسنغتون. وإذا خرج كانت تحيط به الحلقة من ثمانية شبان يرتدون نظارات قاتمة وبزات تنتفخ بشيء بارز في داخلها.. وكان هو لا ينظر إلى هؤلاء الشبان تحاشياً للنظر إلى أي جزء من أجزاء هذه المدينة الكريهة.. وبالوعة الشرور التي أذلته بمنحه المأوى والملاذ.. وطمعاً منها بأن يعترف بما فيها من رذائل وآثام، وكان يفكر بأنه عندما يغادر هذا المنفي المشبوه ويعود منتصر فإنه سيتباهى بأنه يجهل كل شيء عن المدينة سدوم المرذولة تلك التي أجبرته الظروف على أن يسكن فيها.. وإنه ظل تقياً على الرغم من وجوده في تلك المدينة! وسبب آخر لإسدال الستائر هو تلك العيون والآذان بذلك المكان والتي هي بمجملها عيون وآذان غير صديقة من وجود عدسات مقربة وكاميرات وميكروفونات.. وبالإضافة إلى القناصة في مكان ما في هذا الجو. أما الشقق التي تقع فوق وتحت وإلى جوار شقته فقد كانت جميعها مأهولة بأفراد حرسه الخاص الذين كانوا يجربون طرقات كنسنغتون متنكرين في أزياء نساء بملايات سوداء وبراقع بيضاء!.

وكان الإمام يجلس دائماً بثوبه الفضفاض.. عبوساً متشائماً.. كان دائماً مؤرقاً مسهداً.. وكانت كل التحركات تتم بأوامر منه.. وكان ابنه خالد يدخل إلى مخدعه وهو يحمل بيده اليمنى كأساً من الماء بينما يضع راحة يده اليسرى تحت الكأس.. وكان الإمام يكثر من شرب الماء.. بحيث يشرب كأساً منه كل خمسة دقائق.. وذلك حتى يظل نظيفاً من الداخل.. وذلك أن الماء في رأي الإمام يمنح من يشربه نقاءه ورقته وبساطته ولذة طعمه وكان يشير إلى أن الإمبراطورة تشرب الخمر.. والخمر يفسد ويسمم جسدها الأشقر النحس، وهذه الخطيئة لوحدها كافية لإدانتها إلى الأبد دون أن يكون لها أي أمل بالخلاص! وكان الإمام يصب جام غضبه على الأغا خان السابق بعد أن اطلع على نص مقابلة أجريت وهو يشرب الشمبانيا وقال في حينها تبريراً لذلك: (هذه الشمبانيا مجرد مراعاة للمظاهر.. إنها تتحول إلى ماء بمجرد أن تلامس شفتي).

يا له من مرتد كافر مخادع. ولابد أن يأتي يوم يحاسب فيه أمثال هؤلاء وسوف يكون للماء يومه المشهود حين يجري الدم كالخمر.

كان حلم الإمام يمتد إلى زمن طويل قادم.. حيث كان يحس بخيوط عنكبوتية من أنامله التي تحرك بواسطتها حركة التاريخ.. لا.. ليس التاريخ فقط بل هو أكثر وأبعد مدى.

دخل ابنه وأنبأه أن الرجل المكلف بالحراسة هو سلمان الفارسي في حين كان الفتى الزنجي الأمريكي الأصل يقوم ببث الرسالة الصوتية اليومية إلى الوطن على الموجة المتفق عليها وكانت تلك

الرسالة تتألف عادة من كلمات للإمام يصدح فيها صوت بلال.. ذلك الصوت القوي الموحي، والمصقول والمدرب.. وكان يبتدئ دائماً بشتائم توجه إلى الإمبراطورة.. مع لوائح تدرج فيها عادة الجرائم التي كانت ترتكبها من قتل ورشوات وعلاقات جنسية داعرة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى نداء الإمام إلى شعبه يدعوه فيه إلى الثورة.. وكان صوت بلال ينطق بتلك الكلمات ويردد: سنحارب ليس في وجه الطغيان فقط.. ولكن في وجه التاريخ نفسه.

ذلك أن التاريخ في نظر الإمام مادة سامة من صنع الشيطان.. وليس إلا مجرد أكاذيب ملفقة مروعة عن التطور والتقدم والعلم.. والحقوق.. ولسوف يقف في وجه كل هذه الأكاذيب.. الحقيقة وصلت إلى كمالها عندما اختتم الله تنزيل ماهاوند عن طريق الوحي.

وقع اختيار الإمام على بلال لهذه المهمة بالنظر لجمال صوته حيث أنه أتم دورة تناسخه. فقد نجح بالاستحواذ على مستمعيه من الأمريكيين، كان سلاحاً تحول ليصبح ضد صانعيه، وانطلق بلال يخطب في الظلام: (الموت للإمبراطورة عائشة.. الموت للتواريخ والتقاويل.. الموت لأمريكا وللزمن.. إننا نسعى إلى الخلود إلى الأبدية إلى الله) بهذه الكلمات اختتم بلال وقائع البث الإذاعي اليومي في حين كان الإمام في مخدعه يبث رسائل خاصة به.. ونداءات لكبير الملائكة جبريل!! وصل جبريل وراح يتكلم بطريقة تنم عن التذمر للتمويه عن حالته المذعورة المرتعدة: (لماذا تصر على

استدعاء كبير الملائكة؟ ينبغي أن تفهم أن الأيام التي كنا نستدعى فيها قد ولت إلى غير رجعة)!!

وتبث سجادة الإمام أوباراً شعرية تلتف حول جبريل لتثبته في مكانه.. ويعود جبريل ليؤكد: (إنك لست بحاجة إلي.. لقد اكتمل الوحي.. دعني أمضي وشأني).. وينساب في أذني جبريل صوت بلال يصدر عن الإمام.. يقول الصوت: (الليلة هي الليلة الموعودة.. وعليك أن تطير بي إلى القدس).

وفي تلك اللحظة تتلاشى الثقة ويجد جبريل نفسه مع الإمام على سطح البناء والريح تعبث بلحية الإمام التي أصبحت تبدو أطول مما كانت عليه. وتحمر عيناه ويصيح (هيا خذني إلى هناك). ويرفع الإمام لحيته فوق كتفيه ويثبت أثوابه حول جسده كاشفاً عن ساقين نحيلتين يغطيهما شعر كث ويقفز في الهواء فوق جبريل بحيث يستقر على كتفيه متشبثاً به بأظافر تنمو وتنمو حتى تتحول إلى مخالب مدببة.

ويحس جبريل أنه يرتفع في السماء وهو يحمل ذلك الشيخ بلحيته وشعره الذي يستمر في النمو في كل الاتجاهات بحيث يتطاير حوله شعر حاجبيه اللذين يبدوان كعلمين مرفرفين.

يتساءل جبريل محتاراً في أمر.. القدس؟ كيف هو الطريق إليها؟ إنها كلمة ذات مدلولات كثيرة وقد يكون مجرد فكرة.. إنها هدفه أو ربما مجرد إحساس أو حالة نفسية.. أين هي قدس الإمام تلك؟

وينطلقان عبر الظلام.. ويصبح القمر أكثر إشعاعاً وحرارة.. حتى يصلان إلى جبل شاهق الارتفاع، يبدو على سفحه قصر

منيف! قصر الإمبراطورة.. وينقض جبريل باتجاه الأسفل كأنه بساط طائر والإمام فوقه.. وتظهر الطرقات وهي تعج بالحياة والحركة في عتمة الليل! ويسمع صوت جبريل يسأل: (ما الذي يجري هنا الآن؟) يجيبه: (اهبط سأجعلك ترى الحب).

ويتجه جبريل إلى طرقات تعج بكائنات إنسانية تتجمع بكثافة في الممرات التي تصل بعضها ببعض لتصبح أشبه بأفعى واحدة رهيبة لا ترحم. ويتقدم الناس ببطء من الممرات الجانبية إلى الطرقات التي تقود جميعها إلى الشارع العريض المشجر الذي تحف به من الجانبين أشجار الأوكالبتوس والمؤدي في نهايته إلى بوابات القصر ويسير الناس على أنساق يضم كل نسق منها سبعين شخصاً يتقدمون بحذر عميق جنباً إلى جنب إلى حيث يقف حرس الإمبراطورة وبأيديهم رشاشات مهيئة للإطلاق وما تلبث الرشاشات أن تلعلع فيموت أولئك السبعين ليصعد بعدهم سبعون آخرون على أجساد أولئك الذين ماتوا قبلهم بحيث يمضي ذلك التل من الأجساد آخذاً بالارتفاع شيئاً فشيئاً دونما توقف! وعندما دخل المدينة المظلمة هناك أمهات يقفن ورؤوسهن محجبة وهن يدفعن بأبنائهن الأعزاء إلى ذروة الاستعراض ويصحن بهم: (امضوا إلى الاستشهاد، قوموا بواجبكم.. موتوا!).

ويقول الإمام بصوت أبح: (هل ترى إلى أي درجة يحبونني؟ ليس هناك طغيان في العالم يستطيع أن يقف حيال تيار متدفق من المحبة كهذا التيار!) ويجيبه جبريل باكياً: (إن هذا ليس حباً بل هو الكراهية بعينها! وهذه الكراهية تدفع بهم إلى أحضانك!). ويعود

صوت الإمام ليقول: (غير ممكن أنهم يحبونني لأنني أنا الماء الخصب والحياة، بينما هي الفساد والتعفن! إنهم يحبونني لأنني أدمر أعداء الله. أما أولئك الذين يشيحون وجوههم عن الله فإنهم يفقدون الحب والأمان والإحساس بأزلية وأبدية الزمن الإلهي الذي لا حدود له.. الزمن الذي يضم الماضي والحاضر والمستقبل! إنني أجسد الخلود أما هي فليست إلا مجرد جزء من الثانية أو ربما أقل من ذلك! لن يكون هناك وجود ساعات بعد الثورة.. سنلقي كلمة ساعة من قواميسنا، وبعد الثورة لن يكون هناك أعياد ميلاد لأنّا ولدنا من جديد وسنبقى جميعاً في عصر لا يتقدم ولا يتغير في نظر الله العلي القدير)!

ويلجأ الإمام إلى الصمت بعد أن حانت اللحظة المستعرة حيث يصل الناس إلى حملة البنادق الرشاشة ويخرسونها في يديهم ليلتحم ذلك الثعبان الهائل من الجماهير الثائر مع أفراد الحرس فيخرسونه ويخرسون قعقعة أسلحته المهلكة. ويتنهد الإمام بعمق ويقول: (لقد انتهى الأمر)!.

تطفأ الأنوار في القصر ويتقدم الناس نحوه بالخطوات المنتظمة ذاتها وتعلو من داخل القصر المظلم صرخة مزعجة ومنفرة.. وما تلبث قبة القصر الذهبية أن تنفجر وينزاح جزء منها كبيضة تنكسر قشرتها ليبرز منها شبح امرأة أسطورية ذات وهج أسود قاتم وجناحين هائلين.. وشعر يضاهي شعر اللات طولاً يتناثر متماوجاً في أرجاء الجو.. ويدرك جبريل أن تلك المرأة الشبح لم تكن سوى اللات التي انبثقت من جسد عائشة ويصدر الإمام أوامره

الصارمة صائحاً (اقتلوها) ويمضي جبريل ليدفع الإمام على سدة المراسم. وترتفع يدا الإمام ليطوق بهما ابتهاج الناس الذي يطغى على صرخات الآلهة.. ومن ثم يجد الإمام نفسه دون خيار منه يتحول إلى دمية توجه إلى ميدان الحرب، عندما تراه هي على هذه الهيئة تنطوي على نفسها وتهدر وتتوجه إليه بكل ما لديها من قوة. وتحط عزيمة إيمان جبريل وتطلق الصاعقة في يديه. ويبدأ الالتحام في المعركة. ويترنح كل من الإمام وجبريل.. وسرعان ما تخور قواهما.. لكنها تسقط قبلهما وتتعثر إلى أسفل رأس على عقب ليتهشم رأسها ويتناثر.. ويشيح جبريل بوجهه عنها وقد ألمَّ به الذعر لتقع عيناه على الإمام وقد تحول إلى وحش هائل رهيب يربض في البهو الأمامي للقصر وهو يزمجر باتجاه الناس المندفعين عبر البوابات بحيث يبتلعهم جميعاً ولا يبقى لهم أي أثر في حين راح جسد اللات يذوي على الأعشاب حتى لم يبق منه أي شيء.

قائمة! عندئذ تبدأ كل ساعات المدينة تدق بلا توقف معلنة الساعة الثانية عشرة فالرابعة والعشرون من ثم الواحدة وبعد آلاف مشيرة إلى نهاية الزمن.. وبداية اللازمن عند الإمام.

وفي ذلك الصباح الحاسم، صباح عيد ميلاده الأربعين وفي غرفة تملؤها الفراشات راح الزمندار (ميرزا سعيد أختر) يتأمل زوجته النائمة وهو يحس بقلبه يطفح بالحب إلى درجة يكاد معها ينفجر!

كان قد صحا من نومه إثر حلم مزعج يدور حول نهاية مفجعة للحياة وللعالم. استيقظ على رفيف أجنحة الفراشات التي كانت تملأ غرفة نومه الرطبة والمظلمة! وغادر فراشه بهدوء وراح يتمشى

على شرفات قصره المنيف.. والفراشات ترفرف في أعقابه كأنها حاشيته الخاصة! كانت المنطقة النائمة مشهورة بتلك الفراشات التي تؤم المكان كجيوش جرارة طوال الليل والنهار.

إلا أن تلك الفراشات كانت من فصيلة خاصة.. حيث كانت من نوع الفراشات الحربائية التي يتحول لونها حسب المكان التي تحط عليه ولقد غدت تلك المعجزة ظاهرة مألوفة في قصر الزمندار والمناطق المجاورة له إلى حد أصبح ينظر إليها على أنها شيء طبيعي وغير حاذق! رغم أنها في الحقيقة لم تلاحظ في تلك الأمكنة منذ تسعة عشر عاماً حسب ما تذكره النسوة العاملات في خدمة القصر، واللاتي يرددن أسطورة أن هذه الفراشات هي تجسيد لروح إحدى القديسات واسمها (بيجي) عاشت حتى بلغت مئتين واثنين وأربعين عاماً..

وأن ضريحها الذي عفا عليه الزمن بحيث لم يعد يعرف موقعه كان مصدراً لشفاء مرضى العنة والثآليل! وعند وفاة بيجي اختفت الفراشات.. ولكنها عادت إلى الظهور مرة ثانية مما أدى إلى ارتفاع الروح المعنوية عند كثير من الأهالي. ولما لم يتحقق أي من العجائب أصبحوا يحسون بالإحباط!

كان قصر الزمندار يدعى قصر (بيرستان) وأما القرية المجاورة فاسمها تيلتلبير..

وفي صبيحة ذلك اليوم أخذ الزمندار على حين غرة بما رآه من جمال واندفع متقطع الأنفاس إلى غرفة النوم في الجانح الخاص لزوجته ميشال التي كانت ما تزال نائمة وأحس برغبة جامحة في

أن يرفع عنها الناموسية ويجثو بالقرب منها ويقبل أجزاء جسدها التي لسعتها بعوضة تسللت من إحدى فتحات الناموسية! إلا أنه تماسك وفضل أن يقف ليتأمل تلك البراءة التي تبدو عليها وهي نائمة بشعرها الناعم الكستنائي وبشرتها الناصعة البياض وعينيها المحجوبتين بأهدابهما الشهباء المطبقة!.

والدها هو مدير المصرف المركزي في الولاية.. ومن كان يحلم باسترجاع الثروة الورقية التي كانت تتمتع بها عائلته ميرزا.. تلك العائلة التي كانت على وشك الانقراض.. والتي كانت من المفترض أن تعود وتزدهر بهذا الزواج الذي هو وليد حب حقيقي.. وذلك على الرغم من فشلهما هو وزوجته بالإنجاب حتى ذلك الحين. وسمح ميرزا سعيد لنفسه بأن يطلق العنان لعاطفة قلبه ويوجه قبلة باتجاه زوجته عبر الهواء.. غادر بعدها الغرفة على رؤوس أصابعه، ومرة أخرى توجه إلى الشرفة الرئيسية لجناحه الخاص في الطابق الأعلى من القصر بينما كان يتأمل الحدائق حول القصر وقعت عيناه على امرأة شابة تجلس القرفصاء على المرج راحة يدها اليسرى التي استقرت عليها بضع فراشات.. التقطتها الصبية ووضعتها في فمها.. وهكذا فقد كانت تلتهم وجبة فطورها المكونة من الأجنحة المستسلمة.

المنزوعة بمنتهى الأناقة والرتابة. وعندما لمح ميرزا سعيد تلك الصبية أصيب بموجة من الرغبة الجامحة تجاهها لكنه بعد ذلك على الفور انتابه شعور بالخجل الشديد من نفسه. وكانت الصبية ترتدي ساري أصفر اللون تلف به جسدها العاري كما هي عادة

النساء الفقيرات في تلك القرية، وبينما كانت تحني رأسها لالتهام الفراشات كان ذلك الساري ينحسر عن معظم جسدها ويعري نهديها الصغيرين. لكن حركة صدرت عنه لفتت نظر الصبية فرفعت رأسها نحوه بسرعة والتقت عيناها مباشرة بعينيه ولم يبادر من ناحيته إلى أي تصرف ولم يقل شيئاً.. لذلك فقد عادت إلى ما كانت عليه بكل بساطة واستأنفت تناول وجبتها الغريبة دون أن تبعد عينيها عن وجهه. ولاحظ الزمندار أن أغرب ما في الأمر أن الفراشات كانت ترفرف باتجاه راحتي يديها الممدودتين وكأنهما تقبل على حتفها بكامل إرادتها.. وفي إحدى المرات تركت فمها مفتوحاً بعد أن وضعت فيه الفراشات وارتعدت فرائس ميرزا سعيد وهو يلاحظ أن الفراشات تتجه إلى أعماق فمها دون أن يبدر منها أية محاولة للنجاة، وأن ما حدث لم يكن بالحسبان عندما جحظت عينا تلك الصبية وانقلبتا في محجريهما وارتمت بعنف على الأرض ترتعش وتتلوى بشدة.

وانطلق ميرزا سعيد بعد لحظة من التردد وراح ينادي على من في المنزل صائحاً بهم: (احضروا جميعاً.. هنالك حالة طارئة)!. كانت الفتاة تعاني من تقلصات في جسدها وكان ميرزا سعيد أول من وصل إليها.. ووصلت بعده زوجته ميشال والخدم.. وبعد قليل زالت عن الفتاة تلك الحالة فاستكانت ونامت.. وأمرت ميشال بنقلها إلى غرفة نومها.. وبذلك كان لا بد لميرزا سعيد من أن يترك حسناء أرى تنام في ذلك السرير، بحيث انتابه مرة ثانية ذلك

الشعور العميق الذي أكثر بكثير من أن يوصف لأنه مجرد رغبة أو شهوة!.

أتت ميشيل ووقفت إلى جوار زوجها وسألها: (هل تعرفينها؟) فأجابت: (نعم. إنها فتاة يتيمة تعيش من صنع الدمى بأشكال الحيوانات وتبيعها على الطريق.. وقد أصيبت بداء الصرع منذ طفولتها المبكرة)! ألقت ميشال رأسها على كتف زوجها وقالت له بعذوبة: (عيد ميلاد سعيد، فقبلها في قمة رأسها، ووقفا متعلقين يراقبان الفتاة النائمة التي أخبرته زوجته بأن اسمها عائشة.

عندما وصلت عائشة إلى سن البلوغ أصبحت محط أنظار كثير من شبان المنطقة والتجسيد الحي لرغباتهم لكونها تتمتع بجمال لم تكن هي تحس بحقيقته، وبسبب ذلك التعبير الذي كان يكتسي به وجهها والذي ينم عن عدم الاكتراث بكل ما حولها وكأنها تعيش في عالم آخر. وكان الناس يتناقلون عنها أنها تطمح لأن تربطها علاقة حب بعشيق يهبط من السماء.. لأنها كانت تعتقد أنها أسمى بكثير من أن تربطها مثل هذه العلاقة برجال من هذا العالم الفاني! وكانت الفتاة يتيمة الأبوين ومصابة بداء الصرع.. ولذلك فقد كان الشبان الذين يلاحقونها فلا تتجاوب معهم، يشكون من أنها لم تكن في موقع يؤهلها لأن تتعالى عليهم.. وبالتالي فقد راحوا نتيجة إحساسهم بالمرارة والخيبة يقولون بأنها بالنظر لما تعاني منه من عاهات لن تجد من يتزوجها وأنها لذلك قد تلجأ إلى البحث عن عشيق أو أكثر حتى لا يذهب جمالها هدراً، وعلى الرغم من محاولات شبان قرية تيتلبير التي كانت عائشة تعيش فيها فقد

ظلت طاهرة نقية وعندما سمعوا عن عادتها الجديدة! عادة ابتلاع الفراشات فإنهم أصبحوا يشيعون عنها أنها مصابة بلوثة في عقلها وأن من الخطر بالنسبة لأي منهم أن يضاجعها حتى لا يتقمصه الشيطان الذي يسكن جسدها!. وبعد ذلك فإن أولئك الرجال الشهوانيون تركوها وشأنها .. مع تلك الدمى الحيوانية التي كانت تقوم بصنعها !! إلا أن شاباً دون غيره ظل يواظب على الجلوس غير بعيد عن الجهة المقابلة لمدخل كوخها كأنما كان يقوم بحراستها!. وكان ذلك الشاب أحد الذين كانوا ينتمون إلى طائفة المنبوذين في قرية (شاتنا باتنا) المجاورة الذي اعتنق الإسلام وصار يسمى نفسه عثمان؟ لكن عائشة لم تلتفت لوجود عثمان.. ولم تهتم حتى بمعرفة أي شيء عنه.

فوق قرية تيتلبير كانت قد نمت شجرة تين متعالية هائلة للغاية.. بحيث كانت تظلل دائرة يزيد قطرها عن نصف ميل.. وبحيث أصبحت القرية جزءاً من الشجرة.. والشجرة جزء من القرية.. تلك القرية التي يدين كل أهلها بالإسلام وهذا ما جعل عثمان المرتد عن دينه ينتقل إليها مصطحباً معه معدات المهرج.. بالإضافة إلى ذلك الثور الذي كان يخور بهمهمة واحدة علامة النفي وهمهمتين اثنتين علامة الإيجاب.. إجابة على أسئلة عثمان وقد اعتنق عثمان الدين الإسلامي كرد فعل على قنوطه ويأسه وأملاً في أن يكون تحوله إلى الإسلام وتكنيه باسم إسلامي أمراً مجدياً. إذ أنه كان في شاتنا باتنا يحظر عليه أن ينضح الماء من بئر البلدة. ذلك أن ملامسة أحد المنبوذين للماء تلوثه بحيث يصبح غير

قابل للشرب.. وبالنظر لكون عثمان يتيماً شأنه شأن عائشة. فقد كان مصدر الرزق الوحيد له هوممارسة حرفة المهرج. فكان يلبس ثوره قروناً ورقية حمراء وقطعة متبهرجة من القماش فوق ظهره وينتقل من قرية إلى قرية يؤدي مشاهده المألوفة في الأعراس والاحتفالات الأخرى. وكان الحوار بينه وبين الثور يدور على الشكل التالي:

- هل هذه القرية التي نحن فيها قرية لطيفة؟

يومئ الثور ويهمهم مرة واحدة (بروم) بمعنى (لا).

- ماذا تقول؟ إذن فهي قرية سكانها آثمون؟
- بروم (بمعنى لا).
- ياللهول: إذن هل سيذهبون جميعاً إلى الجحيم؟
- بروم.. بروم (بمعنى نعم).
- ولكن أيها الأخ أليس هناك أدنى أمل لهم؟
- بروم.. بروم.

يهمهم الثور بالإيجاب مانحاً لهم فرصة الخلاص، فيما ينحني عثمان ويقرب أذنه من فم الثور ويقول له: (أخبرني بسرعة ما الذي ينبغي عليهم فعله حتى يحصلوا على الخلاص؟) في تلك اللحظة يختطف الثور قلنسوة عثمان ويدور بها على المتفرجين طلباً منهم إلقاء قطع النقود فيها وفي تلك اللحظة يهمهم عثمان بدوره مبتهجاً (بوررم... بورم)!.

وكان عثمان وثوره المهمهم محبوبين من قبل أهالي تيتلبير إلا أن الشاب لم يكن يطمح إلا في محبة إنسانة واحدة دون غيرها. ولقد

وافقها عندما كلمته مرة وأخبرته بأن اعتناقه للإسلام لم يكن إلا نوع من المناورة والاحتيال، وقال لها (أيتها العزيزة إنني بهذه الطريقة فقط أستطيع أن أحصل على شربة ماء). وقد أغضبها اعترافه كثيراً وردت عليه بأنه لم يكن مسلماً على الإطلاق وأنه من ناحيتها تفضل أن يعود إلى شاتنا باتنا حيث يموت من العطش!. واستمرت بالتعالي عليه وكانت تشمخ بأنفها بكبرياء عندما تمر أمامه دون أن توجه إليه تحية الصباح أو تسأله عن حاله على سبيل المجاملة.

كانت العربات المحملة بالبطاطا تغادر تيتلبير على الممر الضيق الذي احتفرته عجلات تلك العربات بالذات والمؤدي إلى مسيرة أربع ساعات إلى شاتنا باتنا تلك البلدة الواقعة عند تلاقي ذلك الممر بالطريق الرئيسي. وكانت شاتنا باتنا تشتهر بعنابر تخزين البطاطا الاسطوانية البراقة المشيدة من الألمنيوم وكانت تشتهر بصناعة ألعاب الأطفال والدمى المحفورة من الخشب والتماثيل الصغيرة المطلية بالمينا!.

أوقفت عائشة إحدى عربات البطاطا تلك لتصعد إليها وتركبها متمسكة بأكياس البطاطا ومصطحبة دماها وألعابها إلى السوق.. وظل عثمان يراقبها من مكانه إلى أن ابتعدت بها العربة.. وعندما وصلت عائشة إلى شاتنا باتنا توجهت على الفور إلى منزل (سري سرنيقاس) صاحب أكبر مصنع للدمى في البلدة.

وكان سرنيقاس هذا رجلاً ضخم الجثة أصلعاً في حدود الخمسين من عمره، إذ كان على موعد معها في ذلك اليوم - وكانت

تدين له بأنه تعهد بشراء كل ما تصنعه من دمى - فإن ملامحه أكفهرت عندما عرضت عليه رزمة من نحو عشرة دمى كلها على هيئة شاب يرتدي قلنسوة مهرج وإلى جواره ثور مبهرج يومئ برأسه إلى أعلى وإلى أسفل.. حيث أنه أدرك على الفور أن عائشة غفرت لعثمان خطاياه! صاح سرينقاس بعائشة: (أنت تعلمين جيداً ذلك الرجل خائن لانتمائه.. إنه يبدل آلهته بالسهولة التي يبدل فيها حذاءه.. الله وحده يعلم ما ألم بك يا ابنتي لكنني لا أرغب بشراء هذه الدمى فذلك الولد شيطان!!) أعادت عائشة الدمى إلى قطعة القماش ولفتها بها ونهضت متأهبة لمغادرة المكان دون أن تقول أي شيء! صاح بها سرينقاس: (اللعنة عليك! إنك تعذبينني بهذا السلوك.. فأنا أجهل أنك بحاجة إلى المال! أمضي على الفور وقومي بصنع الدمى من نموذج تنظيم الأسرة بسرعة فائقة وسأشتريها منك بأعلى ثمن! مشكلتي أنني كريم إلى درجة الحماقة!

إن نموذج دمى تنظيم الأسرة شبيه بأصناف الدمى الروسية.. دمية تمثل الأب ودمية تمثل الأم، تحتوي دمية الأم في داخلها على الابن ومن ثم على الابنة. وتحمل هذه الدمى رسالة ضمنية هي أن طفلين لكل عائلة عدد كافٍ تماماً وليس من حاجة لإنجاب المزيد من الأطفال!..

وعندما كانت عائشة توشك على الخروج.. صاح بها سرينقاس: (اصنعي تلك الدمى بأسرع ما تستطعين فدمى تنظيم الأسرة تلاقي رواجاً جيداً)!

التفتت إليه عائشة وقالت له وهي تبتسم: (لا تقلق بشأني يا سرينقاس) وما لبثت أن غادرت المكان!.

وعندما عادت عائشة إلى قريتها بعد ثماني وأربعين ساعة كان شعرها قد تحول لونه أبيض كلون الثلج وكانت بشرتها استعادت بهاء وإشراق بشرة طفل حديث الولادة.. وكانت عارية تماماً.. إلا أن الفراشات كانت تغطي جسدها بكامله. وعندما وقعت عينا عثمان عليها أصيب بنوبة خوف من الله لم يجرؤ على الاقتراب منها. وعندما استيقظت عائشة من النوم بعد يوم وليلة توجهت مباشرة إلى مختار القرية (محمد دين) وأعلمته أن كبير الملائكة جبريل تجلى لها في المنام وقالت له: (لقد حلت البركة بقريتنا)!.

بمجرد انتشار نبأ تلك العجوز استدعيت عائشة إلى قصر الزمندار وظلت في الأيام التالية تقضي ساعات طوال مع البيجوم زوجة الزمندار ميشال التي كانت والدتها أيضاً قد وصلت في زيارة لها وأسعدها لقاء زوجة كبير الملائكة ذات الشعر الأبيض.

يريد جبريل أن يعترض أنني لم ألمسها بيدي! اللعنة علي إن كنت أعرف من أين تأتي هذه الفتاة بتلك الأخبار.. ومن المؤكد أنها لا تأتي بها من عندها! ولكنه لا يستطيع الاعتراض لكونه نائماً يحلم!.

والذي حدث أنها كانت منهكة القوى في طريق عودتها إلى قريتنا، حيث تستلقي وترى رجلاً حول رأسه هالات مشعة وبعد قليل تكف عن النظر إليه وتومئ له برأسها.. وما تلبث أن تنزع ذلك الساري عن جسدها وتقف إلى جواره عارية تماماً.

وعندما حلم بأنه استيقظ كانت هي تقف أمامه بشعرها المتناثر الأبيض والفراشات تغطي جسمها. وكانت ما تزال تومئ برأسها وعلائم الاستغراب والانتشاء ظاهرة على وجهها وهي تتلقى رسالة من كائن ما أسمته هي جبريل.. وقد تركته بعد ذلك مستلقياً وعادت إلى القرية. (وهكذا فإن لي زوجة في الحلم.. ما الذي أفعله بحق الجحيم؟).

لكن الخيار لم يكن متروكاً له. كانت عائشة وميشال أختر تجلسان معاً في ذلك المنزل الكبير!.

ابتدأ ميرزا سعيد يحس بعواطفه ورغباته تتأرجح وتجمح إلى حد كبير منذ عيد ميلاده الأربعين! وكانت زوجته تستغرب حالته تلك. فقد أصبحت علاقتهما الزوجية ساخنة إلى حد أنه صار يتوجب على الخدم إبدال أغطية السرير مرات ثلاثاً في اليوم الواحد! وكانت ميشال تأمل في سرها أن تساعدها هذه الرغبة العارمة من رغبة زوجها الجنسية على الحمل بعد تلك السنوات التي قضتها في مراجعة الأطباء والخضوع لتوجيهاتهم من أجل أن تحمل.. عبثاً.

وكان لها منزل في المدينة يقضيان فيه بعض الأوقات في إقامة حفلات صاخبة مع أصدقائهما.. إحدى تلك الزيارات لذلك المنزل فوجئت بزوجها يقول لها: (أليس رائعاً يا ميشو أن نعود إلى القرية بحيث تعودين أنت للمكوث في جناح الحريم؟ فأجابته: (كما تشاء يا سعيد) ذلك أنها فهمت من كلامه أن يرتب لها ولنفسه نظاماً تكثر فيه خلواتهما وبالتالي فإن فرص الحمل ستكون أكثر بالنسبة

لها . ولـذلك وجهـت الـدعوة لوالـدتها (السـيدة قريشـي) لتـؤنس وحـدتها في القريـة عنـد غيـاب زوجهـا في تسـيير أعمالهـا ! إلا أن السيدة قرشي امتلأت غضباً وقـررت أن تقنـع زوج ابنتـها بـالتخلي عن حماقتـه في احتجـاز زوجتـه في جنـاح الحـريم.. غـير أن ميشـال أذهلت والدتها حين راحـت تسـتعطفها بـأن لا تقـول لـه ذلـك! كانـت السـيدة قريشـي زوجـة المصـري الكـبير تـرى في زوج ابنتـها رجـلاً نحيلاً رغم مظاهـر كرمه لذلك فقد تجاهلت رجاء ابنتها وانطلقـت تبحث عن مـيرزا سـعيد حتـى وجدتـه في الحديقـة وعنـدما صـاحت به: (إن ابنتي لم تخلق حتى تحتجـزها حضـرتك في منـزل كهـذا! ثـم ما أهمية كل هذه الأموال التي تكدسها وتقفل عليها في خزائنـك إذا لم تتمتعا بها أنـت وزوجتـك.. انطلـق مـع ابنـتي وجـدد حبـك لهـا إلى مكـان بعيـد في مكـان مـا أكثـر حريـة وأكثـر متعـة وعنـدها خـذها واذهـب معهـا إلى مكـان بعيـد) وعـدها مـيرزا أن يفكـر بـالأمر.. فصاحت به: (ما الذي تفكر به أيها الأحمـق الكبير) تسـبب لـه هـذه الجملـة مـن قبـل حماتـه بنوبـة مـن تأنيـب الضـمير.. تـرى هـل كـان صادقاً في تبريراته التي قدمها لزوجتـه عنـدما طلـب منـها أن تعـود إلى جناح الحـريم أم أنه ببسـاطة كان يحاول أن يجد وسيلة يهيئ بها الأجواء لتعقب عائشـة عذراء الفراشات!.

انطلق صـوت مـن داخله ليجيبـه عـن السـؤال: (كل هـذا النشـاط الجنسـي المحموم.. وهذا الاهتمام بتجدد زوجتك ما هو إلا نوع مـن الإسـقاط.. وحقيقـة الأمـر أنـك تـواق لتلـك الفلاحـة الفاسـقة.. وأنـت على أحر من الجمر بانتظار قدومها حتى تمارس معها الفجور!..).

عندما لاحظ ميرزا سعيد أن زوجته تقضي معظم وقتها في خلوة مع عائشة انتابته حالة من الصخب والهياج.. وكانت ميشال تأمل في أن كبير الملائكة الذي هو زوج عائشة سيمنحها الطفل الذي تتمنى الحصول عليه، ولكنها لم تكن تجرؤ على مصارحة زوجها بذلك. وكانت تكتم ميشال يفاقم الشك في لب ميرزا سعيد ويجعله يحس بالغيرة، ولكنه لم يكن يعرف ما إذا كانت تلك الغيرة من عائشة أم من ميشال.. وانتبه للمرة الأولى أن عيني سيدة الفراشات كانتا من اللون الرمادي البراق.. اللون نفسه الذي كان لعيني زوجته وكأنما هذا التشابه في لون العينين وبريقهما يثبت أن المرأتين كانتا تتآمران عليه وتتهامسان بما لا يعلمه إلا الله من الأسرار وتثرثران عليه..

حتى السيدة قريشي تلك العجوز البدينة تمكنت عائشة من اجتذابها.. قال ميرزا سعيد في سره: (يا له من ثلاثي مجنون.. عندما يدخل الجنون من الباب فإن العقل يهرب من النافذة!).

كانت عائشة عندما تصادف ميرزا يتجول في الحديقة وهو يقرأ الشعر الغزلي بصوت مرتفع، تمضي وكأنها وقد بدا عليها الحياء دون أن يبدو عليها أي انفعال وهذا ما جعل سعيد يغرق أكثر فأكثر في لجة اليأس إلى أن قرر ذات يوم أن يتجسس على ما تفعله عائشة أثناء وجودها في جناح زوجته.. وكان أن سمع بعد بضع دقائق حماته وهي تصرخ بطريقة مفجعة. عندما مضى ليتحرى الأمر وجد السيدة قريشي تنتف شعرها وتبكي بحرقة في حين كانت كل من ميشال وعائشة متربعتان على السرير وإحداهما في

مواجهة الأخرى وتحملقان إحداهما إلى الثانية بعيونهما الرمادية كما كانت عائشة تحتضن براحتها وجه ميشال وتهدهده.

واتضح أن كبير الملائكة قد علم أن زوجة الزمندار ستموت بالسرطان وأن نهديها منتفختان بالعقد الخبيثة المميتة بحيث لم يبق إلا بضعة أشهر من الحياة! وعندما دخل سعيد كانت عائشة تقول لميشال: (إن الله سينقذك ويخلصك.. وما هذا إلا اختبار لقوة إيمانك)، كان ذلك بالنسبة لميرزا سعيد القشة التي قسمت ظهره.. حيث فقد أعصابه وراح يصيح بالنسوة بصوت مرتفع ثم يصرخ بعائشة: (اذهبي إلى الجحيم أنت وشبح سرطانك المرعب! لقد دخلت إلى بيتنا وأدخلت معك الجنون والملائكة.. وإننا نعيش في عالم متقدم والأطباء وحدهم باستطاعتهم تشخيص الأمراض وليس الأشباح القادمين من حقول البطاطا.. اخرجي ولا تعودي إلى هنا أبداً مرة ثانية) وخرج من الغرفة.. لكنه سمع عائشة تقول لزوجته: (كل ما لدينا سنعيده.. وكل ما نطلبه عليه).. وكان قد سمع تلك العبارة يرددها أهالي القرية دون أن يفهموا معناها الحقيقي.

دخل إلى الغرفة وقد فقد صوابه وعن غير وعي منه رفع يده وضرب بها عائشة التي سقطت على الأرض والدم يسيل من فمها.. فاندفعت السيدة قريشي توجه الشتائم إليه وتصيح به: (يا إلهي أنك قاتل ومجرم أي رجل هذا الذي يضرب امرأة! هيا أكمل هذا واضربني أنا أيضاً. مرن ذراعيك بنا يا منتهك المقدسات والحرمات! يا كافر.. يا شيطان.. يا قذر..!).

غادر سعيد الغرفة دون أن يتفوه بكلمة. وفي اليوم التالي أصرت ميشال أختر على التوجه إلى المدينة لإجراء فحوص طبية كاملة. وانطلقت بعد الظهر ومعها والدتها وسائق السيارة.. ولم يكن معهما ميرزا سعيد!. وجاءت نتائج الفحوص الطبية إيجابية.. وغير قابلة للمعالجة الجراحية.. والأورام متطورة كثيراً ولم يكن أمام ميشال إلا ستة أشهر إذا كان حظها طيباً! وعندما قرأ ميرزا تشخيص الطبيب أحس برغبة شديدة بالبكاء ولكن عينيه عاندتا وبقيتا جافتين. وقال في نفسه: (إن ما حصل كان لعنة ولأنني شتمت عائشة فقد انتقمت مني بقتل زوجتي).

رفضت ميشال أن تقابله في جناح الحريم وناولته أمها رسالة منها تقول فيها: (أريد أن أرى عائشة وأرجو أن تتكرم وتسمح بذلك).. أحنى سعيد رأسه علامة الموافقة وابتعد مترنحاً وهو يحس بخجل شديد!.

لم تكن عائشة في القرية، واحتجبت عن الناس تماماً لمدة أسبوع كامل. وكان المتهم العاثر الحظ عثمان المهرج قد حاول أن يتعقب خطواتها على طريق البطاطا الكثير الغبار.. لكنه فيما بعد أخبر القرويين أن ريحاً عاصفة هبت أثناء سيره ورائها فأغشت عينيه الغبار. وعندما تمكن من الرؤية بوضوح بعد ذلك كانت عائشة قد تلاشت، وقد أصبح القرويون مقتنعين تماماً بأن تلك الفتاة ذات الشال الأبيض الثلجي هي الوريثة الحقيقية لبيبجي التي ماتت منذ زمن بعيد. بدليل أن تلك الفراشات كانت تتعقب خطواتها وتغلف جسدها كالدثار أو المعطف!.

ظهرت عائشة في اليوم السابع عارية تسترها الفراشات الذهبية ويتطاير شعرها الفضي وراءها مع النسيم. وضمت على الفور إلى منزل المختار (محمد دين) وطلبت منه أن يدعو مجلس وجهاء القرية إلى عقد اجتماع عاجل وطارئ. وفي تلك الليلة كان وجهاء القرية يجلسون كل على الغصن المحدد له من الشجرة في حين كانت عائشة تقف قبالتهم على الأرض. قالت لهم: (لقد حلقت مع الملاك إلى أعلى عليين وإياه إلى سدرة المنتهي وهو يأمرنا جميعاً.. كل رجل وامرأة وطفل في القرية أن نتأهب لأداء فريضة الحج.. وأن نتوجه من هنا إلى مكة المكرمة لنقبل الحجر الأسود في الكعبة في وسط الحرم الشريف ولابد لنا من الامتثال لهذا الأمر ونحج من هنا إلى هناك).

دار حوار ساخن بين وجهاء القرية حول الكيفية التي ستمكنون بها من القيام بهذه الفريضة مع مراعاة شؤون المحصول الزراعي.. ومع الأخذ بالاعتبار استحالة تركهم لمنازلهم بهذا الشكل الجماعي، كانت عائشة صامتة إلى أن توقفوا جميعاً عن الكلام.. وحسم الأمر بهذه الطريقة دون أن يدرك أحد منهم الوسيلة التي ستجعلهم قادرين على تنفيذ هذا الالتزام. لكن عثمان المهرج المرتد عن دينه صاح قائلاً: (إن المسافة من هنا إلى البحر تبلغ نحو ألفي ميل، وهناك عجائز وأطفال رضع كيف يمكننا القيام بمثل هذه الرحلة؟) ردت عليه عائشة باستكانة: (إن الله سوف يمنحنا القوة للقيام بذلك).

صاح عثمان رافعاً الاستنكاف: (إن هناك بحراً واسعاً وعميقاً يفصل بيننا وبين مكة كيف سنجتاز ذلك البحر؟) خاطبته عائشة بهدوء: (لقد شرح الملاك كل هذه الأمور.. وأبلغني أننا سنمشي ألفي ميل وعندما نصل إلى شواطئ البحر فإننا سنطأ زبده بأقدامنا. وفي ذلك الحين سوف تنشطر مياه البحر أمامنا.. وتتباعد الأمواج.. وسوف نمشي على الأرض في قعر المحيط.. ونجتاز إلى مكة).

في صبيحة اليوم التالي صحا ميرزا سعيد ليجد البيت خالياً من الخدم.. وانتبه إلى أن نشاطاً محموماً كان يدور في الساحة تحت الشجرة، فجمعوا كل ما لديهم من غلال وأدوات طهو الطعام وفراش ودثارات.. واتخذوا الترتيبات اللازمة في لحظة ما قبل الفجر.. وكانوا في ذلك يحرصون على تنفيذ توجيهات المختار (محمد دين). توجه الزمندار نحوهم ساخطاً وعرقل تحركاتهم طوال خمس وأربعين دقيقة كان خلالها يلقي عليهم خطباً غامضة.. ويهزمهم واحداً إثر الآخر ممسكاً بأكتافهم ولكنه أخيراً سلم للأمر الواقع وابتعد وهو يضرب رأسه بجمع يديه ويوجه إليهم الشتائم صائحاً: (معتوهون بلهاء!) كان دائماً رجلاً غير مؤمن وكان لابد من تركه حتى يواجه مصيره وحيداً.. ولم يكن هناك وقت لمناقشة رجل مثله. وعند الغروب كان القرويون جاهزين للرحيل.. وسبب منظرهم وهم يحزمون أمتعتهم حالة من الهياج المحيط لدى ميرزا سعيد فاندفع باتجاه جناح زوجته وهو يصرخ مؤمنة بصورة

ساحرة: (لقد حصل جميع أهالي تيتليبر على إجازة من عقولهم. وهاهم يستعدون للرحيل إلى شاطئ البحر..

ما الذي سيحدث لمنازلهم وحقولهم؟!! إنهم يعرضون أنفسهم للدمار ولابد أن هناك تحريضاً سياسياً.. أو أن شخصاً ما دفع الرشوة لشخص آخر لتنفيذ هذه الحماقة، هل تظنين أنهم إن دفع لهم المال سيمكثون هنا بتعقل؟).

لكن صوته تحشرج عندما رأى عائشة في الغرفة فانطلق يوجه لها الشتائم: (أيتها العاهرة) وكانت تجلس متربعة على السرير بينما كانت ميشال وأمها تجثوان على الأرض تدفقان بما لديهما من المؤن وتحاولان حساب الحد الأدنى الذي يكفيهما في رحلة الحج تلك!.

خاطب ميرزا سعيد زوجته بعنف قائلاً: (إنك لن تذهبي. أنا أمنعك من ذلك.. الشيطان وحده يعلم أي جرثومة تنشرها هذه المومس بينكم.. وأصابت بعدواها القرويين! إنك زوجتي وأرفض أن أسمح لك بالإقدام على مثل هذه المغامرة الانتحارية).

أجابته ميشال ضاحكة بمرارة: (كم هو جيد انتقاؤك للكلمات يا سعيد؟.. إنك تعلم أنني لن أتراجع ومع ذلك تتحدث عن الانتحار!). تدخلت السيدة قريشي لتقول: (ابتعد يا ولدي.. فليس بيننا مكان لغير المؤمنين! الملاك أخبر عائشة بأن ميشال ستتخلص نهائياً من السرطان إذا مضت إلى الحج إلى مكة!) وبعد فترة صمت سأل سعيد: (إذا كانت المسألة في أداء العمرة فدعونا نستقل الطائرة.. وسنكون في مكة بعد يومين) أجابته ميشال: (لقد أمرنا

بأن نذهب مشياً على الأقدام) فقد سعيد السيطرة على نفسه وراح يزعق: (يا ميشال.. يا ميشال.. أمركم كبير الملائكة؟ جبريل؟.. يا ميشال.. الله والشيطان؟ إلى متى ستظلين تفكرين بهذه الطريقة؟.. وعندما ينشطر البحر أين يذهب الفائض من الماء؟ هل هناك معجزات هل تؤمنين بالفردوس يا ميشو؟ وهل ستغفر خطاياي أنا وما لبث أن ابتدأ يبكي حتى سقط جاثياً على ركبتيه وجبينه مضغوط على الجدار احتضنته زوجته من الخلف وقالت له: (إذن اذهب معنا إلى الحج) قال لها: (يمكنك على الأقل أن تأخذي معك سيارة المرسيدس ستيشن. إن فيها مكيفاً للهواء.. وبوسعك أن تأخذي معك صندوق الجليد المليء بالمشروبات) قالت برفق: (ستذهب مثل أي شخص آخر.. ليست هذه نزهة على الشاطئ) قال لها وهو يبكي: (لا أعرف ما أفعله؟ إنني لم أعد قادراً على حل هذه المشكلة لوحدي!).

خاطبته عائشة من على السرير قائلة: (ميرزا أيها الصديق، تعال معنا لتنقذ روحك) نهض سعيد وعيناه حمراوان ونظر إلى عائشة وقال لها بحزم: (ليس هناك إله) ردت عليه: (ليس هناك إلا الله.. ومحمد نبيه).. تابع قائلاً: (المياه لا تنشطر). أجابته عائشة: (سينشق البحر بأمر من الملاك) قال: (إنك تقودين هؤلاء الناس إلى كارثة حقيقية)! ردت عليه: (إنني أصحبهم إلى أحضان الله)! قال: (إنني لا أصدقك ولا أؤمن بما تقولين.. ولكنني سآتي معكم وسأحاول أن أضع حداً لجنونكم مع كل خطوة أمشيها)..

ابتهجت عائشة وقالت: (إن لله سبلاً كثيرة.. أياً كانت الطرقات التي يسلكها المتشككون فإنها قد تقودهم إلى الإيمان)!.

صاح بها ميرزا سعيد أختر: (فلتذهبي إلى الجحيم) وخرج وهو يناثر الفراشات إلى خارج الغرفة.

همس عثمان المهرج في أذن ثوره وهو ينظفه: (أيهما أكثر جنوناً المرأة المجنونة أم الأحمق الذي يحبها؟) لكن الثور لم يجب.. أضاف عثمان: (ربما كان الأفضل لي ولك لو بقينا منبوذين.. إن بحراً تجبر على ارتياده.. فهو أسوأ من بئر يحرم عليك مائه)!.

أومأ الثور برأسه مرتين علامة الإيجاب.. بووم.. بوووم!!.

الفصل الخامس

المدينة الواضحة غير المرئية

كان السيد محمد سفيان صاحب المقهى شاندار والفندق الصغير الذي يعلوه قبل قدومه إلى لندن مدرساً في مدينة داكا في بنغلادش.. وكان شخصاً واسع الاطلاع، ذا ثقافة متعددة، وقد استيقظ في تلك الليلة على جرس الباب يقرع بإلحاح في منتصف الليل فنهض بقامته القصيرة التي لا تتجاوز 140سم.. وجسمه المترهل وهو يفرك عينيه وينظف نظارتيه. وفتح الباب بحذر ليفاجأ بحجي جوشي ومعه ذلك الكائن ذو القرنين يرتعش من البرد والانفعال! وفي الردهة قال سفيان لذلك الكائن وهو ينفخ في يديه حتى يدفئهما! (يالك من بائس عاثر الحظ.. وعلى أي حال فلا داعي لليأس، سأذهب لإيقاظ زوجتي)..

وكانت لحية شمشا قد طالت وأصبحت خصلاتها تبدو مجعدة.. وكان يتشح بدثار صوفي قدمه له حجي جوشي في منزل باميلا أو بالأحرى بمنزل شمشا نفسه.. وعندما عاد سفيان تابع يقول: (في هذا الظرف بالذات أيها الشاب فإن أول ما ينبغي أن نقدمه لك هو شيء من الدجاج الساخن).

والتفت ناحية زوجته وهو يقول: (أقدم لك زوجتي البيجون هند) وخاطب زوجته قائلاً: (إنه صديقي لحجي جوشي) صاحت زوجته: (أي صديق هذا؟ كيف بالله ولابد وأنك فقدت بصرك).

ابتدأت الردهة تزدهم بنزلاء الفندق وفي طليعتهم ابنتا سفيان المراهقتان ميشال ابنة السابعة عشرة وأناهيتا في الخامسة عشرة وهما ترتديان ملابس رياضة الكارتيه التي كانت تتعلمانها في مدرسة الفنون العسكرية على يدي حجي جوشي! وكان يبدو عليهما السرور والدهشة بمشهد شمشا الممسوخ!.

أما والدتهما هند فكانت مازالت مذعورة متحفزة وانطلقت تزعق قائلة: (يالهذا الرجل زوجي؟.. أي حاج هو الرجل الذي يسمح للشيطان نفسه بالدخول إلى منزله.. ولم يكفه ذلك بل إنه يرغمني على أن أحضر له حساء الدجاج بيدي.. هل تلاحظون أنفاس هذا الشيطان كم هي كريهة! من أين أتى بهذه الأنفاس البخرة؟). أجاب شمشا بصورة مفاجئة: (من طائرة البستان 420)!.

زعقت المرأة وابتعدت مذعورة باتجاه المطبخ!.

كانت هند تعتز بزوجها أيام كانا يعيشان سوياً في شقة متواضعة في داكا.. وكانت تنظر بإعجاب إلى ثقافته.. وتحرص على أن تقدم له كل ما يبهجه ويسره.. فتحضر له الشاي المعطر في ساعات متأخرة من الليل حينما يكون منهمكاً في تصحيح أوراق الأوراق لطلابه.. وتجهد نفسها في المطبخ غاية الإجهاد لتقدم له أشهى وجبات الطعام بأنواعها المختلفة من محلية وهندية وغربية.. ولكن معظم تلك الأطعمة كانت من نصيبها هي حيث أن شهيته للطعام كانت ضعيفة.. ولذلك فقد كان وزنها يزداد باضطراب في حين بقي هو هزيلاً نحيفاً. وكان ذلك بالذات هو السبب وراء أول

خلاف نشب بينهما. وابتدأت تشك بأن طهوها لا يعجبه.. وابتدأ هو ينتقد بدانتها وقد قال لها مرة: (كنت أعتقد أنني تزوجت من امرأة واحدة.. ولكنك بهذه البدانة تضاهين امرأتين كاملتين!) وما لبثت التناقضات أن تفاقمت حتى أصبحت هند تضيق بالشقة المتواضعة التي يقيمان فيها وانتقلت بالتالي إلى اكتشاف مجموعة لا تغتفر من الخطايا التي يرتكبها زوجها. وانتبهت إلى أنه كان يمارس معها العلاقة الجنسية في مناسبات قليلة.. وأنه عندما كان يضاجعها.. لم يكن يحاول على الإطلاق أن يشعرها بأية متعة حيث كان ينجز تلك المهمة بصمت تام ودون القيام بأية حركة وأن هذا الضعف الجنسي الكامن فيه هو السبب في أنهما أنجبا بنتين على التوالي. وأصبحت هي بدورها لا تحرص على تلك العلاقة وصارحته مرة بأنها لا تحب الجنس وإنما تقوم بواجبها فقط من أجل الإنجاب وصار هو يتأخر عن القدوم إلى المنزل ولا يصل إليه إلا في وقت متأخر من الليل مما أتاح لها أن تشك بأنه يتردد على المومسات.. ولكنه في الحقيقة انخرط في أنشطة سياسية.. وأية أنشطة.. لقد صرحت له كما عرفت هند علاقة بأولئك الشياطين أعضاء الحزب الشيوعي المحظور والذين كانوا بنظرها وبنظر غالبية الناس أسوأ من المومسات!! وبنتيجة ذلك فقد تعرض للملاحقة والاعتقال مما دعا هند إلى الهجرة مع بنتيها اللتين كانتا بعد طفلتين.. وإلى أين.. إلى إنكلترا.. بحيث لن تتسنى لها مرة ثانية الفرصة للعودة إلى قريتها الجميلة في بنغلادش.. لقد لحق بها زوجها بعد فترة!.

كانت الإمكانية الوحيدة التي يستطيعان بها تأمين العيش في ذلك المنفى.. هي ومهارتها المعروفة وإتقانها لفن الطهو.. حيث افتتحا مطعماً صغيراً كانت تقدم به لعدد محدود من الزبائن في البداية ألذ وأشهى الأطعمة.. والشيء الوحيد الذي كان يمكن لسفيان أن يقوم به هو تحضير الشاي وتقديمه للزبائن أي بمعنى آخر أن يتحول إلى خادم وهو في الحقيقة رهن إشارة زوجته هند وتحولت حياتهما بهذه الطريقة.. وحققت هند أول انتصاراتها على زوجها وأصبحت سيدته!.

وابتدأ كلاهما يفقدان شيئاً فشيئاً عاداتهما القديمة وارتباطاتهما ببلدهما وانطلقا ببنيان حياة جديدة! ومع ذلك فقد ظلت هند حريصة على أن تغطي حقيقة ضعف زوجها.. وكانت تعامله أمام الناس على أنه سيدها.. ولقد انتشر صيت مطعمهم ونجحا في مساعيهما لكسب المال حتى أصبح لديهما هذا البناء المكون من أربعة طوابق وأصبحا يؤجران فيه الغرف للراغبين في السكن المؤقت.

الارتباط الوحيد الذي بقي لهند بماضيها كانت تحققه لها مشاهدة أفلام الفيديو الهندية ومطالعة المجلات الفنية المهتمة بنجوم السينما الهندية.. وبذلك عرفت عن مأساة اختفاء نجم السينما الهندية جبريل فاريشتا وموته في حادثة طائرة!.

وكانت القشة التي قصت ظهر هند في تلك المرحلة بالذات هي وصول ذلك الشيطان الذي كان على شكل تيس ذو القرنين والظلفين.

أجلس سفيان شمشا بجواره على إحدى المناضد وكانت الفتاتان ماتزالان تتأملان ذلك المسخ بأعجوبة ودهشة وعقبت هند على ذلك بالقول: (كيف يمكن أن نضمن سلامة الفتاتين بوجود مثل هذا الكائن في منزلنا يا سفيان؟!).

احتجت ميشال الابنة الكبرى على تبرم والدتها .. وراح حجي جوشي يناقش المسألة بصورة منطقية: (الذي حدث لهذا الرجل أنه تعرض للاعتقال غير المبرر ولمعاملة عنيفة من قبل رجال الشرطة وبالتالي لفترة سجن غير مشروعة وغير قانونية بالإضافة إلى معالجة طبية ربما خضع من خلالها لتجربة بعض المركبات الدوائية الحديثة الاكتشاف عليه كأي حيوان تجربة فما لبث أن أصيب بالانهيار النفسي وفقدان الوعي وعدم المقدرة على التكيف.. ولقد رأينا حالات مشابهة كحالته من قبل).

كان الجميع يصغون ولم يناقشه أحد من الحاضرين.. وتابع جوشي: (وإذا نظرنا إلى المسألة من الناحية الفكرية والعقائدية نجد أن هذا المسكين هو ضحية.. هو مسؤولية يقع جانب منها عليه هو نفسه.. إن خطأنا جميعاً يكمن في أننا نتقبل هذه التوجيهات بصمت.. ونرضى لأن نعامل كضحايا).. عادت هند إلى الاحتجاج فصاحت: (لقد أدركت الآن أن هذا العالم مجنون.. وإلا فكيف يمكن أن يحل الشيطان ضيفاً على منزلنا؟).

كان شمشا في تلك الأثناء يبتلع الحساء الساخن بنهم. وكان مازال يرتجف.. فتوجه إليه سفيان وقال له: (يالك من إنسان عاثر الحظ.. إنك لن تجد مكاناً تذهب إليه وأنت في هذه الحالة، إن

المكان الوحيد الذي تتهيأ لك فيه الفرصة لاستعادة صحتك هو هنا بيننا .. بين أبناء بلدك.. الناس الذين هم من نوعك).

لكن صلاح الدين شمشا لم يجب على هذا الكلام إلا عندما وجد نفسه وحيداً في ملحق ذلك الفندق.. حيث وجد نفسه يرد على سفيان قائلاً: (إنني لست منكم، إنكم لستم أبناء بلدي.. ولقد قضيت حتى الآن نصف عمري حتى أتخلص من الانتماء إليكم!).

كان صلاح الدين شمشا يستلقي في ذلك السرير الصغير في الملحق.. وكان قلبه يخفق بشدة.. لقد تحولت مدينة لندن بالنسبة له إلى جحيم.. إلى جهنم نفسها .. ونام منهك القوى ليحلم بكوابيس الشياطين ولكنه صحا مذعوراً.. وكان قلبه مايزال يخفق بشدة.. وتذكر في تلك اللحظة زوجته وهي تناقش حجي جوشي بشدة وتصيح به: (خذ هذا الكائن.. وإياك أن تعيده إلى هنا) وانتقل إلى التفكير بجبريل فاريشتا: (أين هو الآن؟ لابد وأنه يعيش برخاء في مكان ما .. أما أنا فها أنني قد تحولت إلى تجسيد للشر.. وأياً كانت ملابسات تحولي هذا فلابد لي من مواجهة الواقع.. إنني لم أعد كما كنت.. لقد تقمصتني الخطيئة.. وكل ما هو كريه ومنفر.. فماذا؟.. لماذا أنا دون غيري؟ ما الذي جنيته حتى أعاقب بمثل هذا العقاب؟ ومن هو الذي يعاقبني؟ وما هو ذنبي في أنني لم أستطع إنجاب الأطفال من باميلا؟.. وأنني فشلت في تكوين أسرة بمعنى الكلمة؟ إنه مصيري وقدري في هذا العصر ذي المفاهيم المقلوبة.. ولاشيء غير ذلك.. لقد كنت دائماً أبحث عن الخير وأحاول إحقاق الحق.. وهذا يعتبر في هذا الزمن جريمة لا تغتفر)..

عبرت مخيلته صورة زينات وكيل فحاول محوها بأقصى ما يستطيع من سرعة.. وعنف. وشعر من جراء ذلك بالذنب.. ولكنه بعد أن عمل جاهداً على التخلص من ذلك الشعور أيضاً.. وراح يتفرج بعمق ويحدث نفسه قائلاً: (كفاني إحساساً بأنني أجسد الشر.. إن المظاهر كثيراً ما تكون خادعة، وأنا لست الشيطان.. الشيطان شخص آخر غيري ترى من هو ذلك الشخص؟). ابتدأت الفتاتان ميشال وأناهيتا تترددان خلسة على الملحق وتجلبان الأطعمة والقهوة لشمشا.. وكانتا أحياناً تحاولان التحقق من مظهر ذاك عمل كان حقيقياً ولم يكن خدعة يقوم بها باستخدام الميكياج وقالت له أناهيتا: (لقد أنبأنا حجي بأنك ممثل.. ألا يمكن أن يكون مظهرك هذا حيلة تحاول بها خداعنا؟ وسألته ميشال بدورها: إننا لم ننم الليلة الماضية وكنا نفكر في أمرك.. لابد وأنك بتحولك هذا قد اكتسبت إمكانيات ومقدرات لا تتوفر في الناس العاديين).

لكنهما عندما كانتا تلحظان الحزن والغضب في عيني شمشا كانتا تكفان عن الاستفسار والغفران له. وقد تركتا له في أول تلك الزيارات زجاجة فيها سائل أخضر وقالت له ميشال: (هذه زجاجة دواء.. غسول تغسل به فمك.. لمعالجة تلك الرائحة الكريهة).

في اليوم التالي طلب من الفتاتان أن تساعداه في النزول إلى المطعم لاستعمال الهاتف، وقد أعطته أناهيتا مدخراتها من قطع العملة الصغيرة لهذا الهدف.. فلف رأسه بغطاء وأخفى جسده ببنطال عريض قدمه له حجي ونزل ليتصل بميمي ليعلم بأن أسنانها تكسرت نتيجة تعثرها وسقوطها في الطريق وأن أحوال

العمل قد تراجعت في التلفزيون والإذاعة منذ (موته) هو في حادث الطائرة وإصابتها هي في الطريق بحيث ألغيت جميع البرامج التي كانا يشتركان في تقديمها.

وهكذا وجد شمشا نفسه وقد فقد عمله وزوجته! كما أخبرته ميمي بأنها انتقلت لتعيش مع بيلي بانوتا بعد أن سئمت من انتظاره هو.

وفوجئ في اليوم التالي بأن ميمي تهتف له في نيويورك، فقال لها: (إنك تخبريني بأنك رحلت إلى الولايات المتحدة؟ فردت عليه: إنك لم تخبرني عن مكان وجودك؟ لكل منا الحق بأن يحتفظ ببعض الأسرار) قال لها: (أريد أن أحذرك من بيلي بانوتا هذا) أجابته: (لن أناقش معك هذا الأمر في يوم من الأيام.. ولكن لا تنسى أنني امرأة ذكية).

عادت ميمي إلى الاتصال بعد بضعة أسابيع وأحس من طريقتها في الكلام معه بأنها ابتعدت عنه تماماً.. بأنهما افترقا بلا عودة.. حاول أن يخبرها بما حصل له ولكنها لم تنتبه وقطعت الاتصال معه بصورة مفاجئة. لكنه فهم أنها وبيلي بانوتا سيقومان بإنتاج أفلام سينمائية حول حياة الفرد في إنكلترا وأمريكا ويستضيفون فيها كبار النجوم وأنهما في طريقهما للحصول على شهرة عالية! فقد تنكرت له ميمي ماموليان ولحقت بذلك المحتال بيلي بانوتا الذي يعرف شمشا بأنه من أصحاب السوابق في الاحتيال وأنه كثيراً ما أوقف من قبل الشرطة لهذا السبب بالذات.

في أحد الأيام لاحظ صلاح الدين أن هند كانت تسير في أحد ممرات الفندق وبيدها نسخة من مجلة (ستي بليتز) المختصة بأخبار نجوم السينما وهي تصيح بانفعال (إنه حي) أطلت ابنتها ميشال من غرفتها وهي شبه عارية: (ماذا هناك من هو هذا الحي؟) صاحت بها أمها: (يا للعار.. احتشمي أيتها الفتاة) ذلك أن المحامي حنيف جونسون رآها وهي في تلك الحالة من العري.. لكن الفتاة لا تصغي لأمها وتصر على سؤالها وهي تنظر باتجاه حنيف جونسون بمنتهى الجرأة: (من هو هذا الحي؟) أجابتها أمها وهي تهبط السلالم: (إنه جبريل) ولم تنتبه الوالدة إلى أن الفتاة تركت باب غرفتها مفتوحاً أمام المحامي حنيف جونسون الذي دخل الغرفة متسللاً بعد أن خلا له الجو.

وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم دخلت الفتاتان ميشال وأناهيتا إلى الملحق لتطلعا شمشا على ما في تلك المجلة من أخبار مذهلة. وكانت المجلة قد نشرت لقاء مع جبريل فاريشتا يعلن فيه أنه سيشترك مع المنتج السينمائي س. س. سيودبا في إنتاج فيلم جديد بعد أن نجا جبريل من بين فكي الموت. والذي يدعي فيه أن جبريل لم يكن على متن تلك الطائرة التي انفجرت. حيث أنه تأخر عن موعد إقلاعها واضطر إلى السفر في طائرة أخرى! وأنه يحس الآن أنه من الغبن أن يحرم جمهوره من معرفة الحقيقة وبالتالي من أعمال فنية جديدة له! لذلك فقد وافق على العروض الجديدة التي قدمت له بكل سرور. والتي سيكون أولها إنتاج فيلم ديني تاريخي عن حياة النبي محمد وعن الصراع الذي كان يدور

بين النبي وبين كبير الملائكة والذي سيظهر فيه النبي مجسداً، بطريقة مختلفة عن الطريقة التي أخرج فيها فيلم الرسالة بحيث لم يكن يسمع إلا صوت إنسان يقول كلماته.

وفي مكان آخر من ذلك التحقيق يسأل الصحفي السينمائي المعروف بيلي بانوتا: (ألن يعتبر ذلك كفراً وزندقة؟) ويجيب بيلي: (أبداً.. فالفن هو الفن وينبغي مواجهة الحقائق كما هي، نحن إنما نتصدى لتصوير قصص هادفة.. أقرب إلى الأساطير). ويتدخل المنتج سيسوديا ليقول: (قصص أشبه بالأحلام).

وعندما يطلع شمشا على تفاصيل هذا التحقيق ومعطياته تفاجأ به الفتاتان يصرخ بحدة: (إنه كاذب.. ذلك الخائن الحقير.. كيف يجرؤ على الإدعاء بأنه تأخر عن موعد إقلاع الطائرة.. وقد سقطنا منها معاً؟).

رجته الفتاتان أن يهدئ من روعه ويخفض صوته قبل أن تصعد والدتهما إليه!!. أخذت حالة شمشا تتطور من سيئ إلى أسوأ في ذلك الملحق التي طالت إقامته فيه. حيث أصبح قرناه أطول مما كانا عليه وأثخن وأصبحت لحيته أغزر شعراً.. بل جسمه كله أصبح يغطيه شعر كثيف. وكذلك فإن ذيله كان يطول باستمرار حتى أصبح من المستحيل إخفاءه من ذلك البنطال الذي استعاره من جوني والأخطر من ذلك كله فإن شهيته إلى الطعام كانت آخذة بالازدياد حتى بلغت حد الشراهة! وكان يشعر أنه قد تحول تماماً من رجل إلى تيس. وكان وجوده في ذلك المنزل شوكة في خاصرة هند.. ولكنها رغم ذلك ابتدأت تتقبل وجوده في ذاك على أنه أمر

يسبب لها الضيق والانزعاج فقط. بيد أنه لم يعد يسبب لها الخوف. خاطبت بنتيها مرة بالقول (إنني آسفة من أجلكما وأنتما تقضيان كل هذا الوقت مع شخص مريض والأيام تمضي بسرعة من عمريكما .. لقد أصبح كل شيء في هذه المدينة يبدو لي زائفاً وخادعاً .. إن المفروض بفتاتين مثلكما أن تساعدا أمهما في شؤون المنزل وأن تفكرا بالزواج وأن تتفرغا للدراسة.. لا أن تقضيا الوقت مع التيوس! لقد كان من عادتنا في عيدنا الكبير أن نذبح التيوس!!).

أما سفيان فقد كان يصعد في بعض الأحيان لزيارة شمشا في ذلك الملحق وقد اقترح عليه في إحدى المرات أن يحضر له شيخاً رجل دين لعله يتمكن من تخليصه من تلك الحالة التي هو فيها. وكان رد فعل شمشا مفاجئاً حيال هذا الاقتراح إذ أنه هب واقفاً على حين غرة وابتدأت أبخرة كثيفة كريهة تنبعث من منخريه، وبعد أن هدأ قام يفتح النوافذ ليساعد في تهوية الغرفة واعتذر لسفيان عن هذه الإساءة غير المقصودة قائلاً: (لا أستطيع أن أفهم ما الذي يحدث لي.. ولكن أخشى أن أتحول إلى ما هو أسوأ مما أنا فيه) أجابه سفيان مواسياً: (لا تحزن أيها السيد فإن الروح تحافظ على نقائها إلى الأبد مهما تغيرت حال الجسد). رد عليه شمشا: (إنك تواسيني ولكن ما الذي يمكن أن يعزي شخصاً مثلي.. يكفيني شقاء وتعاسة أن صديقي القديم ومخلصي هو الآن عشيق زوجتي).

أخبرت ميشال سفيان أستاذها حجي جوشي بأنها على علاقة مع صديقه حنيف جونسون وطلبت منه ألا يبوح بهذا السر لأحد.

ولقد أصيب حجي بصدمة عنيفة لدى سماعه بهذا النبأ .. وكان حجي جوشو قد ابتدأ ذرعاً لعلاقته مع باميلا التي اتخذت طابعاً مملاً بعد أن أصبحت مدمنة على الكحول وابتدأ ذلك يؤثر على صحتها وعلى أعصابها . وأصبحت تفقد صوابها بمجرد ذكر زوجها السابق أو مطالبتها بالطلاق منه لكونه مازال على قيد الحياة، لأنها كانت مصرة على أنها أرملة وأن زوجها مات بحادث الطائرة المعروف.. إن حجي يصر على أن يسألها : (إذاً ماذا بشأن حقه في ملكية هذا المنزل؟). فلا تملك إلا أن تجيبه: (لقد أبلغت بوفاته بشكل رسمي!! ومن المفارقات التي حدثت في تلك الفترة أن باميلا كلفت من خلال عملها في لجنة العلاقات بالتحقيق في ادعاءات وردت تفيد بأن هناك ضباط في قسم الشرطة التابع لمنطقتهم يتعاطون أعمال السحر والشعوذة.. وأن هناك أقساماً أخرى في المدينة أصبحت خارج سيطرة الإدارة العامة للبوليس للسبب ذاته.. وابتدأت الإشاعات تسري في المدينة بأن هناك جنرالاً يشرف على توجيه مثل هذه النشاطات وأن هناك تحقيقاً رسمياً واسع النطاق سيتم إجراؤه بهذا الشأن.

والذي أغضب حجي بهذا الصدد هو رفض باميلا لفكرة أن يكون زوجها ضحية مثل تلك النشاطات التي يقوم بها بعض رجال الشرطة خاصة وأنه تعرض للحالة التي هو فيها بعد أن تم اعتقاله وأسيئت معاملته من قبل بعضهم.

كان حجي يفكر وهو في طريقه إلى بيت عشيقته باميلا، بتلك العلاقة الجنسية غير المشروعة التي صرحت بها له ميشال سفيان

بينها وبين حنيف جونسون.. ألم يدرك ذلك الوغد أن ميشال كانت رغم كل شيء ماتزال طفلة دون الثامنة عشر؟ ولكن حجي استغرب كيف أن حنيف جونسون رغم عدم مقدرته على فهم المضامين المعمقة فيما يكتبه هو من أشعار يتقن لغة الغرائز.. ويستطيع في هذا المضمار أن يجترح مالا يقدر عليه هو من معجزات! واكتشف أنه في أعماقه يكن الكثير من الحسد لحنيف جونسون لعلاقته مع ميشال ذلك أنها فتاة على جانب كبير من الجمال.. وأنه لم يتجرأ مرة واحدة خلال تلك الفترة الطويلة التي كان يقوم فيها بتدريبها على الكاراتيه، على أن يوجه لها كلمة واحدة تدل على إعجابه بجمالها.

وفي خضم هذه الأفكار وصل حجي إلى منزل باميلا ليفاجأ بأنها قصت شعرها بكامله وأحلت محله بيروكة مستعارة لكونه تحول دفعة واحدة إلى اللون الأبيض.. وقد اعترفت له بأنها لا تستبعد على الإطلاق أن تكون قد تعرضت لعمل من أعمال السحر.. ورد عليها: (كيف تقبلين بذلك ولا تقبلين بأن زوجك في حالته الراهنة ضحية للسبب ذاته؟ مع المدى والسوية؟!). وكاد حجي في تلك الليلة يصارح باميلا بأنه يفكر في وضع حداً لعلاقته معها بسبب تأنيب الضمير.. لولا أنها بالمقابل أخبرته أنها كانت طوال تلك المدة تكذب عليه بأنها تستعمل موانع الحمل.. وأنها أصبحت حاملاً منه.. وأنها مصرة على الاحتفاظ بذلك الحمل.. وفي تلك اللحظة أحس بأنه لم يعد قادراً على التخلي

عنها.. وطرد فكرة مصارحتها تلك من رأسه وسمح لها بأن تدفعه إلى السرير.

أياً كان شأن صلاح الدين، سواء كانت حالته ناجمة من تأثير السحر ومن جراء إصابته بنوبة من الرعب الشديد أو حتى نتيجة لتشوه اعتباطي في تكوينه الجسماني، فإن تسلسل الأحداث وضعه الآن في رعاية ابنتي الحاج سفيان. إذ أنهما كانتا تحتضنانه وتعطفان عليه شأنهما شأن أي حسناوتين ترعيان وحشاً. ولكنه لاحظ مؤخراً أن هناك عداء قد ابتدأ ينشأ بين الشقيقتين.

وفي إحدى الأمسيات كانت ميشال تتحدث عن حالات تعرض فيها بعض الملونين للاعتداء من قبل أشخاص يحملون مشاعر عرقية عنصرية، فعلقت أناهيتا على ذلك بقولها: (إنها تعني أن تقول أنك لست الضحية الوحيدة لمثل تلك المشاعر في هذه المدينة والشارع يحفل بمثل هذه الحوادث بصورة يومية).

ويعرف شمشا من أناهيتا ابنة الخامسة عشر سنة معلومات جديدة بالنسبة له عن العرقيين المتطرفين الذين ينشطون تحت يافطة حزب العمال الاشتراكي.. وأولئك الملونين الذين يدافعون عن أنفسهم حيال ذلك التعصب.. وعن الجرائم التي ترتكب بحق الآسيويين.. قالت له أناهيتا: (كل ذلك ناتج عن التوجهات الناتشرية الجديدة).. وانتقدت أناهيتا بعد ذلك نقداً لاذعاً شقيقتها التي تقضي ليالي بكاملها خارج المنزل دون أن تحسب حساباً لعدوان من هذا النوع يمكن أن تتعرض له وكيف أنها تمارس الجنس بحرية كاملة دون أن تقيم وزناً للمخاطر التي تحصل بمثل

ذلك السلوك. والتي يمكن أن يكون أقلها شأناً الإصابة بمرض الإيدز.. وبعد ذلك كانت الفتاتان تتمسكان بالأيدي وتشد إحداهما شعر الأخرى.. مما أدى في النهاية إلى مغادرتهما متخاصمتين. وتنبأ شمشا بمتاعب قادمة.

كان حنيف جونسون يجلس في مقهى شاندار حين ابتدأ حديثه بالقول: (هناك سيدة مسنة ذبحت الليلة الماضية ليس هناك أمن اجتماعي!!) صاحت به أناهيتا سفيان: (لا أفهم لماذا تردد مثل هذه القصص.. إن هذا يثير أعصابي) تجاهلها وجلس بجوار شمشا وهو يقول له: (يبدو أن نبؤتك المتعلقة بنهر الدماء قد ابتدأت تتحقق.. إن مستوى العيش قد أخذ يتفاقم في هذه المدينة وهذا ما يجعلني أشعر بالرعب!).

والواقع أن كلمات حنيف تلك كان لها ما يبررها إذ أن قتل الملونين والتمثيل بجثثهم أصبح ظاهرة تلفت الانتباه في الآونة الأخيرة، وبالمقابل فإن السلطات أصبحت تساهم في تأزيم المشكلة باتخاذ إجراءات حازمة ضد الملونين من خلال توقيفهم والتحقيق معهم بحثاً عن مهاجرين متسللين. وقد انتشرت في أرجاء المدينة قصة صلاح الدين شمشا الذي أخذوا يسمونه تسميات مختلفة مثل ملك الخارجين على القانون أو بطل العرقية شاندار من قبل بعض المتطرفين.. كل هذا في حين كان صلاح الدين شمشا في الملحق يكبر ويتضخم وينتشر!.. كان يختزن في أعماقه شحنات هائلة من الكراهية والمشاعر الحاقدة وأصبح لديه الاستعداد لأن يتجاوز حجمه وإمكانياته وليتحول إلى كائن مجرد من الإنسانية..

كائن القوة يمتلئ بالغضب وبالطاقة، وكان يحاول أن يجد إنساناً يحمله مسؤولية ما ألمّ به.

وابتدأ يحلم، وأصبح لأحلامه وجه وشكل وكان يطير ويقترب من هدفه بصورة صبيانية ولكنه كان واثقاً من أنه في يوم من الأيام سيسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية.

أتى حنيف جونسون إلى مقهى شاندار وهو يعلن على الملأ أن السلطات اعتقلت أوهور ويمبا بتهمة ارتكاب جرائم القتل التي حدثت في الآونة الأخيرة.. وأن هناك أقاويل تتردد حول أنهم سيلصقون به تعاطي السحر الأسود أيضاً. واختتم حنيف كلامه متوجهاً إلى سفيان بالقول: (من الأفضل لك أن تقفل أبواب فندقك جيداً هذه الليلة.. فلا بد أن يقع بعض أعمال العنف).

وكانت أناهيتا سفيان قد أخبرت والدتها بعلاقة ميشال بحنيف جونسون.. فلم تطق الأم صبراً وحملت سكيناً من سكاكين المطبخ وتوجهت بها إلى ميشال التي ردت عليها بعدة ركلات وضربات دفاعاً عن النفس.. في حين لم يملك الأب سفيان أكثر من أن يخاطب حنيف جونسون وهو على وشك البكاء ويقول له: (اخرج من هنا، ابتعد يا حنيف يا صديقي) ورد عليه حنيف: (سأخرج ولكنني لن أسكت عليكم أنتم الذين تدعون التعصب الأخلاقي ومع ذلك تجمعون أبناء بلدكم لتجمعوا الثروات وتكدسون المال على حساب بؤسهم وشقائهم). وفوجئ الجميع بميشال تحزم حقائبها وتتأهب لمغادرة المكان وهي تقول: (سأغادر أنا أيضاً.. ولا تحاولوا أن تمنعوني من ذلك).

عند ذلك كانت هند تحدث نفسها قائلة: (هذا هو الثمن الذي ندفعه لقاء إيوائنا لملك الظلام وراحت ترجو زوجها بأن يبحث عن السبب الحقيقي في كل هذه المآسي وتقول له: (لو أن ذلك الشيطان شمشا يرحل.. لعدنا إلى ما كنا عليه من السعادة والاستقرار).

وفجأة كان هناك من يهبط السلالم متوثباً وهو يغني بصوت أجش كلمات لم يفهمها أحد. ذلك أن ميشال كانت قد ذهبت برفقة حنيف إلى الملحق واصطحباه معهما. وكان شمشا قد تضخم بحيث أصبح طوله يزيد على ثمانية أقدام وكانت تتصاعد من خياشيمه سحب من الدخان بألوان مختلفة ومتعددة.. ولم يكن يرتدي أية ملابس وكانت عيناه حمراوين من تشوبهما الغيرة، سألته ميشال: (إلى أين تمضي؟ هل تعتبر أنك تستطيع أن تخرج إلى الشارع وتسير فيه لمدة خمس دقائق وأنت بهذه الوضعية؟) وقف شمشا هنيهة وتأمل جسده وذلك الانتصاب الهائل يبرز من بين ساقيه.. وما لبث أن قال بصوت مزمجر: (هناك شخص أريد أن أعثر عليه وأقابله) ردت عليه ميشال: (تمالك نفسك.. فسنحاول أن نجد طريقة لمساعدتك).

على بعد ميلين من مقهى شاندار كان هناك نادي يسمى نادي الشمع الساخن، وكان ذلك مزدحماً من داخله بالأضواء والسوائل والمساحيق والأجسام الإنسانية الراقصة الراعشة.. وكان صاحب ذلك المكان هندياً.. وكان ذلك بادياً من تقاطيع وجهه. ولكنه لم يكن يعرف الهند.. كان رجلاً ولكنه في الوقت ذاته ذو تقاطيع ملونة.. وكان اسمه بينكا والي.. وانطلقت صيحات من أعماق

المكان تقول: (لقد حان وقت الانصهار) فرد بينكا والي على تلك الصيحات قائلاً: (من تعنون بهذه الكلمات؟ من الذي تودون رؤيته؟!) تتردد الأصوات صائحة بعدة أسماء.. لكنها بعد تتوحد جميعها لتردد اسماً واحداً دون غيره. يصفق بينكا والي بيده.. فتزاح من ورائه ستار لتخرج عربة عليها فرن يدعونه (مطبخ الجحيم) تدفعه نسوة يرتدين البناطيل القصيرة الوردية ويقفز الحاضرون ليتجمعوا حول تلك العربة لمشاهدة الأضحية التي تقدم عادة ثلاث مرات في الأسبوع ويردد الجميع بصوت منفر هيا احترقي وتحزم تلك الدمية على الكرسي الساخن ويكبس بينكا والي أحد الأزرار.. وتبدأ الدمية بالاحتراق حتى تتحول إلى شيء لا شكل له على الإطلاق.. ويصيح الحضور! لقد انتهى الأمر.

عندما لاحظ بينكا والي ذلك الكائن الذي اصطحبه حنيف وميشال صديقاه من مقهى شاندار امتلأ قلبه بالخوف.. ووقف مرتجفاً تحت عمود النور في الطريق رغم أن الجو لم يكن شديد البرودة.

وأتى حنيف وميشال ليقولا له: (إنه بحاجة إلى مكان يأوي إليه، لابد لنا من أن نفكر بمكان) فهز كتفيه بلا اكتراث وسار باتجاه الشاحنة حيث جلس إلى جوار حنيف في حين كانت ميشال تجلس مع صلاح الدين في المؤخرة محجوبين عن الرؤية وكانت الساعة الرابعة صباحاً عندما أنزل شمشا إلى ذلك النادي الليلي الذي كان خالياً من الناس. ودعه الجميع وبقي هناك وحيداً. وكانت أفكاره كلها على ذلك الوجه المختفي في أعماق مخيلته.. واتضح له أن ذلك

الوجه لم يكن سوى جبريل فاريشتا . ومن ذا الذي يلوم الشيطان ويحمله مسؤولية ما حدث سوى الملاك. سوى كبير الملائكة جبريل؟ فتح عينيه وابتدأ الدخان يتصاعد من منخريه. وكانت وجوه الدمى الشمعية حوله كلها قد توحدت في وجه واحد هو وجه جبريل كشر من ذلك الكائن عن أنيابه وأطلق زفرة طويلة أدت إلى انصهار كافة الدمى الشمعية بحيث لم يبق منها سوى ملابس مفرغة من محتواها، ركز ذلك المخلوق وتوجه بفكره كاملاً نحو خصمه. وابتدأ يشعر بإحساسات غامضة من الضغط والاسترخاء تترافق مع آلام مبرحة وصرخات حادة.. وابتدأ ذلك الكائن يترنح على أرض النادي.. حتى نام في النهاية من شدة الإعياء.

وبعد بضع ساعات جازف كل من ميشال وحنيف وبينكا والي بالدخول إلى النادي ليفاجأوا بفوضى تشمل المكان وخراب هائل تعرض له الأثاث هناك وقد انصهرت كافة الدمى وتحولت إلى ما يشبه الزبدة. وفي منتصف المكان كان ينام السيد صلاح الدين شمشا بعد أن استعاد شكله الأصلي.. عارياً تماماً، لم يكن هناك ما يستنتج سوى أنه تمكن من تحقيق هذا التحول بتركيز طاقتها لمخيفة على الكراهية، وفتح عينيه فاتضح أنهما مازالتا حمراوين متوهجتين..

كان والد آليلويا، (أوتو) واليكجا كون، مهاجرين بولنديين يهوديين وكان الوالد بالذات أوتوكون أحد الناجين من معسكرات الاعتقال والتعذيب النازية، وكما أنه كان من الذين يكرهون الشيوعية.. وهذا ما جعله يتصرف في بعض الأحيان بطريقة

متطرفة محرجة وخاصة في أعياد الميلاد، التي كان يحتفل بها على أنها طقس من الطقوس البريطانية.. وبأسلوب صاخب.. حيث كان يوقد ناراً عالية ويهيئ شجرة كبيرة ويصيح: (لقد مات المسيح، لقد قتلته بيدي..).

وعندما هبطت آليلويا من قمة أيفرست إلى المعسكر الرابع على ارتفاع 67600 قدم شعرت كما صرحت بذلك لاحقاً لجبريل: (إن إيفرست يجبرك على أن تظل صامتاً.. ذلك أنك لا تجد الكلمات المناسبة للتعبير عن تجربة الصعود إلى القمة.. ذلك الفراغ الذي تحس به هناك والذي يغلف كل شيء هو أشبه بصوت لا وجود له!!).

وكان أوتو توكون يتحدث عن ابنته آليلويا بقوله: (إنها لؤلؤة لا تثمن!) وبعد وفاته عن عمر يناهز أكثر من سبعين عاماً كانت أمها تقول لها: (لقد ورثت عن أبيك الحاجة إلى ضوابط تحد من المغالاة والتصرف في كل شيء!). وعندما نشأت العلاقة بين آليلويا وجبريل اعترفت لوالدتها وكانت والدتها تقول لها: (إن هذا الرجل ليس من انتمائك وليس من صنفك) وكانت آليلويا ترد على هذا الكلام قائلة: (ليكن، إنني لا أحب انتمائي ولا صنفي وهذه هي الحقيقة).

ترى ما الذي كان يقصده من وصوله إلى باب منزلها دون أن يكلف نفسه عناء إبلاغها بوصوله مسبقاً؟ هل كان يفترض أنها ستكون بانتظاره بذراعين ممدودتين استعداداً للاحتضان؟.. لاشك في أنه كان نجماً سينمائياً مدللاً؟ وفوجئت به ملقى عند قدميها بصورة مفاجئة تماماً غير معقولة وقد أتعبها كثيراً أن ترفعه عن

الأرض وتسند ذراعيه على كتفيها حتى يصل من المكان الذي فقد فيه الوعي حتى شقتها. وكانت في تلك الأثناء تعاني من آلام حادة في ساقيها!.

وعندما وصل إلى منزلها نام نوماً عميقاً طوال أسبوع كامل.. ولم يكن يصحو إلا لحظات قليلة لتناول شيء من الطعام وقضاء حاجاته الضرورية. ولم تكن تفلت من شفتيه في تلك الأثناء إلا كلمات قليلة من الجاهلية.. اللات.. هند.. وفي لحظات الصحو تلك كان يقاوم النوم بشدة.. وعندما جاءت والدة آليلويا لترى ذلك الرجل النائم.. زمت شفتيها بشدة وقالت: (إنه رجل تسيطر عليه قوة ما ربما يسيطر الجن على جسده وتسكنه الأشباح.. استعملي مضخة خاصة وضعيها على أذنيه.. فذلك هو المخرج الذي تفضله تلك المخلوقات) فما كانت من آليلويا إلا أن أمسكت بيد أمها.. وأوصلتها إلى الباب وهي تقول لها: (أشكرك كثيراً وسأخبرك بما يحصل).

وعندما صحا ابتدأ معها ذلك الماراتون من العلاقة الجنسية ولم يتوقفا إلا بعد أن كاد الإجهاد يجهز عليهما وأخبرها بعد ذلك أنه سقط من السماء واستمر في الحياة. فأجابته: (إنني أعرف لا تخبر أمي بذلك.. لقد حدثت لي أشياء مشابهة)!.

الجبل الجليدي هو كمية كبيرة من الماء تسعى للتحول إلى ما يشبه الأرض، والجبل الحقيقي هو قطعة من الأرض تسعى للتحول إلى ما يشبه السماء وخاصة هيمالايا وإيفرست. ولقد أخبرته آليلويا بكل شيء ما عدا شيئاً واحداً هو إنها شاهدت بالقرب من

قمة إيفرست مدينة جليدية وأطيافاً وملائكة. وشبح آخر هو شيريا بمبا لها عند هبوطهما وعودتهما إلى الأرض: (لا تحاولي مرة ثانية أن تعودي إلى هذا الجبل لأنك إذا فعلت ذلك ووطئت مرة ثانية هذا المكان فإن آلهة الجبل ستنتقم منك ومن المؤكد أنك ستموتين.. لأنها لا تسمح للفانين من الناس إلا مرة واحدة لمشاهدة وجه الله!). ولكنها رغم ذلك كانت تحتفظ بأعماقها برغبة في تنفيذ ما فشل فيه قبلها موريس ويلسون.. ألا وهو الصعود إلى القمة وحيدة!.. ومما لا تعترف به لجبريل هو أنها رأت موريس بعد عودتها إلى لندن أكثر من مرة.. كانت تلمحه بين المداخن على أسطحة الأبنية بقبعته وزيه القديمين.

وإن ما لم يعترف به جبريل لآليلويا هو كونه ملاحق من قبل شبح ريخا ميرثانت. كانت هناك حواجز بينهما مغلقة على الرغم من كل تلك الألفة الجسدية التي نشأت بينهما. وكان كل منهما يحتفظ بسر شبح يلاحقه. وكان عالم الأحلام بالنسبة لجبريل قد ابتدأ يتسرب إلى لحظات اليقظة. وكان ذلك نذير بأن العالمين على وشك أن يندمجان ويتحدا في أية لحظة قادمة.. بمعنى أن نهاية كل شيء كانت وشيكة الحدوث وفي صباح أحد الأيام استيقظت آليلويا لتجده مستغرقاً في قراءة نسختها من كتاب بابك (أزواج النعيم والجحيم) والذي كانت قد وضعت خطوطاً تحت بعض عباراته.. ومن تلك العبارات: (إن هناك فكرة قديمة مفادها أن العالم سيكون عرضة للاحتراق والتلاشي بعد أن يمضي عليه ستة آلاف سنة..

وهـذه الفكـرة صـحيحة تمامـاً ولقـد سمعـت أصـدائها تـتردد في الجحيم).

أبرز لها صورة لامرأة ميتة وسألها: (من هي هـذه الصـبية) لقـد كانـت صـورة شـقيقتها ليليـان الـتي وضـعتها في الكتـاب ونسـيت كـل شـيء عنـها. وكانـت تلـك الشـقيقة مدمنـة علـى رؤيـة الأطيـاف والخيالات، أجابته: (أعد تلك الصورة) وبدا القلق والحـزن واضحاً على وجهها في تلك اللحظة فحاول جبريل الترويح عنـها قـائلاً: (إذا كانت الخليقة قد بدأت في عام 4004 قبل الميلاد فمعنى ذلك أن النهاية حسب ما يقوله بلاك ستكون في عام 1996 وهذا يعني أنه ما يزال أمامنا وقت طويل نستمتع به بالعواطف)! صاحت به وهـي تهـز رأسـها: (توقـف عـن ذلـك). فتوقـف ولكنـه تـابع يقـول: (إذاً أخبريني عن صاحبة تلك الصورة). اجتاحت ليليان لندن كالعاصفة وهي في العشرين من عمرها بقامتها الطويلة التي تبلغ ستة أقدام، وهي تعلن على الملأ أن الكرة الأرضية بكاملها ملك لها وحدها. ولم تكن مدينة لندن سوى مركز تلك الكرة الأرضية وكانت أيلينا تسـبح في لندن كما تسبح السمكة في الماء ومع ذلك فقد ماتت في الحادية والعشرين من عمرها بعد أن غرقت في حوض الحمام! هـل يمكـن للإنسـان أن يغـرق في المـاء إذا كـان هـو مـن طبيعـة مائيـة؟ وكانـت آليلويا تتساءل دائماً هل يمكن للإنسان أن يختنق في الهواء؟ وكانـت آليلويـا في ذلـك الحـين بـين الثامنـة عشـرة والتاسـعة عشـرة مـن عمرهـا.. وكانـت تحسـد شـقيقتها ليليـان علـى ثقتـها الزائـدة عـن الحد بنفسها.. تـرى مـن أي عنصـر كانـت تلـك الفتـاة مكونـة؟! لقـد

عرفت شيئاً عن الأذى الملم بدماغها؟ ولكن ليليان كانت دائماً تردد أن خلايا الدماغ لا يمكن أن تصاب بأورام التلف لأنها قادرة على التجدد .. ولكن الموت أتاها بالسهولة نفسها التي جاءت بها الحياة إليها!.

صحبت إيلينا شقيقتها مرة إلى إحدى حفلات المساء التي كانت دعيت إليها في أوساط النبلاء.. وقد ابتعدت آليلويا في خلسة من شقيقتها .. وبعد أسبوع صارحت أختها بأنها لم تعد عذراء. وعندئذ صفعتها ليليان على فمها واندفعت تشتمها قائلة: (كان ينبغي أن أعرف بأنك تحولت إلى مومس يا لك من عاهرة شيوعية!) ذلك أن ليليان لم تسمح لرجل أن يلمسها وكانت تبرر ذلك بالقول: (إنهم يفقدون الاهتمام بك بمجرد أن يفرغوا من شهوتهم في أعماقك)! ولم تعد الأختان تلتقيان إلا نادراً. وظلت ليليان ملكة المدينة العذراء حتى النهاية وقد أثبت التشريح تلك الحقيقة بعد موتها! بيد أن آليلويا قررت أن تكون النقيض بالنسبة لشقيقتها .. ولذلك فقد تعرضت لثلاث عمليات إجهاض خلال سنتين.. كانت تكره أن تخاطر بتعاطي موانع الحمل لأنها سمعت عن وفاة شقيقتها في الحمام في صحيفة تحت عنوان (وفاة عارضة الأزياء الشهيرة في الحمام).. ومع ذلك فقد وجدت آليلويا نفسها عاجزة عن البكاء. وانتشرت إشاعات عن موت شقيقتها نتيجة تعاطي المخدرات!.

أما فيما يتعلق بإصابات الدماغ فإن آليلويا كانت تعتقد أن خاطئ فيما يتصوره بهذا الشأن إذ يردد الأطباء أن الإنسان لا

يستطيع أن يستمر في الحياة دون جهاز تنفس اصطناعي على ارتفاع ثمانية ألف متر.. لأن الدماغ في مثل هذه الحالة ينفجر وتموت خلاياه بالبلايين بأقصى سرعة. ويصاب الإنسان بالنزف من عينيه.. ولكنها صعدت إلى قمة إيفرست ومعه شيريا بمبا دون ذلك الجهاز ولم تصب بأي أذى.. لعله من حسن الحظ؟. إلا أنها فيما بعد ابتدأت تحس باضطراب في ذاكرتها لدرجة أنها كانت أحياناً تنسى بعض الكلمات البسيطة.. وذات مرة استيقظت ليلاً وكان جبريل يجلس في السرير.. ووجدت نفسها توشك أن تهزه وتوقظه لتسأله: (من أنت بحق الجحيم؟ متى وصلت إلى هنا لتشاطرني الفراش؟) ولكنها استعادت ذاكرتها في الوقت المناسب وقالت لجبريل: (آمل أن تكون حالتي هذه عارضة ومؤقتة).

نشأ أول خلاف بينها وبين جبريل حين ابتدأ رجال الإعلام ومصورو الصحف والتلفزيون يلاحقونها ويلتقطون لها الصور.. وقد علقت على ذلك على مسمع جبريل: (إنني دائماً أهرب من الكاميرات ولكنها تطاردني باستمرار). رد عليها جبريل: (لنفترض أن الكاميرات توقفت عن ملاحقتك.. في مثل هذه الحالة أعتقد بأنك ستبدئين بالجري وراءها). وأثارته.. بعد فترة بقولها: (أصبح من الممكن بالنسبة لي بكل بساطة أن أتحول إلى نجمة سينمائية بعد أن تخليت أنت عن نجوميتك وتقاعدت) ففوجئت به يجيبها بغضب: (لن يكون ذلك بإمكانك إلا فوق جثتي).

كانت تدرك بأنه غيرته شديدة تلك قد تسيء إلى علاقتهما!. وتفاقم الخلاف بينهما نتيجة عوامل أخرى. كان جبريل مهملاً

مستهتراً في سلوكه في المنزل.. فكان يترك ملابسه المتسخة في أماكن غير ملائمة ويلقي بنفايات الطعام هنا وهناك. وهذا ما كان يقودها للجنون.. ورغم ذلك فقد كان دائماً يشكون من ضيق منزلها بالقول: (إنني لا أستطيع أن أمشي خطوتين دون أن اصطدم بأحد جدران هذا المنزل؟).

ومع ذلك فقد استطاعت أن تستمر في العيش معه لكنها صارحته مرة بأن عليه أن يلتزم بشطر من العمل المنزلي أو على الأقل أن يقوم بتنظيف ملابسه بنفسه. ولم يكن هذا الأمر سهلاً بالنسبة له وهو الذي اعتاد على أن يقوم الخدم بمثل هذه الأمور. وأخيراً فاجأته بأن طلبت منه بكل صراحة أنه من الأفضل له ولها أن يجد مكاناً يسكن فيه لأنها بحاجة إلى مكان أفسح تتحرك فيه.. وكان ذلك الطلب ضربة قاضية بالنسبة لفاريشتا الذي كان على قناعة جنونية قد ترسخت لديه بأنه كبير الملائكة في هيئة إنسان وليس فقط كبير الملائكة.. بل ملاك الوحي والتنزيل والذي أصبح أكثر أهمية بعد سقوط الملاك الذي هو الشيطان!.. قال جبريل لأليلويا: (يجب أن أغادر هذا المكان) لكنها تعلقت بذراعيه وقالت له: (أنسى ما قلته لك! إنني أحبك.. ثم إنني أعتقد أن صحتك ليست على ما يرام). لكنه عاندها بدافع من شعوره بالكرامة وقال: (لقد طردتني من منزلك.. ولم يعد لديك أي حق أن تتحدثي عن صحتي أو أي أمر يتعلق بي)!. قال هذه الكلمات وهرب خارجاً بسرعة! حاولت آليلويا أن تلحق به ولكن الألم بقدميها وساقيها منعها من الاستمرار فسقطت على الأرض باكية منتحبة.

وبينما كان يتجول في الطرقات على غير هدى لاحظ أن القمر كان بدراً. وعزا كل ما حصل له أن نقيضه إلى الشيطان وفي تلك اللحظة أدرك مدى الخطر الذي كان معرضاً له والذي نجا منه عندما هرب من ذلك الجحر الذي كان يجمعه مع آليلويا كون.. تلك الكائنة التي هي أكثر الكائنات زيفاً وكذباً. وتذكر أن النبي عليه السلام عندما تلقى الوحي لأول مرة شعر بالقلق على توازنه العقلي.. وأن خديجة زوجته طمأنته وأقنعته بأنه لم يكن على حافة الجنون وإنما عليه أن يصبح رسول الله! بالمقابل ما الذي فعلته آليلويا .. لقد قالت له: (إنك مضطرب.. وأعتقد أن أعصابك ليست على ما يرام) تلك الشقراء الشاحبة ذات الشعر الأبيض.. لقد استخدمت ذلك الشعر للتعتيم على روحه في لحظات الضعف تلك التي كان مبعثها الشهوات الجسدية.. شهوات اللحم والدم التي لم يكن يستطيع أن يقاومها. وتذكر تلك النصيحة التي وجهها الله للمسلمين: (يا بني آدم أتدعوا الشيطان يغرر بكم بعد أن غرر بآبائكم وأدى بهم إلى الحضيض بعد أن كانوا في جنة النعيم) وانطلق جبريل إلى زاوية من زوايا لندن المأهولة من قبل الفنانين والباحثين عن العاهرات وهناك ظهرت له ريخا ميرثانت وقالت له: (ألم يكن من الأفضل لك لو بقيت معي؟.. لو أحببتني.. كان بوسعك أن تحبني لأنني أعرف ما هو الحب؟ وليس بوسع كل الناس أن يحبوا كما أحببتك! ليس بوسع تلك الشقراء الأنانية أن تفعل ذلك) أجابها جبريل: (إنك كنت امرأة متزوجة وكنت أنا الرجل الثاني الذي تستخدمينه للتسلية). ردت عليه: (لو أنك أحببتني

حقاً لكنت تخليت عن زوجي.. لو أنك فقط طلبت ذلك!) قال: (ما كان بوسعك أن تتخلي عن أولادك المساكين الذين ألقيت بهم من ذلك المكان قبل أن تسقطي أنت).

اختفت ريخا غاضبة من خلال انفجار انتشرت على إثره أدخنة صفراء، وقد أدى ذلك الانفجار إلى تعثر جبريل وسقوط قبعته إلى جواره على الرصيف، كما أدى أيضاً إلى إصابته بالغثيان والقيء.. وراح يفكر على الأثر: (كم هو جميل ونبيل أن يتخلص الإنسان من حاجات الجسد الدنيئة!) وكان هناك شخصان يراقبانه باستغراب.. وما لبث أحدهم وهو شاب ويبدو عليه العنف أن اقترب منه بعطف وألقى بقطعة نقود في قبعته.. بينما اقتربت منه امرأة وناولته منشوراً وهي تقول له: (إن هذا يهمك!) واستطاع جبريل أن يفهم بسرعة مضمون المنشور لقد كان منشوراً يدعو إلى إبعاد السكان السود عن المدينة.. وكانت المرأة من ذوات الأفكار العنصرية.. وقد ظنت خطأ أن جبريل ملاك أبيض!.. تشرد جبريل في شوارع لندن وفي أنفاق الميترو.. وكان يقابل أشخاصاً عاديين يخاطبهم على الفور بقوله: (أنا الملاك جبريل) فيسخرون منه أو يعاملونه بازدراء كأي مجنون متشرد وعادت ميرثانت إلى الظهور وهي ترتدي هذه المرة كثيراً من المجوهرات.. وظهرت بكامل زينتها وبأبهى حلة لتقول له: (والآن يا ملاك الرب ها أنت ترى أنك منبوذ حتى من الناس البسطاء.. ولا أحد يأبه بك) ولم تأت ريخا ميرثانت هذه المرة لتسخر منه فقط وإنما لتفهمه أن كل ما ألم به ويلم به من متاعب واضحة هي من صنعها وتدبيرها وقالت له:

(ينبغي أن تتذكر جيداً أنني مت بسبب حبي لك.. وهذا يمنحني الحق في أن انتقم منك بإفساد حياتك بكاملها.. لابد للرجل أن يكابد الشقاء واللوعة إذ لا يمكن لامرأة بأن تلقي بنفسها من مكان شاهق وتنتحر.. لقد قلبت كيانك كله رأساً على عقب.. ولكنني سئمت من هذا كله! لا تنس أنني كنت دائماً غفورة متسامحة.. وكنت تحب تلك الصفة بي.. على أي حال فهناك حلول قابلة للمناقشة.. فهل تريد أن تفكر بمثل تلك الحلول، أم أنك تفضل أن تبقى مشرداً ضائعاً في متاهات العبث والجنون.. وتتحول من ملاك إلى إنسان وضيع تافه يسخر منه الناس. سألها جبريل: (وما هي تلك الحلول؟) كانت تلك الحلول هي أن يقول أنه يحبها وأن يظهر لها الحب، وأضافت: (في مثل هذه الحالة فإنني سأضع حداً لكل ما هو غير معقول بهذه المدينة وأكف عن اللحاق بك.. بحيث لا تعود تسيطر عليك فكرة التحولات تلك وستصبح المدينة هادئة تماماً. وتستطيع بعد ذلك أن تستمر في العيش مع تلك السيدة ذات الوجه الشاحب وتستعيد أمجادك كأعظم نجم سينمائي ولن أحس بالغيرة؟ كيف أحس بها وأنا إنسانة ميتة.. إنني لا أريدك حتى أن تقول إنني مهمة بالنسبة لك بالدرجة ذاتها التي تهمك بها تلك المرأة.. وتستطيع أن تعتبرني حبيبة من الدرجة الثانية، امرأة للتسلية.. ما رأيك في ذلك يا جبريل.. لا أطلب منك سوى كلمتين اثنتين!) أجابها: (امنحيني وقتاً للتفكير).

وظل طوال تلك الليلة يتجول في طرقات المدينة في حين كانت ريخا ميرثانت تطير على بساطها أمامه على ارتفاع رأسه.. حتى

وصل إلى جوار نهر وهناك جلس على مقعد وأغمض عينيه وراحت ريخا تغني له أشعاراً من نظم الشاعر فايز أحمد فايز عندما فتح جبريل عينيه في الصباح.. كانت ريخا قد تعبت من الغناء لأنها كانت قلقة وغير واثقة من إجابته عن سؤالها .. وما لبث أن فاجأها بالإجابة صائحاً: (إن هذه مكيدة.. إنك تحاولين الإيقاع بي.. ليس هناك سوى إله واحد هو الله.. لا إله إلا الله).

ولم يكن بيني وبينك أية مشاورات.. إنني لا أتعامل مع الناس بطريقة ضبابية!) وبعد ذلك رأى مجوهرات ريخا تتساقط عن جسدها وثيابها .. وما لبث لحمها أن تآكل ولم يبق منها سوى هيكل عظمي.. وانطلقت مهتاجة باتجاه الشمس وهي تطلق صرخات حادة.. ولم تعد بعد ذلك إلى الظهور إلا عند النهاية في حين عاد هو إلى التشرد في طرقات المدينة وهو يصرخ بصوت مرتفع: (إنني جبريل) دون أن يسمعه أحد!.

رجع جبريل فاريشتا إلى أعتاب آليلويا مرة ثانية وقد أصابته الكدمات والجروح والخدوش في وجهه ويديه وبعد أن استعاد وعيه وتعقله على يد رجل ضئيل الجسم مشرق الوجه الذي قدم نفسه لآليلويا متلعثماً على أنه المنتج السينمائي س. س. سيسوديان. قالت له آليلويا: (لقد كان كرماً ولطفاً منك أن ترافق جبريل إلى بيتي.. ولا بد من أن نقدم لك ما تشربه!!).

كانت والدة آليلويا أليكجا كوهن تلتهم طبقاً من السمك بنهم وقالت لابنتها: (ذلك الرجل الذي تأوينه في بيتك وتشاطرينه الفراش.. ليس بحاجة فقط إلى رعايتك الليلية له.. ويجب أن أكون

صريحة معك.. إنه بحاجة إلى حجر صحي.. إنه مصاب بالبارانويا .. بالعظام وجنون العظمة!)، وردت عليها آليلويا : (في رأيي إنه بحاجة إلى ما يتلقاه الآن.. العلاج الطبي المنتظم والدقيق.. وكثير من الراحة.. وشيء آخر لعلك نسيته أو تناسيته.. ألا وهو الحب!). قالت والدتها : (كلا لم أنسه.. ولكن هذه المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها عن إنسان يتصور أنه ملاك! وعلى أي حال أصبح يتوجب علينا أن نوجه مزيداً من الانتباه إليك!).

كان جبريل مصاباً باختلال كامل في توازنه النفسي عندما عاد به مسيسوديا إلى منزل آليلويا .. وكانت عيناه جاحظتين ويبدو عليه الرعب وكأنه بالفعل إنسان ملاحق! وهذا ما جعل آليلويا تتأثر من أعماقها وترثي لحاله! ومع ذلك فقد أصبح جبريل الآن يواجه حقيقة مرضه بشجاعة ولا يتنصل منه... وهذا ما ساعد آليلويا على أن تقدم له العون.. وكانت مصممة على إعادة التوازن النفسي إليه. وقد بدا هو متعاوناً إلى أقصى الحدود. وكان يتناول دواء مكثفاً وصفه له الاختصاصيون دون أن يعترضوا على شيء.. ولذلك فقد كان ينام زمناً طويلا! وعلق على ذلك بالقول: (لم أعد على الإطلاق أخشى النوم.. لأن ما حدث لي في اليقظة هو أسوأ بكثير مما أواجهه من أحلام أثناء النوم) وأصبح جبريل أكثر هدوءاً وأكثر ضبطاً لنفسه ولكن تلك الأحلام المتسللة كانت ماتزال تلاحقه.. وكان ما يزال يتكلم أثناء نومه في الليل مردداً بعض الآيات باللغة العربية التي لم يكن يتقنها في يقظته: (تلك الغرانيق الأولى، وأن شفاعتهن لترتجى). وقد اضطرت آليلويا إلى نسخ تلك

الآيات حسب لفظها وظلت تسأل إمام جامع بريكهول عن معناها الحقيقي. وكان أن اقشعر بدن ذلك الإمام بمجرد سماعه تلك الكلمات!.

وكان تحليل الاختصاصيين في مستشفى مودسلي هو أن جبريل بصدد إعادة تلك الحدود الفاصلة بين الحلم والحقيقة ولكن ذلك يتم ببطء وأن تلك هي بداية الطريق باتجاه الشفاء وكانت آليلويا تساعده على الخلاص على أمل استعادة ذلك الزخم المثير لعلاقة الحب التي كانت تنعم بها. وكانت تحس بأن الروابط بينها وبينه تتوطد كل يوم.. ولعل ذلك بدأ يوم رأت موريس ديسولن بين المداخن داعياً إياها إلى الموت!.

كانت حاملاً منه.. وكانت تريد ذلك الطفل! لكنها عندما انتبهت إلى أنه كان يكلف أشخاصاً بمراقبتها فقدت كل طاقة لها على التحمل.. وانبرت تكتب إليه رسالة مختصرة قالت فيها له: (أنت تقتلني بهذه الطريقة).. وما لبثت أن غادرت دون أن تودعه.. لم يحاول جبريل بعد ذلك أن يتصل بها!.

كانت الممثلة المقترحة لمشاطرة جبريل بطولة أفلامه المنتظرة هي الممثلة المعروفة بجيل بليموريا، وقد اقترح المنتجون بمن فيهم سيسوديا على أن يقوموا بحملة إعلامية ضخمة لا يذكرون فيها اسم جبريل في البداية.. بل يتركون ذلك إلى موعد إقامة حفلة كبرى على أحد المسارح حيث تكون المفاجأة.. وحتى موعد تلك الحفلة كانت الملصقات والبرامج الإعلانية في الإذاعة والتلفزيون تكتفي بتسمية البطل المقترح باسم النجم المحتجب. وقد وافق على ألا

يظهر جبريل بوضوح حتى يدخل إلى ذلك المسرح وذلك بأن يموه وجهه ببريقع أو أي شيء من هذا القبيل!. وتم كل شيء كما خططوا له. وقد قامت قيامة الناس في ذلك المسرح عندما ظهر جبريل على المسرح بشكله الحقيقي دون تمويه ليعلن على الملأ بصوت مرتفع قائلاً: (اسمي هو جبريل فاريشتا).. وترك الناس مقاعدهم وهرعوا باتجاه المسرح وهم بحالة هياج تام.. وكانت المفاجأة عندما كان أول من وصل إلى المسرح هو شخص سبق لجبريل أن قابله.. وقد قال له ذلك الشخص (هل تتذكرني يا جبريل؟ إنني مسلمة ذو الأصابع الستة.. لقد احتفظت بسر حضورك بيننا.. ولكنني صرحت للناس بأن الرب تجسد وعاد إلينا وكنت دائماً أبشر بأن كل اعوجاج سيقوم، وكل ما هو مضرب سيسوى).

دفع الحراس الشخصيون الموكل إليهم أمر حماية جبريل بعيداً عن تدفق الناس واندفاعهم.. وبرزت الصحف في اليوم التالي لتعلن أن جبريل خرج من ذلك المكان المزدحم واختفى في مكان غامض إذ أن المركبة التي كان من المقرر أن يستقلها ظلت فارغة.. ولاحظ آخر من رآه أن هناك هالة من النور تطلع من خلف رأسه!.. وتمكن بذلك تجار الدمى من بيع كميات هائلة من الدمى ذات الهالات المتعددة الألوان..

لقد أصبح بوسع جبريل الآن أن ينطلق ويتحرر ويكون واضحاً وصريحاً.. وأن يطلعوا أولئك الإنكليز على مقدراته الخارقة وبهذا يكون الشيطان قد سقط وانتهى أمره.. بحيث أصبح تجسيداً كاملاً ونهائياً للظلام في حين يجسد جبريل النور.. ولكن من أين

يبدأ؟ لن يتحقق له ما يريد إلا إذا أصبح الليل في دفء النهار والليل في إشراق النهار والأرض في بلل البحر.. وفكر جبريل في أن ذلك لا يمكن إنجازه إلا إذا أصبحت لندن في دفء المدن الاستوائية وانطلقت في أجوائها طيور كتلك الطيور التي في أدغال خط الاستواء!!.

واستعاد جبريل فاريشتا وعيه ليجد نفسه ملقى على أعتاب آليلويا كون يستعطفها ويتوسل إليها أن تغفر له.. ويبكي قائلاً: (يا إلهي.. لقد حدث لي ذلك مرة ثانية.. نقلته إلى المدير حيث غرق في سبات عميق على الفور وحلم بأنه يطير بسرعة متوجهاً من مدينة لندن الجميلة باتجاه مدينة الجاهلية ذلك أن رعباً حقيقياً دمر ذلك الجدار الذي كان بصدد إقامته بين الحلم والحقيقة. واتصلت آليلويا بوالدتها تعلمها بعودته وقالت لها والدتها على الهاتف: (عليك أن تكوني معقلة هذه المرة يا آليلويا.. وليس أمامه هذه المرة إلا المصحة العقلية). أجابتها آليلويا: (إنه الآن نائم وسأنظر في الأمر عندما يستيقظ) ردت عليها والدتها: (على أي حال.. إنها حياتك وأنت حرة التصرف بها وبالمناسبة أليس هذا الجو الحار الذي يسيطر على لندن يستدعي الانتباه؟).

الفصل السادس

العودة إلى الجاهلية

عندما رأى الشاعر بعل دمعة بلون الدم تطفر من العين اليسرى لتمثال الآلهة اللات، وأدرك أن ماهاوند في طريقه للعودة إلى مدينة الجاهلية منتصراً ظافراً.. بعد أن نفي مدة ربع قرن من الزمن، وكان الشاعر قد أصبح خلال هذه المدة في الخمسين من عمره.. وغدا ثقيل اللسان.. بطيء الحركة على النقيض تماماً مما كان عليه في شبابه.. ولكن ماهاوند أيضاً تغير بعدأن أصبح بدوره في الخامسة والخمسين.. بيد أنه أصبح الآن أكثر قوة ونفوذاً مما مكنه من فرض الحصار على مدينة الجاهلية وقطع الإمدادات عنها ومنع الحجيج والقوافل من النفوذ إليها .. بحيث أصبحت أسواق مدينة الجاهلية يرثى لحالها .. الظاهرة الوحيدة التي لم تتغير كانت هي تلك المرأة هند .. حيث بقي قوامها متماسكاً ووجهها نضراً وشعرها أسوداً فاحماً لا يعتريه الشيب.. وظلت كما كان الناس يتناقلون عنها تتمتع بتلك القوة السحرية التي مكنتها من التسبب بالأذى والمرض لمن لا يحترمونها ولا ينحنون عند مشاهدة هودجها يمر في الطريق العام.. وقد انضمت تلك المرأة في إحدى المعارك إلى المقاتلين من أبناء الجاهلية متنكرة بهيئة رجل.. وظلت تبحث عن حمزة عم النبي، قاتل أشقائها .. حتى وجدته وذبحته وأكلت قلبه وكبده فمن ذا الذي يجرؤ بعد ذلك كله على الوقوف في وجهها أو معارضة إرادتها .. وهي التي كانت بالإضافة

إلى ذلك تحكم المدينة بعد أن شاخ زوجها وأصبح والدها ضعيفاً وصل بعل في إحدى الليالي إلى بيته المتصدع الخاوي.. وعندما فتح الباب ودخل.. فوجئ بشخص يتبعه ويسقطه أرضاً والدماء تنزف من أنفه!.. وزحف مرتعد الفرائض باتجاه الجدار وهو يرجو ذلك الرجل بألا يقتله في حين أغلق الشخص الآخر الباب.. ووجهه مغطى بطرف عباءته قال له بعل مستعطفاً متوسلاً: (ليس لدي أي مال بل ولا أي شيء).. رد عليه الملثم: (عندما يجوع أحد الكلاب فإنه لا يبحث عن الطعام لدى كلب مثله) قال له بعل: (أن ما يأتي إلى بيت شاعر مثلي لا يجد فيه خيبة الأمل). تجاهل الغريب تلك الكلمات وفاجأه بالقول: (يجب أن تعلم أن ماهاوند في طريقه إلى مدينة الجاهلية) أجابه بعل: (وما علاقتي أنا بذلك؟ ما الذي يريده ماهاوند مني؟ إن كنت قد هجوته فإن ذلك كان قبل دهر من الآن. ترى هل أرسلك هو إلي؟) أجابه الرجل: (ذاكرة ماهاوند لا تخونه.. ومع ذلك فلست رسوله إليك! وإنما أنا وأنت تجمعنا حالة واحدة.. إذ إننا كلينا خائف منه) سأله بعل: (وهل أعرفك أنا؟) قال: (نعم) قال بعل: (أعتقد أنك أعجمي وهذا ما تنبئ به لكنتك الهجينة.. لابد وأنك المهاجر سليمان الفارسي) رد عليه: (بل أن سلمان لا سليمان) قال بعل: (لقد كنت واحداً من أقرب المقربين إليه، أجابه سلمان: (إن كنت قريباً من المشعوذ فإنك تدرك ألاعيبه وحيله أكثر من سواك).

حلم جبريل بما يلي أيضاً:

أخبر سلمان الشاعر بعل بأن أتباع دين الخضوع الإسلام عندما وجدوا أنفسهم في واحة يثرب فقراء منقسمين.. فقد راحوا يهاجمون قوافل الأغنياء من مدينة الجاهلية.. ويسلبون بضائعهم.. ولم يعترض ماهاوند على ذلك لأن الغاية عنده تبرر الوسيلة لكنه بعد ذلك وجد نفسه مضطراً لسن القوانين والتشريعات بحيث بالغ بذلك كثيراً ووضع القيود والقوانين التي تحدد حتى أتفه المسائل مثل: ماذا يفعل الإنسان إذا ضرط؟ وأي يد يستخدم في تنظيف مؤخرته؟ ولم يعد للإنسان أية حرية في أن يفعل أي شيء! فقد نزل الوحي محدداً الكمية التي ينبغي أن يأكلها المؤمن من الطعام وطريقة النوم.. والأوضاع التي عليه أن يتبعها في ممارسة العلاقات الجنسية ومع ذلك أن ماهاوند أخبر أتباعه أن اللواط والوضعيات الخلفية من الأمور المقبولة عند كبار الملائكة وكذلك فإن جبريل حدد الموضوعات التي يسمح للناس بتبادل الأحاديث حولها والأمور المحرم التعرض لها.. وبلغ به الأمر أن عين أجزاء الجسم التي يجوز حكها والأجزاء التي يمنع لمسها حتى لو تعرض الإنسان للجنون إذا لم يحكها وأخبر سلمان بعل بأن الوحي كان ينزل دائماً بإجابات عن الأسئلة الملحة التي يطرحها المؤمنون وفي الوقت المناسب الذي غالباً ما يكون اليوم ذاته الذي طرحت فيه تلك التساؤلات.. وأن النبي عينه كاتباً للوحي لكونه متعلماً وأنه كثيراً ما كان يكتسب ما يشاء ويعدل في ما يقوله له ماهاوند ويأمره بكتابته.. ورغم ذلك فلم يتح لماهاوند أن يرتاب في أمره لأن يثرب كانت عرضة لهجمات

الجاهلية.. وفي إحدى المرات عندما كان جيش الجاهلية يتقدم باتجاه يثرب لمعاقبة أولئك الذين يعترضون قوافلهم ويسطون عليها. وأخبر سلمان بعل بأنه أنقذ يثرب من الدمار.. كما أنقذ عنق ماهاوند نفسه من أن يدق على أيدي الجاهلية.. وذلك بأن اقترح عليه أن يحفر خندقاً عريضاً وعميقاً حول واحة يثرب التي لم يكن لها أسواراً تحميها.. حيث لا تستطيع أكثر الخيول أصالة وقوة أن تقفز فوق ذلك الخندق.. وبذلك انهزم جيش الجاهلية بعد أن أصر فرسانه على اجتياز ذلك الخندق فتعرضوا بذلك للرماح المغروسة في أعماقه.. وأضاف سلمان مخاطباً بعل: هل تظن أنني اعتبرت بعد ذلك بطلاً بنظر ماهاوند وأتباعه؟ أبداً، فالوحي لم ينزل بعبارة ثناء واحدة تخصني.. وأكثر من ذلك فإن بعض المؤمنين اعتبروا نصيحتي بحفر الخندق على أنها حيلة رخيصة.. وأن الأمر كله كان انتقاماً من رجولتهم.. واستهتاراً بقدراتهم على المواجهة!!. وقد فقد أهالي يثرب كثيراً من رجالهم في المعارك بينهم وبين أهالي الجاهلية وبذلك فقد نزل الوحي، يوجب على الرجال الزواج من أكبر عدد ممكن من النساء والأرامل. ولكم كان كبير الملائكة واقعياً بهذا التشريع!. وعند هذه النقطة أخرج سلمان من طيات عباءته زجاجة من الخمر اندفع كلاهما يحتسيها في الضوء الباهت الذي كان ينير أرجاء المنزل الخاوي. وتابع حديثه قائلاً: بأن الوحي أباح لهم الزواج من أربع نساء ولكم أسعد ذلك التشريع سكان يثرب!! أما ما أنهى العلاقة بين سلمان وماهاوند فهو النساء ومسألة الآيات الشيطانية! والمشكلة في ماهاوند أنه غير سوي في علاقاته

مع النساء فهو يتزوج إما من أم مثل زوجته أولى من ابنة مثل عائشة وأسر سلمان لبعل بحقيقة التعديل التي كان يقوم بها على كلمات الوحي. وقال لقد اختبرته في بادئ الأمر بتحريفات ضئيلة الشأن فإذا قال لي: السميع العليم. كتبت الحكيم فانتبهت إلى أنه لم يكن يلاحظ تلك التحريفات عندما أعيد عليه ما كتبت.. مما شجعني على تحريفات أهم وأكثر خطراً.. وكانت كلماتي التي أؤلفها تختلط مع تلك التي يمليها علي ماهاوند على أنها منزلة! فأي وحي هذا! وعندما أملي علي مرة أخرى كلمة (النصارى) كتبت (اليهود)، أعدت عليه ما كتبت فأومأ بالموافقة وشكرني بكل تهذيب!! ولهذا كله فقد اكتشفت أنني إنما أؤمن بكذبة كبيرة.. وليس أمر على الإنسان من شعور كهذا!! ولكني لاحظت مؤخراً أنه ابتدأ يشك بي بحيث أصبح لا يوافق بسرعة عندما أعيد على مسامعه ما كتبته عندئذ عرفت أن أمري انكشف عنده وأنه عرف كل شيء! وأصبح لابد لي من الاختيار بين الحياة والموت ولقد اخترت الحياة.. وها أنا كما تراني الآن في مدينة الجاهلية.. إلا أنني أعلم أن ماهاوند قادم إليها منتصراً ولابد أنه سيلطف بي أخيراً!. سقط على الأرض فاقد الوعي.. بينما كان بعل يستلقي على حصيرة وهو يحس بألم عظيم في رأسه وخفقان في قلبه.. وراح يفكر بأن كل الناس يعرفون حكاية تلك القصائد التي ألفها في هجاء ماهاوند وأنها كانت مفروضة عليه كتابتها بالقوة من قبل عظيم الجاهلية.. ولابد أن ماهاوند سيفهم ذلك، ولذلك فقد وكز

سلمان صائحاً به: استيقظ يا سلمان أنني لا أحب أن يقترن اسمي باسمك.. قد تسبب لي المتاعب!!.

حلم جبريل بنار توقد في معسكر:

وفي إحدى الليالي وصل إلى المواقع التي يتمركز فيها جيش ماهاوند رجل لم يكن متوقعاً منه أن يصل إلى هناك وذلك هو عظيم الجاهلية وقد قاده خالد السقاء والعبد بلال إلى خيمة ماهاوند بعد ذلك حلم جبريل بعودة عظيم الجاهلية إلى بلده.

وكان هناك جمهره أمام منزله وقد سمع الناس صوت هند يهدر غاضباً.. وظهرت هند بعد ذلك على الشرفة وخاطبت الناس مطالبة إياهم بقتل زوجها وتمزيقه إرباً إرباً! وما لبث عظيم الجاهلية أن ظهر إلى جوارها فانهالت عليه ضرباً وصفعاً ذلك أنها اكتشفت أنه أعلن تسليم المدينة لماهاوند على الرغم من تحذيراتها ومعارضتها، والأسوأ من ذلك أن أبا سنبل قد اعتنق الإسلام!.

وتماسك أبو سنبل ليخاطب الناس بهدوء فقال لهم: لقد وعد ماهاوند بأن من يدخل بيتي فهو آمن، لذلك فإن بوسعكم أن تأتوا جمعياً أنتم ونساؤكم وأطفالكم! ردت عليه هند على مسمع من الناس: كم من الناس يستطيعون اللجوء إلى هذا البيت أيها الأحمق؟ لقد قمت بعقد صفقة رخيصة الغاية منها أن تنجو بنفسك ولذلك فما على هؤلاء الناس إلا أن يمزقوك ويلقون بك طعاماً للنمل!. لكن أبا سنبل لا يستمع إليها ويتابع مخاطبة الناس بالهدوء نفسه: (لقد قال ماهاوند أيضاً بشأن كل من يدخل إلى بيته ويغلق بابه فهو آمن. وما عليكم إلا أن تدخلوا إلى بيوتكم

وتنتظروا فيها) انفجرت هند بعاصفة مدوية من الغضب وأخذت تصيح: لن يكون هناك سلام مع ماهاوند وأنا واثقة من أن الناس سيواجهونه وسيقاتلونه حتى آخر رجل فيهم. بل وحتى آخر امرأة.. وأنا على استعداد للقتال حتى أموت في سبيل حرية مدينة الجاهلية. هل ستستسلمون لهذا النبي الزائف الدجال. غير أن الناس قد ابتدأوا بالرحيل والتوجه إلى بيوتهم تاركين هند وزوجها وحيدين على شرفة منزلهما ويخيم الصمت المطبق على مدينة الجاهلية! وتغمض هند عينيها وتستند إلى أحد جدران قصرها، بينما يغمغم أبو سنبل وهو يخاطبها قائلاً: (إذا كان لإنسان أن يخشى ماهاوند أكثر من الجميع فهو أنت يا هند.. إنك أنت التي أكلت أحشاء عمه المجدوب دون ملح أو خل! فلا تعجبي إذا تعامل ماهاوند معك بالطريقة ذاتها).. بعد ذلك تركها وحيدة وهبط إلى الطرقات التي أصبحت خالية حتى من الكلاب ومضى ليفتح أبواب المدينة!.

حلم جبريل بمعبد:

وقال ماهاوند لخالد: (أمض أنت لتنظيف هذا المكان من الأصنام) وعندما رأى حارس المعبد خالد يتقدم مع مجموعة كبيرة من جنده مضى إلى تمثال الآلهة العزى وعلق سيفه في عنقها قائلاً: (إذا كنت حقاً الآلهة فدافعي عن نفسك وعني ضد ماهاوند القادم إلينا) لكن الإله لم يتحرك عندما دخل خالد إلى المعبد فما كان من الحارس إلا أن قال: (الآن أدركت تماماً أن إله ماهاوند هو الإله الحق وما هذه الأصنام إلا مجرد حجارة) وبعد أن دمر خالد

الأصنام عاد إلى ماهاوند الذي سأله: (ماذا وجدت؟) أجابه خالد: (لاشيء) رد عليه ماهاوند: (إذا أنت لم تدمرها بعد، عد وأكمل ما بدأت به وعندما عاد خالد إلى المعبد المتهدم وجد امرأة هائلة الحجم سوداء اللون يتدلى لسانها القرمزي ويزحف باتجاهه وينساب شعرها الأسود الفاحم حتى كاحلي قدميها تخاطبه بصوت رهيب: (أرأيت اللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى.. إنهن من الطيور الأعلى) قاطعها خالد قائلاً: (أيتها العزة هذه آيات شيطانية وإنما أنت إحدى بنات الشيطان.. ونحن لا نعبدك بل نكفر بك) واستل سيفه وضربها به ليجهز عليها.. وعاد بعد ذلك ليخبر ماهاوند بما رآه عند ذلك قال ماهاوند: (الآن يمكننا أن ندخل إلى مدينة الجاهلية باسم العلى الأعلى قاهر الرجال).

بعد تدمير الأصنام يقيم ماهاوند خيمة له في ساحة السوق القديمة، ويتوافد سكان الجاهلية لينحنوا أمامه وهم يرددون عبارة: لا إله إلا الله. ويهمس ماهاوند بإذن خالد: (هل هناك رجل يأتي لتقديم الولاء هو سلمان الذي مازلت بانتظاره منذ زمن! ألم تعثر عليه؟) يجيبه خالد: (ليس بعد.. إنه مختبئ.. ولكن ذلك لن يستمر طويلاً..) وما تلبث أن تبرز من بين الصفوف امرأة ملثمة.. تنهار على قدمي ماهاوند وتندفع في تقبيلها بحرارة وهي تقول: (لا إله إلا الله ماهاوند نبي الله)!. لكن النبي يمنعها من تقبيل قدميه قائلاً: (هذا لا يجوز) وتميط المرأة اللثام على وجهها ويخيم الصمت. تلك هي هند. يقول لها ماهاوند (إنني لم أنس ما فعلته.. ولكنك أسلمت.. فأهلاً بك في خيامي).

وفي اليوم التالي يجر سلمان الفارسي إلى خيمة النبي من قبل خالد الذي كان يمسكه من إذنه وهو يشهر سكيناً باتجاه عنقه. ويقول خالد: (لقد ضبطته عند إحدى العاهرات التي كانت تعنفه لأنه لم يدفع لها المال الذي تطلبه.. وكانت رائحته تفوح بالخمر!) وشرع النبي يصدر عليه حكمه بالإعدام.. لكن سلمان اندفع يزعق، فقال له النبي إن ما فعلته ياسلمان لا يمكن غفرانه.. هل كنت تتصور إنني لم أنتبه إلى ما كنت تفعله!! لقد أبدلت كلمات الله بكلماتك. أقسم سلمان على أنه سيتوب عن معصيته، وعلى تجديد الولاء وفي الوقت ذاته عرض على النبي أن يرشده على مخابئ أعدائه الحقيقيين! وعندما سأله ماهاوند عن أسماء هؤلاء الأعداء أجاب بأنه سيرشده إلى مخبأ الشاعر بعل! وبذلك لم ينفذ بسلمان حكم الإعدام وهذا ما تسبب بكثير من خيبة الأمل لدى خالد الذي كان رافقه إلى المنزل الذي كان يقيم فيه بعل.. ولكن خالد عاد بعد زمن ليخبر النبي بأنه لم يجد بعل في منزله.. ووعد بأن يعثر عليه في أسرع وقت وبأي ثمن.

خضعت مدينة الجاهلية لأسلوب الحياة الجديدة، حيث تقام الصلوات خمس مرات في اليوم وتمنع الخمور وتحتجز الزوجات في منازلهن، حتى هند نفسها اضطرت للاعتكاف في بيتها ولكن أين كان بعل؟

حلم جبريل بالحجاب: والحجاب هو اسم أحد أكبر وأشهر المواخير في مدينة الجاهلية. وهو عبارة عن قصر شيد بين أشجار، وكان يحتوي على ساحات تتدفق فيها نوافير المياه.. وكانت تلك

الساحات محاطة بمخادع تنفذ إلى ممرات صممت عن عمد بحيث تكون جميعها متشابهة تماماً من حيث الزخارف وألوان السجاد، وبحيث لم يكن أي من زبائن ذلك الماخور يستطيع الاهتداء إلى الجهة التي يقصدها دون مساعدة سواء في حالة الدخول أم في حالة الخروج وبهذه الطريقة كانت تتم حماية الفتيات من الزوار غير المرغوب فيهم وبالتالي يضمن دفع المبالغ المترتبة على الزبائن.. وكان يتم توجيه الداخلين بجعلهم يمسكون كرة من الخيوط التي يمسك بطرفها الآخر ذووا جثث ضخمة من الشراكس وكان المكان بأكمله يتم بالإشراف عليه من قبل سيدة الحجاب التي كان يطيعها كل من في الماخور طاعة عمياء!.

ولقد وصل إليها بعل ذات يوم طالباً منها إيوائه وحمايته وإنقاذ حياته.. وإكراماً منها لذكرى شبابه الغض الذي تتذكره جيداً، فقد وافقت السيدة على طلبه.. وعندما وصل جنود خالد يبحثون في أرجاء المكان قادهم الخصيان في ممرات أشبه بالمتاهة مما جعلهم يشعرون بالدوار ويخرجون من المكان وهم يشعرون بالخيبة. وبعد ذلك أمرت السيدة الخصيان بأن يصبغون جلد الشاعر وكذلك شعره وأمرت بإلباسه السراويل الفضفاضة وأخضعته لتمارين جسدية تساعده في تنمية العضلات بحيث يظهر شبيهاً بأحد الخصيان العاملين في الماخور ولكن إقامة بعل في ذلك الماخور حرمته من متابعة ما يجري في الخارج.. ورغم ذلك فقد استطاع تقصي بعض الأخبار من الجزار والبقال مفادها أن مدينة الجاهلية ماتزال تحتفظ ببعض عاداتها على الرغم من الإجراءات الحازمة

التي فرضها ماهاوند .. من ذلك أن كثيراً من الناس مازالوا يذبحون الخنزير ويأكلون لحمه ولكن ذلك كان يتم سراً .. ومن ذلك أيضاً أن بعض الشبان كانوا يوجهون رغم كل شيء نظرة احترام وقداسة إلى اللات والعزى الآلهتين اللتين حطم صنمهما ماهاوند .

كانت أكبر الفتيات في الماخور في حدود الخمسين من عمرها في حين كانت أصغرهن في الخامسة عشر لكن هذه الصغرى كانت على جانب كبير من الخبرة بحيث كانت تتفوق على تلك التي كانت في الخمسين.. وصادف أن وقعت هذه الفتيات في غرام بعل شأنها في ذلك شأن بقية النساء.. ذلك أنه كان من الطريف أن يكون لديهن خصي هو في حقيقة الأمر ليس خصياً . ولكن بعرض أجسادهن على مرأى منه! وتقبل إحداهن الأخرى على مقربة من وجهه حتى يتوصلن إلى تهيج رغباته التي كن عادة يكلفن إداهن بإشباعها دون مقابل.

وفي إحدى المرات وبينما كانت الفتيات يتحدثن في فترات راحتهن في النهار قالت أصغرهن: (ذلك البقال موسى أن هاجسه الوحيد هو النبي وزوجاته.. وقد أخبرني بأنني صورة طبق الأصل عن أصغر زوجات النبي التي هي عائشة والتي هي المفضلة عنده) ردت عليها المرأة الكبرى: (لاعجب في أن النبي يخفي زوجاته عن الناس، لابد أنهن جميعاً من النساء الجميلات.. وعلى أي حال فالناس يحبون مالا يرونه دائماً لأنه يثير فضولهم!).

تدخل بعل في الحديث واقترح على صغرى العاهرات أن تتظاهر بأنها بالفعل عائشة. ردت عليه الفتاة: (لا تقل ذلك لأنهم لو سمعوك فلابد أني يقلون خصيتك بالزبدة)!!!.

كان للنبي اثنا عشرة زوجة.. وكان في الماخور اثنا عشرة عاهرة.. وابتدأت اللعبة أصغر العاهرات التي راحت تدعي أنها بالفعل عائشة زوجة ماهاوند.. وقد أتقنت لعب ذلك الدور إلى حد أن البقال موسى وقع في حبائلها وصدق الكذبة.. لكن السيدة قالت لبعل: (ينبغي أن نظل حذرين.. ويجب أن نتجنب قدر الإمكان العواطف والانفعالات).

وعندما انتشرت أنباء العاهرات في أرجاء المدينة.. وأن كلن منهن تدعي أنها واحدة من زوجات النبي.. استثار ذلك فضول الرجال وأدى إلى شعورهم بالخوف من أن يكشف تورطهم في أرجاء ذلك الماخور ولذلك فقد حافظ كل منهم على سر ذلك المكان ومن فيه ولم يبلغ السلطات أي شيء عنه وكان ماهاوند قد عاد في تلك الفترة إلى يثرب هرباً من حر الجاهلية.. وترك المدينة بأمرة خالد قائد الجيش والذي كان يسهل إخفاء الحقائق عنه. ولقد أمر ماهاوند خالد بأن يحرص على إغلاق كافة المواخير في المدينة إلا أن أبا سنبل تدخل وأقنع النبي بأن مثل تلك الإجراءات يجب أن تتم بالتدريج.. حيث أن أهالي الجاهلية كانوا قد آمنوا بالدين مجدداً ولم يألفوا بعد تشريعاته الصارمة.. وقد وافق ماهاوند على اقتراح أبي سنبل بالسماح بفترة انتقائية تظل فيها الأمور على ما كانت عليه إلى أن يبدأ تطبيق القيود بصورة تدريجية.. ولهذه الأسباب

كلها فقد زاد زبائن ذلك الماخور بنسبة ثلاثة مائة بالمئة وأصبحت أصغر العاهرات عائشة هي أكثرهن في عدد الزبائن.. أما أكبرهن وأكثرهن بدانة والتي سمت نفسها سودة فكانت تدعي أنها أكثرهن زبائناً لأن رجال الجاهلية كانوا يبحثون لديها عن عاطفة الأمومة أما العاهرة (حفصة) فكانت تتميز بعصبيتها وحدة طبعها وقد كان هناك من اتخذت اسم (أم سلمة المخزومية) وأخرى اتخذت اسم (رملة) الزوجة الحادية عشر للنبي. وكذلك كان هناك من اتخذت لنفسها اسم (زينب بنت جحش).. (الجوارية) و(ريحانة) اليهودية، وصفية وميمونة، ومارية القبطية (وزينب بنت خيمة) وكانت العاهرة التي تكنت بهذا الاسم الأخير تعرف أن هذه الزوجة من زوجات النبي كانت قد ماتت.. ولذلك فإنها كانت تمارس الجنس مع زبائنها دون القيام بأية حركة لكونها ميتة. وفي نهاية العام الأول من بداية تلك اللعبة أصبحت تلك الفتيات يتقن أدوارهن إلى حد كبير وإلى درجة أن شخصياتهن الحقيقة تلاشت عبر الشخصيات الجديدة التي تقموصها. وكان بعل قد أصبح أسوأ حالاً من حيث قصر نظره وذلك الصمم الذي كان يعاني منه بحيث أنه لم يعد يرى الفتيات بأشكالها الواضحة وأصبحت أطيافهن تزدوج في عينيه.

وفي يوم من الأيام توجهت الفتيات إلى سيدة الماخور وأخبرنها أنهن بعد إتقانهن أدوارهن كزوجات النبي فإنهن أصبحن بالفعل يستحقن أن يكون لهن زوج حقيقي وذلك فإنهن أردن أن يصبحن زوجات بعل. حاولت السيدة أن تطرد هذه الفكرة من أذهانهن غير

أنها أمام إصرارهن أذعنت وأرسلت في طلب الشاعر بعل. ولقد خفق قلب بعل بشدة عندما سمع ذلك الاقتراح وكان يغمى عليه ولكنه استعاد هدوءه ووافق على الفكرة. وما كان من سيدة الماخور إلا أن قامت بتزويجه الفتيات الاثنتي عشرة. وبذلك فقد أصبح بعل هو الزوج لنساء ماهاوند!.

أوضحت له الفتيات أنهن يطلبن منه أن يقوم بدور الزوج الحقيقي بحيث يقضي يوماً مع كل واحدة منهن على التوالي.. ومن ثم فقد اقترحن عليه أن يتخذ لنفسه اسم ماهاوند حتى تكتمل اللعبة ولكنه رفض بالقول: (إن ذلك لن يكون مدعاة لفخري!).

وطلبت منه عائشة أن يتسم بشخصية قوية حتى يتكرس لدى فتياته الشعور بأنهن بالفعل زوجات لرجل قوي.. وقد أظهر ذلك أن فتيات الماخور لم يتخلصن من عقدة الدونية التي كانت منتشرة بين نساء الجاهلية وهن عاهرات!. وقد مارس بعل صلاحياته على هذه الأسس فكان يقاطع إحداهن لمدة شهر إذا قامت بما يغضبه.. كما كان يضرب بعضهن أحياناً والغريب في الأمر أنه في تلك الحالة عاد إلى تأليف الشعر وكتب أعذب أشعاره وخاصة تلك التي تغزل فيها بعائشة التي كانت ملهمته. وبعد مضي سنتين من حياته في الحجاب فإن أحد زبائن عائشة تعرف عليه وميزه على الرغم من جلده المصبوغ وزيه الغريب وكادت عائشة تفقد صوابها خوفاً عليه إلا أنه طمأنها قائلاً: (إن الأمر على ما يرام وهذا الرجل لن يسبب لي المتاعب) وكان ذلك الرجل هو سلمان الفارسي الذي أوضح سبب قدومه إلى الحجاب لبعل قائلاً: (لقد قررت مغادرة هذه

المدينة التافهة ورأيت من المناسب أن أسترق لحظة متعة قبل أن أقوم بذلك.. لقد سئمت الكذب الرسمي الذي يمارس هنا) وكانا هو وبعل يشربان الخمر المصنوع من العنب وقد أفرطا في الشرب وراح سلمان يقص على بعل حكاية الخلاف بين ماهاوند وعائشة الذي كان يسبب عدم تمكن عائشة من تقبل زواج ماهاوند من هذا العدد الكبير من النساء؟؟ فنزل الوحي يعطيه الحق في ذلك. وما كان منها إلا أن واجهته بالقول: (يبدو أن إلهك يسارع إلى نجدتك في اللحظة التي يعرف أنك فيها بحاجة إليه).

ولو أن تلك المرأة كانت غير عائشة لتصرف معها ماهاوند بطريقة أخرى. وحكاية أخرى عندما كان النبي مسافراً بصحبة عائشة وجلسوا يستريحون بالقرب من إحدى القرى النائية.. وفي اللحظة الأخيرة من تلك الاستراحة ابتعدت عائشة لقضاء حاجة.. وفي تلك الأثناء تقرر متابعة الرحلة.. وحمل الرجال محفتها الخاصة ظناً منهم أنها بداخلها.. ونظراً لنحافتها وخفة وزنها لم ينتبهوا إلى حقيقة الأمر.. وبعد قليل عادت عائشة لتجد نفسها وحيدة في ذلك المكان المقفر ولولا مرور شاب يدعى صفوان على طريق الصدفة لما عرف أحد ماذا حل بها.. لقد نقلها صفوان وراءه على الجمل حتى أدرك بها الرحلة. وبما أن صفوان ذاك كان شاباً وسيماً فقد انطلقت الألسنة تلوك سيرتها وكيف أنهما قضيا معاً ساعات وحيدين في الصحراء.. ومن جملة من ساهم بنشر هذه الفضيحة الزوجات الأخريات اللواتي كن يهدفن إلى الحد من نفوذ

عائشة وسطوتها على النبي.. أما ما فعله النبي فقد أستنزل جبريل إليه بدوره بتبرئة عائشة)!!!.

رحل سلمان الفارسي في صبيحة اليوم التالي مع القافلة التي تتجه نحو الشمال.. وفي اليوم التالي لذلك عاد ماهاوند إلى مدينة الجاهلية. ووصل الجنود لإبلاغ سيدة الحجاب بأن المرحلة الانتقالية انتهت وأن الأمر صدر بإغلاق كافة المواخير. وقد أبلغت سيدة الحجاب الفتيات بهذا الأمر مما دعا إلى اجتماع من حولها وهم يطلقن أسئلة قلقة! ما الذي سيحل بنا؟ هل سنعاني من الجوع؟ أم أننا سنوضع في السجن؟.. ولكن السيدة لم تكن تجيب على تلك التساؤلات. عندئذ تجرأت عائشة ورفعت عنها الستارة السوداء لتجد أنها قد انتحرت بتناول السم وأنها تقلصت إلى درجة أنها أصبحت بطول بضع أقدام فقط.

صاح الضابط الشاب عمر: (بما أننا لم نتمكن من الرئيسة.. فعلينا أن نعالج الأمر مع العاملات لديها) وأمر بإيقاف الفتيات ووضعن رهن الاعتقال. وقد قاومن الفتيات قدر ما يستطعن وفي تلك الأثناء كان عمر يخاطب الخصيان: (إنهم يريدون محاكمة الفتيات فقط ولذلك فإذا كنتم لا ترغبون بفقدان رؤوسكم كما فقدتم خصاكم، ما عليكم إلا عدم التدخل فيما يحدث وكان بعل يقف بين الخصيان وقد صاحت عائشة منادية إياه: (بحق الله يا زوجي ساعدنا إذا كنت رجلاً) ونظر الضابط عمر متسائلاً عمن تعنيه بكلمة (زوجي) تلك وما لبث أن اقترب من الخصيان وتفحصهم واحد إثر الآخر إلى أن توقف أمام بعل وأمسك به من

خصيتيه وراح يعتصرها .. وغامت عينا بعل من الألم.. وعندما استعاد هدوءه كانت النسوة قد أخذت إلى بعيد. وعندما رحلت الفتيات جلس الخصيان حول نافورة الحب وانطلقوا يبكون.. إلا أن بعل لم يبك رغم شعوره بالعار!.

حلم جبريل بموت بعل:

اكتشفت العاهرات الاثنتي عشرة بعد اعتقالهن أنهن نسين أسماءهن الحقيقية نتيجة لاعتيادهن على الأسماء التي اتخذنها فيما بعد. لذلك فإنهن عندما كان السجانون يسألهن عن أسمائهن لم يكن يتجرأن على البوح بهذه الأسماء.. ولم يقدمن أية أسماء على الإطلاق. وبعد الكثير من التهديدات والتلويح بالعقوبة الصارمة.. اكتفى السجانون بأن سجلوا أرقاماً بدل الأسماء مثل فتاة الحجاب رقم واحد، وفتاة الحجاب رقم اثنين وهلم جرا.. وكان يمكن أن يظل أمر أسمائهن المستعارة سراً لولا أن الشاعر بعل قد ابتدأ ينظم القصائد التي أوحت له بها تجربته في الحجاب ويلصقها على جدران السجن. ويلقيها على مسمع من الناس الذين كانوا يمرون قرب السجن ويسترقون النظر إليه وإلى المومسات. وكانت تلك القصائد رقيقة للغاية.. ذلك أن بعل اكتشف أنه كان واقعاً في حب زوجاته في الحجاب.. وكانت الأشعار مؤثرة إلى درجة أن الحراس الذين كانوا يقفون عند بوابات السجن كانوا يبكون بحرارة وبدموع غزيرة عند سماعهم لبعل وهو يلقيها. ولكن الناس الذين كانوا يستمعون إلى القصائد وينتبهون إلى أسماء النساء التي تتردد في الأشعار ظنوا أول الأمر أن التشابه بين تلك الأسماء

وأسماء زوجات ماهاوند محض مصادفة.. إلا أنهم في اليوم الثاني عشر وبعد استماعهم لآخر القصائد عرفوا أن الأمر يتضمن إهانة بالغة للنبي وزوجاته وتجمعوا حول الشاعر قرب السجن غاضبين حانقين مما اضطر السجانين إلى القبض عليه.

ولقد طلب الجنرال خالد قائد الجيش إعدام بعل على الفور.. ولكن ماهاوند فضل أن يحاكم بعل مباشرة بعد الانتهاء من محاكمة العاهرات. وقد حكم بالموت على المومسات الاثنتي عشر برجمهن بالحجارة، أما بعل فقد وقف في مواجهة النبي الذي طلب منه تقديم مبرر يسوغ آثامه وخطاياه مما دعا بعل يروي حكاية إقامته في الحجاب بوضوح وبساطة مما دعا الحاضرين في خيمة المحكمة إلى الضحك والسخرية. وفي النهاية وقف النبي غاضباً وحكم عليه بالإعدام بقطع رأسه على الفور وصاح بماهاوند وهو يتوجه إلى ساحة الإعدام: (الشعراء والمومسات هم الناس الوحيدين الذين لا تستطيع أن تغفر لهم يا ماهاوند) أجابه ماهاوند: (فعلاً.. فلا فرق عندي أبداً بين الشعراء والمومسات).

بعد تحطيم صنم الآلهة اللات، احتجزت هند زوجة أبي سنبل نفسها في برج قصرها وظلت طوال سنتين ونصف تقرأ كتباً قديمة مكتوبة بلغة لم يكن أحد في مدينة الجاهلية يعرفها.. وطوال تلك المدة لم يكن أحد يراها ولا حتى زوجها.. إذ أنها كانت تطلب من الخدم أن يتركوا لها طبقاً من الطعام عند الباب وكانت تتناوله خفية عن الجميع وتعود إلى مكان اعتكافها. وفي يوم من الأيام فوجئ بها زوجها توقظه من نومه في الصباح الباكر وتقول له:

(انهض.. فلابد لنا من الاحتفال بهذا اليوم؟) سألها زوجها وقد لاحظ أنها لن تتغير طوال كل هذا الاحتجاب: (وما الذي نحتفل به؟) أجابته: (أنه يوم الانتقام العذب).

وبعد ساعة انتشرت أنباء في المدينة أن النبي ماهاوند أصبح صريع مرض قاتل وأنه يعاني من سكرات الموت في مخدع عائشة وراحت هند تعد العدة لإقامة مأدبة بهذه المناسبة ولكن أبا سنبل رفض مشاركتها قائلاً: (لقد أكلت من قبل كبد عمه وها أنت الآن تستعدين لأكل كبده) فما كان منها إلا أن ضحكت وصرخت بالخدم الذين كانوا يشعرون بالحزن من جراء مرض ماهاوند.. وجلست تحتفل بالمناسبة وحيدة.

وحلم جبريل بموت ماهاوند:

كان النبي يحتضر.. وفي اللحظات التي كان يستعيد فيها وعيه كان يردد على مسمع عائشة الباكية: (لقد خيرت بين البقاء وبين خيار آخر.. وقد اخترت أن أتوجه إلى مملكة الله وإلى الفردوس) بعد قليل اتجهت عينا ماهاوند إلى زاوية من زوايا الغرفة التي لم تكن عائشة ترى فيها شيء وقال: (أهذا أنت يا عزرائيل؟) وسمعت عائشة صوت امرأة يجيبه: (كلا يا رسول الله.. أنا لست عزرائيل!) ورد عليها ماهاوند: (إذن فهذا المرض الذي أعاني منه هو من صنعك أنت أيتها اللات! على كل حال فأنا أشكرك على ما فعلته بي، لقد قدمت لي خيراً عظيماً).

ومات النبي بعد قليل وانطفأت الشمعة التي كانت تتقد في الغرفة. وما لبثت عائشة أن أخرجت لتجد بقية زوجاته ينتظرن

وقد خيمت عليهن الكآبة! جففت عائشة دموعها وخاطبتهن بقوة: (كل من يعبد ماهاوند فليبك لأن ماهاوند قد مات ومن كان يعبد الله فليبتهج لأن الله حي لا يموت). وكانت تلك نهاية ذلك الحلم!.

الفصل السابع

الملاك عزرائيل

توجهت ميشال إلى صلاح الدين شمشا الذي كان يستلقي وسط الفوضى المطبقة في نادي الشمع الساخن وسألته: (والآن.. ماذا تنوي أن تفعل؟) أجابها ببساطة: (أعتقد أني سأعود إلى الحياة)! ولكنها كانت كلمة يسهل قولها ولكن من الصعوبة بمكان تطبيقها.. فالحياة هي الحياة أولاً وأخيراً.. بكل تعقيداتها.. حبه لطفلة أحلامه التي اتضح أنها مجردة من الطفولة وحبه لزوجته.. تلك المرأة التي تخلت عنه لترتمي في أحضان زميله القديم في الجامعة.. ثم حبه للمدينة التي سقط فوقها من ارتفاع يضاهي ارتفاع جبال الهملايا.. فكانت النتيجة أن حولته إلى شيطان.. سألهم بنكا والي ما إذا كان يحبون أن يمكثوا قليلاً فأجابه صلاح الدين قائلاً: (عندما يسقط الإنسان من السماء ويتخلى عنه صديقه. ويقع فريسة لوحشية رجال الشرطة ويفقد عقله وزوجته.. ويكتسب المقدرة على الكراهية وهو يستعيد شكله الإنساني بعد أن يكون قد تحول إلى تيس مسخ.. فما الذي يبقى أمامه سوى أن يطالب بحقوقه؟!) ودعوا أحدهم الآخر وانطلق كل منهم إلى سبيله.

توجه صلاح الدين إلى منزله وقرع جرس الباب وعندما واجهته باميلا كانت تحس بغصة في حلقها إذ لم يكن حملها قد أصبح ظاهراً حتى ذلك الحين وعندما استفسر صلاح منها عن هذا

الموضوع احمر وجهها خجلاً وانتبه بأن الأمور على ما يرام.. وكان من الواضح أنها فقدت توازنها !! كان من الطبيعي أن تكون باميلا في موقف محرج فقد كانت هي التي بادرت إلى إبداء الرغبة بإنهاء ذلك الزواج.. وكانت أنفاسها تعبق برائحة الويسكي كما ابتدأت بعض التجاعيد تظهر حول فمها .. ولم يكن هناك أي داعٍ لأن يصرخ شمشا بأنه فقد حبه لها .. وقالت له وهي تنظر ناحية مرآتها : (أعتقد أن ما فعلته لا يغتفر؟!) رد عليها فوراً : (لا أظن أني أستطيع القول بأنني قادر على الغفران) وأضاف بعد قليل: (لنفترض أن القضاة لم يكونوا موجودين في هذا الظرف بالذات..) صمت قليلاً وتابع: (ليس أمامي سوى العودة إلى هذا المنزل.. إنه منزل كبير وفيه متسع لي سأشغل غرف الطابق السفلي وقد اضطر إلى استخدام المطبخ في حالات نادرة.. إنني أقترح هذه الأمور لأن المفترض أن الدوائر الرسمية مازالت تعتقد أنني ميت، وأنت لم تذهبي إلى المحكمة لشطب اسمي من السجلات). كانت باميلا تصغي إليه بصمت يوحي بأنها لن تناقشه في شيء مما يقوله.. ولذلك فقد أضاف قائلاً : (وبعد فترة من الزمن نبيع هذا المنزل وتحصلين على الطلاق).. وبعد تلك الكلمات اندفع خارجاً من تلك الغرفة بأقصى سرعة قبل أن يترك لها فرصة لتقول أي شيء.. صعد إلى غرفته وظلت باميلا في الطابق السفلي.. وربما كانت تبكي.. وفي تلك اللحظات كان قلبه يخفق بشدة.

كثيراً ما كان صلاح الدين يكرر على مسامع باميلا أيام كانا معاً حكمة تقول (لا يستطيع الإنسان أن يقدر إصابة أحد الجرحى من

المظهر الخارجي للجرح).. ولذلك فما كان يتوقع من أحد أن يفهم معاناته أو حتى أن يتعاطف معه.

ولقد مكث ساكتاً في عرينه في الفترة الأولى محاولاً التكيف معه مرة ثانية.. وأمضى معظم وقته في مشاهدة التلفزيون.. وكان في الوقت نفسه يفكر فيما حل به.. ولقد تضائل عداؤه لجبريل ولم تبدو عليه أية بوادر تدل على أن تلك القرون والأظلاف ستعود إلى الظهور. وكان شفاؤه تاماً وكانت حالته آخذة بالتحسن.

شيئاً فشيئاً ابتدأ يقوم بجولات خارج المنزل، ويراجع فيها المحامي والمستشارين القانونيين والماليين.. وأنبئهم بأن اختفاءه كان نتيجة إصابته بالانهيار من جراء التعب، وابتدأ يعمل ما في وسعه لاستعادة أحاسيسه القديمة من خلال حضوره للحفلات الموسيقية وجولته على الصالات وقاعات الفنون التشكيلية! وابتدأ تفاؤله يتنامى.. وأوعز للمصارف التي كان له فيها بعض الإيداعات بأن تعيد فتح حساباته.. وكانت تلك الإجراءات تتم ببطء مما جعله يضطر للاقتراض من باميلا!!.

كانت هناك امرأتان تلاحقانه في أحلامه الأولى وهي تلك المرأة الطفلة في مقهى شاندار التي قدمت له كثيراً من المساعدات أثناء مكوثه هناك وهي ميشال سفيان، والثانية هي تلك المرأة التي تركها في بومباي بعد أن وجه لها إهانات بالغة والتي ربما مازالت تعتقد أنه ميت، وتلك هي زينات وكيل.

عندما علم حجي جوشي بأن صلاح الدين شمشا عاد إلى البيت بشكله الإنساني، أصيب بتوتر شديد وقد قررت باميلا أن لا

تخبره ذلك في الليلة الأولى.. إلى أن يكونا قد هجعا بأمان في سريرها وعندما عرف أن شمشا يشغل الطابق العلوي من المنزل قفز مذعوراً وهو يمتص إبهامه بعصبية. وأمرته باميلا بأن يعود إلى السرير لكنه هز رأسه بعناد وقال: (إنه هناك في المنزل.. إذاً كيف أستطيع أنا أن...؟) وبعد هذه العبارة تناول ملابسه بطريقة عشوائية وابتعد عن باميلا.. وأخذ يرتطم بالسلالم نتيجة تعثره أثناء النزول، فحدثت نفسها قائلة: (حسناً إنك تستحق ذلك! وأن يتحطم عنقك).

لكنها اضطرت بعد لحظات إلى التوجه إلى شمشا حيث قالت له: (إن حجي جوشي يقف في الطريق خارج المنزل وهو مصر على ألا يدخل إلا إذا سمحت أنت له بذلك) ولقد أصيب صلاح الدين بالذهول وما لبث أن سألها: (ما رأيك أنت؟ هل تريدينه أن يدخل؟) فاحمر وجه باميلا وترددت قبل أن تقول وهي تشعر بالمهانة: (نعم) وخرج شمشا لينادي عليه فحياه حجي مذعوراً في حين خفف عنه صلاح الدين وأقنعه بأن يدخل ليشاطر زوجته الفراش! ولم يتمالك حجي نفسه بعد أن دخل من أن يقول لها: (ذلك الرجل.. يا له من قديس).

لكن حجي رغم ذلك ظل يشعر أن وجود شمشا في المنزل عبء عليه.. فكان إذا قام يطهو وجبة الطعام لباميلا يصر على أن يدعوه لمشاركتهما تلك الوجبة، وعندما كان صلاح الدين يرفض فإن حجي يصعد إليه ومعه بعض الأطباق على صينية.. وكان يقنع باميلا بأن التصرف بغير تلك الطريقة كان يمكن أن يكون مجرداً

من اللياقة. وكانت باميلا في بعض الحالات تعترض على سلوكه قائلة: (لم أكن أعرف أنك تقليدي إلى هذا الحد؟)، (إنها مسألة احترام فقط) وباسم الاحترام كان حجي يحمل فناجين الشاي والصحف والبريد إلى شمشا في الطابق العلوي! وقلما كان حجي يصل إلى المنزل دون أن يقوم بزيارة له لمدة عشرين دقيقة على الأقل.. يسلم بها على شمشا ويطمئن عليه.. وكان في كثير من الأحيان يجلب بعض الهدايا إلى صلاح الدين ويبرر ذلك لباميلا بالقول: (إننا لا نستطيع أن نتجاهل وجوده في المنزل) فترد عليه بسخرية: (ولماذا لا تدعوه للنزول ومشاركتنا الفراش؟) وكان حجي يرد عليها بغباء: (ما كنت أعلم أنك على استعداد لقبول ذلك!)..

كان كل من حجي وباميلا مهتمين بالحملة المنظمة للاعتراض على اعتقال الدكتور أوهوروسيمبا بتهمة التورط بجرائم قتل حيث أنهما كانا على قناعة بأنه بريء من تلك الجرائم.. وكانا في تلك الليلة يتأهبان ليذهبا في الصباح إلى اجتماع لهذا الصدد.. ووجد حجي أنه من الملائم أن يدعو شمشا إلى مرافقتهما إلى ذلك الاجتماع ويذكر صلاح الدين على الفور كيف أن ميشال سفيان تعرضت للإفساد على يد سيمبا نفسه ولذلك فقد كان رأيه أن يلتزموا جانب الحذر بهذا الخصوص. ومع ذلك فقد وافق على الذهاب وقد اعترضت باميلا بينها وبين حجي على ذلك لا لشيء إلا لأن حجي لم يشاورها في ذلك. وفي الصباح كان شمشا يرتدي ملابس أنيقة وهو يتأهب للذهاب.. فما كان من باميلا إلا أن نبهته

بأن يحرص على نفسه وهو يمضي إلى هناك بتلك الملابس الأرستقراطية.

والواقع أن الدافع الأساسي الذي جعل صلاح الدين يكلف عناء الذهاب إلى ذلك المكان البعيد هو أنه كان يتوقع أن يرى ميشال سفيان هناك!!.

عندما وقع نظر صلاح الدين على ميشال في ذلك الاجتماع وفي تلك القاعة المزدحمة بالناس أحس بقلبه يخفق بشدة.. وأحس بعزرائيل ملاك الموت يشق صفوف الناس قادماً باتجاهه! كانت تلك الفتاة بالنسبة له تجسيداً للموت! وقد اضطر لمغادرة القاعة وهو يتنفس بصعوبة. وعندما أدركه كل من حجي وياميلا قلقين على حالته عرضا عليه أن يصحباه إلى الطبيب لكنه قال لهما إن السبب هو الازدحام وندرة الهواء.. بالإضافة إلى كثافة الملابس التي كان يرتديها.. وأن الأمر سيكون معه على ما يرام بعد قليل.

وعندما رافقهما إلى المركز الرياضي كانت ميشال قد سبقتهم إلى هناك لحضور دروس الكارتيه. وهناك لم يجرؤ شمشا حجي أن يقدم له آليلويا كون على أنها النجمة الثانية في المركز والتي تعيش مع جبريل فاريشتا! وحدث صلاح الدين نفسه قائلاً: ها هو جبريل يفرض نفسه علي مرة ثانية وقد أصيب بالحالة نفسها التي أصيب بها في قاعة الاجتماع. واضطرب صلاح مما دعا حجي إلى أن يسأله: هل أنت بخير؟ فأجابه شمشا: لاشيء.. كل ما هنالك أنني بحاجة لأن أمشي قليلاً.. والواقع أنه كان يهرب من مواجهة هؤلاء الناس.. وأدرك أنه كان يوهم نفسه بأنه يعيش بسلام وأن

ذلك السلام كان زائفاً .. وظل يمشي بسرعة حتى وصل إلى مفترق طرق فتوقف قليلاً قبل أن يختار السير في الطريق المتجه إلى اليسار.

عاد بيلي باتوتا وميمي ماموليان من نيويورك إلى لندن بعد تخلصهما من تهم الاحتيال المرفوعة ضدهما هناك بمناورة من أطرف الأنواع حيث وجها بمجرد وصولهما بطاقات دعوة أنيقة إلى حفلة صاخبة يقيمانها للوسط الفني في لندن، وقد وصلت إحدى تلك البطاقات عن طريق سيسوديا إلى آليلويا وجبريل فاريشتا .. وبعدها بقليل وصلت بطاقة أخرى إلى عرين صلاح الدين شمشا . وقد رافق وصول هذه البطاقة الثانية هاتف تكلمت من خلاله ميمي ماموليان مع باميلا للاستفسار عن أحوال هذه الأخيرة.. التي أخبرتها بتفاصيل عن تطورات علاقتها مع زوجها ومع حجي جوشي.. وكان رد ميمي على ذلك أن طلبت من باميلا اصطحاب كلا الرجلين إلى الحفلة التي أبلغتها بأنها ستكون عرضاً صاخباً، وكان المكان الذي حدد لإقامة تلك الحفلة هو ذلك المسرح المزود بأجهزة صوتية خاصة في استيديو شيبرتون للإنتاج السينمائي التي يملكها سيسوديا . وبدا واضحاً أن سيسوديا لم يتلق أجراً من بيلي وميمي في مقابل إقامة حفلتهما على مسرحه.

وكانت الليلة الموعودة.. ليلة الحفلة.. وكان الجو في منتهى الحرارة. ووصل حجي مع باميلا وأتى بعدها شمشا الذي دخل إلى تلك القاعة التي كانت تتجسد فيها لندن بكاملها بصورة مصغرة. وكان هناك أيضاً زميل شمشا في السقوط من السماء والذي هو

جبريل بصحبة ملكة الثلج آليلويا كون بالإضافة إلى وجهاء مجتمع لندن.. وعدد كبير من عارضات الأزياء وعارضي الأزياء ونجوم السينما وأفراد من صغار العائلة الملكية ومعهم بعض السادة السياسيين ذوي العلاقة بالوسط السينمائي والفني.. وكان جبريل يجلس في مكان بارز وحوله جمهور صاخب.. وإلى جانبه آليلويا ولاحظ شمشا بحسد بالغ كيف أن الجماهير تنظر إلى جبريل بإعجاب يصل إلى حد العبادة.. وقرر أن يصل إليه بأي ثمن رغم الازدحام الشديد. وما أن تقع عيني جبريل على شمشا من أعلى ذلك الجسر الذي شيد من الحجارة ليشابه جسر لندن فيرفع جبريل يده ويلوح لشمشا دون انفعال!.

وأحس شمشا في تلك اللحظة بعزلة مرعبة.. وأخذ صدره يجيش بانفعالات أحس بأنها لن تهدأ حتى يجعل جبريل ذلك صديقه وخصمه بآن معاً يركع ويستسلم وليكن ما يكون في سبيل الوصول إلى هذه الغاية: (إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على مدى عمق الإصابة من المظهر السطحي للجرح).

الهدف ليس مستحيلاً.. وكانت خيانة جبريل له في مسكن روزا دياموندا لا تفارق مخيلته. كان هناك طريقة لتحقيق مأربه.. وهكذا فعندما وصل أخيراً إلى المكان الذي يجلس فيه جبريل الذي حياه بحرارة وحيوية قائلاً: (أهذا أنت أيها الشيطان مازلت تملأ حياة.. اقترب مني أيها العجوز شمشا).

في اللحظة التي اقترب فيها صلاح الدين شمشا من آليلويا كون.. أحس بأنه أصبح مسمراً في مكانه وكأنه تجمد من تأثير

عينيها .. ولم يدر لماذا اعتبرها قبل أن توجه إليه أية كلمة جزءاً من عدوه اللدود؟ ربما لأنه شعر نحوه برغبة جامحة واستواته فيها تلك الثقة العجيبة بنفسها .. ولكنه كبت مشاعره ورغباته ولم يظهر عليه أي شيء يوحي بتلك الإحساسات.. بل أنه راح يبتسم وصافحها ويقول أنه مسرور لرؤيتها وقد احتضن جبريل بحرارة لا تشوبها شائبة. رغم كل هذا لم يخطر بباله وهو يقف أمام جبريل أن هذا الأخير كان في تلك المرحلة مريضاً يخضع للمراقبة الطبية الدقيقة والمشددة بصورة تجعله مجبراً على أن يبتلع كل يوم كمية كبيرة من الأدوية والعقاقير بسبب معاودة مرضه الغامض له.. والذي لم يكن في الواقع سوى الشبزوفرينيا والبارانويا .. انفصام الشخصية المؤدية على جنون العظمة. وسأله جبريل عن زوجته فأجابه بأنها حامل، ولم ينتبه جبريل إلى اللهجة الحادة التي كان شمشا يحدثه فيها عن زوجته فقال له: (اسمح لي أن أقدم لك التهاني) فرد عليه شمشا : (إن التهاني ينبغي أن تقدم لعشيقها ذلك الصديق القديم حجي جوشي). وضحك شمشا وهو يضيف: (لقد أصبح معبوداً للسيدة زوجتي والتي هي ليست بسيدة على الإطلاق).

وبعد أسبوع من تلك المناسبة تلقى شمشا مكالمة هاتفية من آليلويا كون التي حصلت على رقمه من سيسوديا ليجد نفسه بعد قليل في سيارة آليلويا متوجهاً وإياها إلى شمال المدينة حيث كانا يقيمان في منزل أحد أصدقائهما .. وقالت له: (إنه يود رؤيتك ويبدو أنك ستقدم له عوناً كبيراً .. وقد أعلن أطباؤه الاختصاصيون

بـأن غيرتـه الشـديدة علـي ونزعتـه التسـلطية هـي أحـد أعـراض مرضه.. وإنني يجب أن أتحمل هذه النزعة.. لأنها المنفذ الوحيد لعدوانيته. وهذا يخفف من حدة إصابته) كان يصغي إليها بانتباه شديد وحدث نفسه قائلاً: (لقد خانني وغدر بي في إحدى المرات.. فلتكن لديه الثقة الكاملة بي الآن) وتابعت آليلويا حديثها قائلة: (لقد حذرتني منه أمي عدة مرات.. وكانت المرة الأخيرة في المطار وأنا أودعها قبل سفرها إلى كاليفورنيا حيث قالت لي بريلك هذا قد يحدد مجريات الأمور في تاريخ حياتك) وسألها شمشا: إذا كانت تلك حالته فلماذا تجازفين بالإقامة معه؟) أجابته: (قد لا يدعو جوابي عن هذا السؤال إلى التصديق ولكنني سأكون صادقة تماماً.. السبب هو علاقتي الجنسية معه.. فنحن منسجمان تماماً في هذه العلاقة.. ولقد أصبحنا عاشقين من عشاق الحلم.. إنه يعرفني تماماً) صمتت آليلويا.. وشعر شمشا بمرارة تجتاح أعماقه من جديد لقد كان عشاق الأحلام يحيطون به من كل جانب في حين كان هو يجلس ويكتفي بأن يتفرج ويصر أسنانه غيظاً.

كان ذلك المسكن الذي توجها إليه في قرية صغيرة تسمى (دور سدير) وكان جبريل بانتظارهما عند الباب ورحب بشمشا قائلاً: (أهلاً بك إلى هذا السجن اللعين).

كانت العقاقير التي يتناولها جبريل قد أدت به لأن يصبح متثاقلاً بطيء الحركة. وصرح له جبريل بأنه أحياناً ينقطع عن استعمال تلك الأدوية، عندما لا تكون آليلويا منتبهة لذلك: (ومع ذلك فكثيراً ما أتشاجر معها وأضربها) صاحت به آليلويا من الداخل: (أخرس

إن من حسن حظي أنني واظبت على التدريب على رياضة الدفاع عن النفس وكثيراً ما أوقعه أرضاً.. هنا على أرض هذا المكان.)
أصيب شمشا بتلك الليلة بالأرق واستمع إلى جبريل وآليلويا وهما يقومان بعمل الحب ويصدران أصوات مرتفعة.. إنها تماماً مثل باميلا.

وفي صبيحة اليوم التالي اقترح جبريل أن يتمشى بصحبة شمشا إلى قمة التل المجاور.. وترك آليلويا في المنزل.. وعندما وصلا إلى المكان المقرر لنهاية جولتهما تلك كان جبريل يلهث وكان قلب شمشا يخفق بشدة. ووقفا هناك حيث انبرى جبريل يبوح لشمشا بأسراره قائلاً: (لقد أتيت بها إلى هذا الجحر المنعزل خوفاً عليها.. إنها جميلة لدرجة لعينة والرجال يلاحقونها كالذباب.. إنها امرأة استثنائية وأحس أن علي أن أحميها من شهوات الرجال!!) حدث شمشا نفسه قائلاً: (يا لك من تعيس عاثر الحظ. تستعبدك هذه الأوهام.. ومع ذلك فإنني لم أوفرك!).

وفي طريق عودة شمشا إلى محطة كارليل وكانت آليلويا توصله بسيارتها.. نصحها شمشا بألا تسمح لجبريل أن يعزلها عن العالم فقالت له: (إنك على حق في ما تقوله). وأحس شمشا وهو يحدثها بهذه الطريقة أنه في تلك اللحظة بالذات ابتدأ يشن حملته ضد جبريل وقالت وهي تودعه: (أرجو أن تمكنك الظروف من لقاء جبريل مرة ثانية.. خاصة وأن لدي بعض الأعمال، لقدأفاده لقاؤك معه إلى حد كبير) أجابها: (أرجو أن تكلموني بالهاتف في أي وقت).

اكتشف صلاح الدين أن الهدف الأول والأخير لجبريل من ترتيب ذلك اللقاء المسائي معه خارج مدينة لندن كان أن يقدم له ذلك الوصف المفصل المحرج لعلاقته الحميمة مع آليلويا من خلال مضاجعته لها .. والمتعة التي يحصل عليها كلاهما من تلك العلاقة.. واستغرب صلاح الدين ذلك الحد من قلة الذوق الذي وصل إليه مثل هؤلاء الناس الذين يسعدهم أن يتحدثوا بوقاحة عن خصوصياتهم أمام أناس لا يشاركونهم تلك الحالات. وراح يذكر كيف أن جبريل انطلق يتعرض على مسمع منه للوضعيات التي ينام فيها مع آليلويا .. وكيف يعضها وتعضه والألفاظ التي يستعملانها أحدهما مع الآخر. وانتقل ليقدم له وصفاً دقيقاً لعينيها الغامقتين في لحظة النشوة ولفخذيها وذلك الوادي الذي يؤدي إلى أسفل ظهرها .. وكيف أنها تشعر بالضيق عند مداعبة سرتها .. وذلك الطول غير العادي في حلمتي نهديها ومالبث في نهاية الحديث أن تمالك نفسه واعتذر لشمشا بأنه يفقد توازنه عندما تكون آليلويا موضوع حديثه.. ذلك أنها امرأة جذابة وساحرة للغاية.. وقد التقيا بعد أيام وأشار جبريل لسيارة تكسي وطلب من السائق التوجه إلى ساحة الطرف الآخر وكان مزاجه أميل إلى المرح والانطلاق في ذلك اليوم! وقدر شمشا أنهما سارا ما يقرب من عشرين ميلاً في ذلك النهار. وفي النهاية سأل شمشا جبريل: (أين تحب أن نمضي؟) فأجابه جبريل: (إلى حيث تشاء فأنا أثق بذوقك؟). توجها إلى مقهى شاندار.

لم يكن حجي في المقهى.. وكذلك فقد كانت ميشال سفيان غائبة بعد رحيلها مع حنيف جونسون حيث لم تحل ميشال مشكلتها مع أمها. ولم ترحب أناهيتا ووالدتها بشمشا كما ينبغي.. الوحيد الذي رحب به ترحيباً حاراً كان الحاج سفيان الذي قال لشمشا: (تعال واجلس.. يسعدني أنك تبدو بصحة طيبة) ومن الغريب أن المقهى كان شبه فارغ من الزبائن، ولم يحرك حضور جبريل إلى ذلك المكان أية مشاعر. وبعد بضع لحظات أدرك شمشا حقيقة الأمر عندما لمح أربعة شبان بيض متحفزين لإثارة شجار مع النادل الجديد الذي أرغمت هند على استخدامه بعد غياب ابنتها. وكان اسمه أمين.. وسألهما عن رغبتهما فطلبا اللحم والأرز.. ووجه شمشا بصره باتجاه الشبان الأربعة فعرف أنهم سكارى.. وكان يبدو على أمين أنه متضايق من سفيان لأنه سمح لهؤلاء السكارى بالجلوس في مقهاه.. وذلك أنه الآن ملزم بخدمة هؤلاء التافهين.

وقد وصل الطعام إلى كلا المنضدتين في آن واحد وعندما ابتدأ الشبان الأربعة يتذمرون ويثرثرون من أن الطعام لم يعجبهم وابتدأ الجو في المقهى يصبح متوتراً ومشحوناً فجأة وقفوا جميعاً وزعق أحدهم بلهجة منفرة: (إننا لن نأكل هذا الضراط.. أيها الفروج!.. وبإمكانكم أن تنكحوا أنفسكم إذا كان ذلك يسركم..) وابتدأ الثلاثة الآخرون يشتمون ويستخدمون الألفاظ البذيئة وما لبثوا أن غادروا المقهى.

أما كبيرهم فقد تأخر عنهم وصاح بشمشا وجبريل: (هل تستمعان بالطعام؟.. إنه ضراط مقرف، هل هذا ما تأكلونه في بلادكم أيها الفروج؟) ولم يرد عليه أحد.. فاقترب منهما وتابع زعيقه قائلاً: (لقد وجهت إليكما سؤالاً لعيناً.. هل تستمتعان بهذا الضراط المقرف الذي تأكلانه) فأجابه شمشا منزعجاً: (كنا نستمتع بالطعام لولا وجودكم هنا) فلم يلبث ذلك الشاب الشبيه بالجزر أن راح يبصق بعنف على كافة الأطباق الموجودة على المنضدة! قال جبريل لشمشا وهما يخرجان في سيارة الأجرة: (أرجو ألا تصحبني في المرات القادمة إلى أماكن لا تثق بهدوئها).

لمحت آليلويا في أثناء دخولها إلى المنزل شبح موريس ويلسون يطل عليها من أعلى إحدى الأشجار وهو يرتدي ملابسه المعتادة الثقيلة على الرغم من الحر الشديد. قالت له: (ليس لدي الوقت الذي أضيعه معك) فأجابها بدون اكتراث: (باستطاعتي أن أنتظر).

وكان صلاح الدين شمشا يختبئ خلف تلك الشجرة بالذات.. وظل واقفاً هناك حتى شاهد جبريل عند الباب غاضباً وشياطين الغيرة تتواثب على كتفيه.. وكان يطرح بحدة الأسئلة القديمة نفسها أين.. ومع من.. وماذا.. وكيف.. أيتها الفاجرة. وفي تلك اللحظة تلاشى ذلك الكائن الذي كان فوق الشجرة. بينما عاد الآخر الذي كان مختبئاً وراءها أدراجه بهدوء في ذلك الدرب الظليل.

ابتدأت آليلويا وجبريل يتلقيان مكالمات هاتفية إلى مسكنهما في لندن لم تكن كثيرة في البداية كما أنها كانت ترد بأصوات متعددة

ولم تكن شبيهة بتلك التي يجريها المتطفلون والذين يسيئون استخدام الهاتف.. ولكنها كانت هادفة ومنظمة بحيث لا يمكن أن تفعل الشرطة حيالها شيئاً. ولم يدرك كلاهما على الإطلاق أنها كانت من تصميم رجل واحد هو صلاح الدين شمشا الرجل ذي الأصوات الألف! وحين كانت آليلويا تجيب على الهاتف كان الصوت يتمتم بأذنها بحيث يجعلها تحس أن صاحبه يعرف كل أسرارها وأساليبها في ممارسة الحب. وكانت هي تقف وتنصت وهي تحس بتورد في وجهها وبرودة في عمودها الفقري!. وكذلك كان لجبريل نصيبه من تلك المكالمات التي توحي بأن صاحبها من أولئك الأرستقراطيين الذين قيض لهم أنهم يجتاحوا قدس أقداسه وأنهم من ذوي الاحتكاك الحميم مع زوجته!.

عندما عادت آليلويا إلى المنزل.. كان جبريل قد رحل عنه! والواقع أن جبريل كان قد مضى على الفور إلى ذلك المتجبر الذي يبيع الأدوات الموسيقية النحاسية والذي كان صاحبه هو جون مسلمة بالذات. وعندما لمحه مسلمة يدخل إلى المتجر لم يسمح لأحد بأن يخدمه بل قام بتلبية طلبه بكل تفانٍ وتقديس.. أليس هو رسول الرب إلى هذا العالم؟! وقد طلب جبريل بوقاً نحاسياً كبيراً كان على أحد الرفوف العالية.. وقفز مسلمة إلى السلم بنفسه ليناوله ذلك البوق.. وقد حاول مسلمة جاهداً ألا يتقاضى ثمن ذلك البوق إلا أن جبريل أصر بحيث لم يكن أمام مسلمة إلا الرضوخ. وفي تلك اللحظة وضع جبريل البوق على رأسه وقال لمسلمة: إنني أسمي هذا البوق باسم عزرائيل مبيد الجنس

الإنسـاني.. وكانـت هنـاك هالـة متوهجـة تحـيط في تلـك اللحظـة برأس جبريل.

مـات الـدكتور أوهـورو سـيمبا الـذي كان اسمـه مـن قبـل سـيلفتر روبـرتس في سـجنه قبـل أن تـتم محاكمتـه. وابتـدأت أحـداث عنيفـة تقع، وتزداد نسبتها وحدتها شيئاً فشيئاً. وأصبحت عائلات الملونين في أرجاء المدينـة عرضـة لهجمـات وحشـية.. وتعـرض نـادي الشـمع الساخن لهجمة من النوع ذاته.

وانطلق جبريل يجوب الطرقات وكأنما هـو في حالـة حلم.. ولم يعـد يميـز علـى الإطـلاق بـين الحلـم والحقيقـة حيـث ظـل أيامـاً بطولها.. دونما طعام ونوم وذلك البوق النحاسي (عزرائيل) في جيب معطفه كان حيثما توجه يشكو خيانة (آليلويا كون) له.

وفي تلك الأثناء ينشب حريق في مقهى شاندار يذهب ضحيته صاحبه محمد سفيان وزوجته هند.. ويصاب صلاح الدين شمشا بنوبة قلبية حيث يرافقه إلى المستشفى حنيف جونسون، وميشال سفيان وفي الوقت ذاته تبكي ميشال حزناً على أمها وأبيها بحرارة.

الفصل الثامن

انشطار المياه في بحر العرب

كان من عادة (سرينيقاس) تاجر الدمى أن يتوعد زوجته وأولاده من حين لآخر بأنه ذات يوم عندما يفقد العالم مباهجه، سوف يتخلى عن كل ما يملكه ليصبح شحاذاً يتنقل من قرية إلى قرية حاملاً طاسة وعكازاً شأن أي متسول! وكانت السيدة سرينيقاس تتفهم وعيد زوجها ذلك لأنها كانت تدرك أنه ينطلق من رغبة في أعماقه في أن يرسخ لدى الآخرين القناعة بأنه رجل تقي وورع. رغم ما يتمتع به من ميل إلى المجازفة حيث أنه غامر قبل سنوات بمغامرة انتحارية.. فاجتاز بالطائرة عبر الوادي الرهيب المسمى غراند كانيون في الولايات المتحدة الأمريكية، والواقع أن فكرة تحوله إلى راهب متسول كانت ترضي كلتا النزعتين الكامنتين في نفسه.. نزعة التقى والورع. ونزعة حب المغامرة.

وفي ذلك الصباح تخلى سيرينيقاس عن استرخائه الصباحي على شرفة منزله وتهادى خارجاً لكي يراقب وصول قرية تيتليبر حيث كان الصبية الماكرون يسيرون في الطرقات وهم يعوون بجنون ويطلقون صيحات يفهم منها أنها موكباً عجيباً يشارك فيه أناس يحملون أمتعة ويحثون الخطى على درب البطاطا باتجاه الشارع الرئيسي تتقدمهم فتاة ذات شعر فضي، وتظلهم جميعاً أسراب من الفراشات ووراءهم ميرزا سعيد أختر في سيارته (المرسيدس بنز ستيشن) الخضراء.

ولم تكن بلدة شاتنا باتنا بلدة كبيرة. ولذلك فإن وصول مئة وخمسين شخصاً إليها تعتبر ظاهرة لا يمكن تجاهلها.

وصل موكب تيتليبر إلى شاتنا باتنا في خضم من عويل الرضع وصراخ الأطفال وهمهمة الكبار. وسيل من النكات الحادة يطلقها عثمان المهرج المرتد صاحب الثور الذي لم يكن يرينيقاس يقيم له أي وزن. وعندما نقل الأطفال لسرينيقاس أن زوجة الزمندار ميرزا سعيد وحماته تشاركان في الموكب مشياً على الأقدام شأنهما شأن أي فلاحتين وهما ترتديان ملابس بسيطة ورثة، تحامل سرينيقاس على نفسه وتوجه إلى ندوة على قارعة الطريق كان حجاج تيتليبر يتحلقون حولها ويتخاطفون مأكولات مصنوعة من البطاطا وغيرها في اللحظة نفسها وصلت سيارة جيب من قسم شرطة شاتنا باتنا وكان المفتش يقف في مقدمتها وهو يصيح من خلال مكبر الصوت معلناً بأنه سيتخذ إجراءات حازمة ضد هذه المسيرة الطائفية إن لم يتفرق المشاركون فيها على الفور.. وحدث سيرينيقاس نفسه قائلاً: (ما أسوأ ذلك.. لابد وأن تحدث مشكلة جديدة مع هؤلاء المسلمين الهنود)..

تقدم ميرزا سعيد من ضابط الشرطة وحدثه بحقيقة الأمر، قال ميرزا سعيد للضابط: (إن هؤلاء الناس الطيبين، يريدون أن يرحلوا مشياً على الأقدام حتى يصلوا إلى بحر العرب لاعتقادهم أن مياه البحر ستنشطر أمامهم) سأله الضابط: (وهل أنت جاد فيما تقوله) رد عليه ميرزا: (أنني لا أتحدث عن نفسي.. ولكن هؤلاء الناس جادون كما الجحيم.. بيد أنني أسعى جاهداً لطرد

هذه الفكرة من رؤوسهم قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه) قال له الضابط الشرطي: (كيف يسعني أن أسمح لهذا العدد الكبير من الناس بالتجمع في الطريق العام؟ إن هذا قد يلهب المشاعر ويثير النعرات ومن الممكن أن نتعرض لمشكلة جديدة) ابتعد الحجاج قليلاً.. وعند ذلك تسنى لسرينيقاس أن يرى القوام الرائع لتلك الفتاة وقد غمرت جسمها الفراشات.. وشعرها الثلجي ينسدل حتى قدميها ولم يتمالك نفسه فصرخ: (يا إلهي.. أهذه أنت يا عائشة؟ ماذا دهاك؟) واستطرد بغباء: (وماذا سيحل بألعاب تنظيم الأسرة التي وعدتني بها؟). كان الجميع يتأملون عائشة وهي تقترب من الضابط ذي الصدر المنتفخ وتومئ له بابتسامة.. وقد اضطرب ذلك الرجل على الأثر وخاطبها بلهجة صبي صغير: (حسناً.. آسف لن أغضبك على الإطلاق أتوسل إليك أن تسامحيني).

وعند ذلك الحد انتهت المتاعب مع رجال الشرطة بينما كان سرينيقاس يتجول بين الحجاج وقع نظره على الزمندار ميرزا سعيد الذي كان يستلقي على المقعد الخلفي من سيارته وهو في حالة تمزق وعذاب وقال له سيرينيقاس: (إنك لا تؤمن بهذه الفتاة) رد عليه ميرزا سعيد بعد أن عدل في جلسته: (يا سيرينيقاس نحن رجال عصريون ونوقن تماماً أن المسنين قد يموتون في مثل هذه المرحلة الشاقة الطويلة وإن الله لا يشفي من مرض السرطان وإن البحار لا تنشق أمام أحد.. وعلى هذا الأساس ينبغي أن نضع حداً لكل هذا الهراء.. تعال معي.. فالسيارة متسعة وقد يكون بوسعك أن تساعدني في إقناعهم بالتخلي عن هذه الحماقة.. خاصة وأن

عائشة لا تنسى فضلك عليها وربما تصغي لك) رد عليه سيرنيقياس: (أصحبك في السيارة؟ كيف ذلك وعملي وتجارتي) قال له ميرزا سعيد: (إنني بحاجة لمساعدتك.. وسأدفع لك في مقابل ذلك) تراجع سيرينيقاس خائفاً وقال: (إن المال لا يعني لي أي شيء.. أستميحك عذراً.. وعلى أي حال لابد من التفكير بالأمر) صاح ميرزا سعيد قبل أن يبتعد: (أنا وأنت لسنا متعصبين طائفياً أنا المسلم وأنت الهندوسي نستطيع أن نشكل نواة الجبهة مضادة لهذا الهذيان) أجابه سيرينيقاس: (ينبغي أن نأخذ بالاعتبار أنني لست من غير المؤمنين وأنا أحتفظ بصورة للآلهة (لاكشمي) على الجدرا!) قاطعه ميرزا سعيد ساخراً: (المال هو الإله المفضل عند كل التجار) استطرد سيرينيقاس كأنه لم يسمع: (وصورة الآلهة في قلبي كما هي على الجدار) فقد ميرزا سعيد السيطرة على أعصابه وصاح: (أقسم لك أن مثل هذه الآلهة مجرد رمز وفلاسفتكم يؤيدون ما أقوله.. وتجسيد هذه الآلهة بدورها قناعات مجردة!) كان سيرينيقاس في تلك اللحظة ينظر باتجاه عائشة التي كانت نائمة تحت غطاء من الفراشات وقال: (لست فيلسوفاً) كاد قلبه يقفز من فمه عندما أحس بما يشبه اليقين أن الفتاة نائمة كان لها وجه الآلهة لاكشمي نفسه.. غير أنه لم يعبر عن ذلك الإحساس.

وعندما غادر الحجاج شاتنا باتنا كان سيرينيقاس بصحبتهم بعد أن أدار أذناً صماء لتوسلات زوجته وهي تحمل الطفلة مينو وتهزها في وجهه، كما أنه أوضح لعائشة أنه في هذا الحين لا يرغب فيه بزيارة مكة، إلا أنه تواقاً لمرافقتها فترة من الزمن حتى لو

استمر ذلك حتى لحظة الوصول إلى البحر. وعندما اندس بين أهالي تيتليبر راح يحث الخطى معهم لاحظ بمزيج من الخضوع والانبهار أسراب الفراشات تطير فوق رؤوسهم كمظلة هائلة الحجم تقيهم من أشعة الشمس. وفي اللحظة التالية كانت عشرات من تلك الحرباءات المجنحة تجد مستقراً لها على كتفيه بحيث تحولت على الفور إلى لون قميصه القرمزي. وانتبه في ذلك الحين إلى أن الرجل الذي يسير بجواره إنما هو مختار تيتليبر محمد دين الذي كان هو وزوجته خديجة يسيران بطمأنينة بين الحجيج رغم تقدمهما في السن. وعندما لاحظ محمد دين أن البركة قد حلت بتاجر الدمى، أمسك بيده وشد عليها بصمت!.

كان يبدو واضحاً أن الأمطار قد انحبست منذ زمن، حيث كانت مجموعات من المشاة التي تكاد عظامها تبرز من تلك العائلات التي ترحل باتجاه الجنوب يحدو أفرادها الأمل في العثور على ماء يشربونه! وقد صاح ميرزا سعيد بأهالي تيتليبر حيال هذا المشهد: (أترون؟.. إنهم يبحثون عن ماء عذب يشربونه.. وليس عن ماء مالح يشق أمامهم.. إنهم يسعون للبقاء على قيد الحياة.. ولكنكم أيها الحمقى تريدون أن تموتوا!) كان سعيد يقفز أحياناً من سيارته ليناشد زوجته المشرفة على الموت بالقول: (عودي إلى صوابك واستريحي) غير أنها كانت ترفض بإباء. وكانت والدتها تتخلص منه بقولها: (آن لك يا سعيد أن تدرك أنك إنسان سلبي وهذا ما يسبب لنا الحزن والاكتئاب امض لشقائك.. اذهب واستمتع بتناول الكولا المبردة في سيارتك المكيفة ودعنا بسلام مع أنفسنا).

بعد الأسبوع الأول استنكف السائق عن العمل مع ميرزا سعيد وانضم إلى الحجاج المشاة.. وأصبح يتوجب على الزمندار أن يقود سيارته بنفسه، وبعد ذلك أصبح يوقف السيارة كلما غلب عليه القلق، لينطلق جيئة وذهاباً بين الحجيج ويهددهم غاضباً تارة.. ويعرض عليهم الرشوات تارة أخرى.. ثم ما يلبث أن ينبري ليلعن عائشة على مرأى ومسمع منها.. لأنها دمرت حياته. غير أنه لم يكن يجرؤ على الاستمرار في مواجهتها طويلاً لأنه كان إذا أطال النظر إليها يحس نحوها باشتهاء حاد.. وكان هذا بالتالي يشعره بالخجل ويبتعد.

بدأت بشرة ميشال زوجة ميرزا سعيد تتحول إلى اللون الرمادي بعد أن انتشر السرطان إليها. وأما والدتها السيدة قريشي فكانت تحس أنها ابتدأت تتآكل.. ورغم ذلك فإن السحر الذي مارسته عليهم عائشة ظل يسيطر عليهم بقوة. وكان ميرزا سعيد في نهاية كل من حملاته التي يقوم بها بين الحجاج لثنيهم عن عزمهم يخرج مرهقاً مصاباً بالدوار من القنوط وشدة الحر.. ويكتشف أن السيارة أصبحت بعيدة وراءهم. حيث يعود أدراجه غارقاً في الكآبة. ولدى عودته في إحدى المرات فوجئ بأن أحد ركاب الباصات العابرة قذف سيارته بقشرة جوز الهند مما أدى إلى تصدع واقية الريح الزجاجية المصفحة. وعندما أنبأ زوجته بذلك في تلك الليلة وهو يستلقي إلى جوارها في ضوء القمر طمأنته بالقول: (إنه إنذار لك.. وما عليك إلا أن تتخلى عن السيارة وتنضم إلينا!).

حلم جبريل بالقحط

وحل اليباس بالأرض تحت سماء عديمة المطر..

وكان الحجيج يتقدم ببطء.. ثلاث ساعات من المشي كل صباح ومثلها في المساء.. ومايزال أمامهم مئة وخمسون ميلاً حتى يصلوا إلى البحر وهي رحلة تستغرق أحد عشر أسبوعاً على وجه التقريب وقعت الوفاة الأولى في اليوم الثامن عشر حين رأت زوجة محمد دين المسنة خديجة في نومها طيفاً لملاك فهمست: (أهذا أنت يا جبريل؟) أجابها الطيف: (كلا وإنما أنا عزرائيل ملاك الموت أيتها الحقيرة. أرجو المعذرة لأنني خيبت أملك). وعندما اقتربت المسيرة من إحدى الخرائب الأثرية قالت لزوجها: (لابد لي من أن أدخل وأنام في هذا المكان) قال لها محمد دين معترضاً: (كيف ذلك.. سنتخلف عن المسيرة؟!) ردت عليه برفق: (لا تكترث باستطاعتك اللحاق بها فيما بعد) وماتت خديجة بعد دقيقة واحدة من استلقائها على الأرض وراح العجوز يبكي بلا جدوى ومن ثم انطلق يركض ليلحق بالحجاج.. وعندما واجه عائشة قال لها غاضباً: (ماكان ينبغي أبداً أن أصغي إليكِ.. وها أنت فقد تسببت في القضاء على زوجتي).

توقفت المسيرة وحاول ميرزا سعيد إختر أن يغتنم الفرصة فأصر بصوت مرتفع على أن تنقل خديجة إلى مدفن إسلامي لائق غير أن عائشة اعترضت على ذلك وقالت: (أمرنا كبير الملائكة أن نتوجه إلى البحر دون تراجع أو توقف أو انعطاف!) فناشد ميرزا سعيد الحجاج صائحاً بهم: (إنها زوجة مختاركم المحبوبة.. فهل ستلقون

بها في حفرة على قارعة الطريق؟!) بيد أن الحجاج وافقوا على أن تدفن خديجة على الفور وفي ذلك المكان لم يصدق ما يسمعه.. إلا أنه عرف أن تصميمهم أقوى مما كان يخطر في باله.

وبعد ذلك ابتعد محمد دين عن الحجاج وهو يبكي بصمت.. فطلبت عائشة مقابلته والحديث معه وقالت له: (يجب أن تقوي إيمانك.. إن من يموت في الطريق إلى الحج العظيم يحل في مقام خاص في الفردوس).

وفي تلك الليلة وبينما كان ميرزا سعيد يجلس بالقرب من السيارة اقترب منه محمد دين وقال: (أرجو المعذرة.. ولكن هل بإمكاني أن أركب معك في السيارة كما عرضت علي مرة من قبل).

دخل محمد دين السيارة.. وصاح ميرزا سعيد مبتهجاً: (إنه المرتد الأول).

وكان زمرة من الحجاج يتحلقون كل مساء حول السيارة ليستمعوا إلى ميرزا سعيد يوجه إليهم أحاديث منطقية هادفة.. وكان مشهد محمد دين وهو يستريح في السيارة يقدم لهم إثباتاً على ما يقوله لهم ميرزا سعيد!.

لم تحاول عائشة أن تدعو الحجاج إلى الابتعاد عن السيارة مؤكدة بذلك ثقتها بنفسها ولم يزد عدد المرتدين.. وبعد ذلك اختفت عائشة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد مضي يوم ونصف. عند ظهورها كانت تشوب شعرها الفضي خصلات ذهبية اللون. وجمعت القرويين لتبثهم أن كبير الملائكة مستاء منهم لأن الشك بدأ يزعزع إيمانهم بمجرد أن الشهيدة صعدت روحها إلى الفردوس،

حذرتهم من أن الملاك قد يعيد النظر في عرضه لهم بأن يشق لهم مياه البحر! انتاب الفلاحين ذعر شديد وراحوا يناشدونها صائحين: (اغفري لنا .. قولي أن ذلك لم يحدث).

لم يأتي الحجاج ليتحلقوا حول السيارة في ذلك اليوم.. وحدث ميرزا سعيد نفسه قائلاً: (الجولة الثانية لصالح كبير الملائكة).

ابتدأت المتاعب الحقيقية في الأسبوع الخامس حيث قل الطعام وأصبح من الصعب تأمين مياه الشرب وابتدأ المسنون يصابون بالمرض.. وجفت الدموع في عيون الأطفال.. وعندما اقترب الحجاج من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية زادت احتمالات المضايقات وأعمال العنف ضدهم. وكان راكبو الدراجات النارية يسيئون الأدب معهم وكان بعضهم يصرخ لدى مروره بهم: (مجانين.. حمقى.. مسلمون)، سقط ثور عثمان على ركبتيه الأماميتين في زحمة الدراجات.. فصاح به عثمان: (انهض أيها الأبله أتخذلني وتموت هنا على مرأى من هؤلاء الأغراب؟!) أحنى الثور رأسه مرتين وهو يثغو (بو... بوم!!) نعم نعم.. وفارق الحياة! غطت الفراشات جسد الثور مكتسبة لونه الأشهب وركض عثمان نحو عائشة وسألها: (هل تذهب الثيران إلى النعيم؟) أجابته دون التفات: (ليس للثيران أرواح!) رمقها عثمان بنظرة وأصبح واثقاً بعدها أنه لم يعد يحبها .. وخاطبها: (لقد تحولت إلى شيطان) أجابته عائشة: (إنني مجرد رسولة)! رد عليها عثمان غاضباً: (إذاً هل لك أن تنبئيني عن سبب تلهف إلهك للقضاء على من لا ذنب

لهم ترى ما الذي يجعله خائفاً منهم؟ ما الذي يزعزع ثقته بنفسه ويجعله بحاجة إلى أن يموت حتى يثبت محبته لنا؟!)

حيال هذا التجديف أملت عائشة على أتباعها فروضاً أشد وأقسى وحكمت عليهم بالصوم أيام الجمعة وفي الأسبوع السادس أجبرت الحجاج على ترك أربع جثث في مكان سقوطها .. لرجلين عجوزين وامرأة مسنة وطفلة في السادسة من عمرها!. غير أن ميرزا سعيد إختر قام بجمع الجثث وهيأ لأصحابها مراسم دفن.. بمساعدة محمد دين وعثمان.

أخذ عدد الحجاج القلقين الذين يتحلقون حول السيارة يتزايد ليلة إثر ليلة. ومضت أسابيع ثمانية ساءت خلالها العلاقة بين ميرزا سعيد وزوجته ميشال إلى درجة أنهما لم يعودا يتبادلان الكلام وكانت قبل تلك القطيعة قد وبخته قائلة: (لا دفء في أعماقك على الإطلاق! ولكم أخشى عليك) رد عليها صائحاً: (كيف تقولين هذا الكلام وأنت تعلمين أنني أتيت إلى هنا من أجلك).

وركضت وراء الحجاج وأخذ يستعطفها قائلاً: (تعالي معي.. سأصحبك إلى أفضل العيادات الطبية في أوروبا وكندا والولايات المتحدة.. إنهم يجترحون المعجزات) فأشاحت بوجهها عنه وقالت: (إنني ماضية للحج إلى مكة).

عندها انفجر غاضباً وصاح بها: (أيتها الغبية البلهاء اللعينة.. إن كونك مشرفة على الموت لا يبرر لك أن تجري مع كل هؤلاء الناس) تركته وسارت باتجاه المخيم الذي أقامه الحجاج دون أن تلتفت إليه فانهار ميرزا سعيد وجثا على ركبتيه وراح يبكي بعد أن

فقد السيطرة حتى على نفسه وقال ما كان ينبغي إلا يغتال! وبعد ذلك لم تعد ميشال تنام بجواره على الإطلاق. وراحت أثناء النهار تتنقل بين الحجاج تستنهض هممهم.. في حين لجأت عائشة إلى الصمت تاركة القيادة لميشال. وقد تمكنت ميشال من التأثير على الحجاج باستثناء والدتها! حيث أن الحجاج توقفوا مرة لتناول الطعام ففوجئا بموكب سيارات قادم نحوهم. وفي تلك اللحظة هبت السيدة قريشي واقفة تحاول تنظيف ما علق بملابسها من أوساخ وتسوي شعرها .. وانتبهت ميشال إليها وهي تتحسس بوهن بقايا إصبع من أحمر شفاه منصهر.. صاحت بها : (ماذا دهاك يا أمي.. لماذا لا تهدئين من روعك؟) أشارت أمها باتجاه السيارات القادمة.. وبعد لحظات كان مدير المصرف ينتصب أمامهم بقامته الفارعة وملابسه الحادة كانت السيدة قريشي ترتجف بصمت وهو يصيح بها : (هكذا تختفين دون أن تقولي كلمة واحدة ألا تعلمين أنني أشغل منصباً حساساً .. كيف يبدو الأمر الآن وقد شذت زوجتي وبهذه الطريقة؟).. وعندما أخبرته عائشة بالسرطان الذي تعاني منه وبأنها حسب وعد عائشة ستشفى منه تماماً لو ذهبت إلى مكة، ناشدها والدها قائلاً: (دعيني أنقلك بالطائرة إلى مكة) فما كان منها إلا أن أجابت: (ما عليك سوى أن تبتعد .. ووالدتي ستقدم الرعاية) وأعيت الحيلة السيد قريشي وانضم إلى ميرزا سعيد في مؤخرة الموكب بسيارته الليموزين محاولاً أن يقدم المساعدة لابنته وزوجته! عبثاً! وبعد عدة أيام تركهم السيد قريشي عائداً إلى المدينة لمتابعة أعماله.. تاركاً معها أحد سائقي الدرجات النارية..

إلا أن هذا السائق تخلى عن دراجته وانضم إلى موكب المشاة ولم تعلق عائشة بشيء ولكنها ابتسمت ابتسامة شيطانية عريضة جعلت سعيد يتأكد من أنها قبل كل شيء صبية ومن لحم ودم.

وفي اليوم التالي مضت السيدة قريشي باتجاه ميرزا سعيد وراحت تتملقه بعبارات مجاملة لم يجد لها أي مبرر.. وما لبثت أن قالت له: (إنك لا تعلم كم أحبك يا سعيد يا ولدي رغم قسوتي عليك في بعض الأحيان.. وسأؤكد لك بركوبي معك في السيارة!).

مع حلول الأسبوع السابع ابتدأ الحجاج يتعرضون لمضايقات رجال الصحافة والعاملين في السياسة الذين راحوا يساومونهم على ارتداء قمصان تحمل إعلانات من سلع وخدمات متنوعة.

وبعد ذلك وصلت إلى الحجيج مفزعة تفيد بأن تجمعات دينية متطرفة تتهيأ للانقضاض على موكب عائشة لأن فيه إثارة للمشاعر الطائفية. ونشرت مقالات على عائشة وتعتبر قيادتها لذلك الموكب تصرفاً إنما يهدف إلى إشعال الفتن التي لم تخمد بعد.

بعد ذلك فقط تخلت عائشة عن صمتها وأعلنت على الحجاج بأنه لن يكون هناك أية مشكلة.

حلم جبريل بضاحية

عندما اقتربت مسيرة عائشة من بلدة سارانغ هدد رجال الشرطة بمنع المسيرة من دخول المدينة إلا أن السياسيين نصوحهم بألا يقوموا على ذلك حتى لا يتهموا بالتعصب.. فأنذرهم رجال

الشرطة بأنهم لن يكونوا قادرين على حماية المسيرة وتأمين ضمانات السلام لها.

وكانت ضاحية سارانغ غنية بالفحم الحجري وساهمت تجمعات طائفية بتحريض عمال المناجم على القيام بأعمال عنف ضد الحجاج.. وحاول ميرزا سعيد مرة أخرى أن يقنع أهالي تيتليبر بالتخلي عن عنادهم.. فهمست عائشة في أذن ميشال بضع كلمات صاحت ميشال على أثرها: (أفضل لنا أن نموت شهداء من أن نتحول إلى جبناء) وفي تلك اللحظة أصبح سيرينيقاس قاهر الوادي العنيف الرهيب المرتد الخامس في مجموعة المرتدين القابعين في السيارة نتيجة لجبنه.

وفي صبيحة اليوم التالي اختفت أسراب الفراشات من فوق الحجاج واضطرت عائشة إلى ارتداء ساري ديلوي، وقد أدى اختفاء الفراشات إلى إصابة الحجاج بالاكتئاب.

كان جمهرة الغوغاء التي تنادي بوقف المسيرة الإسلامية تتأهب للترحيب بعائشة على طريقتها بعد أن أغلقت الدروب بحطام الدراجات وبقايا العجلات والمقاود التالفة.. وعند وصول المسيرة إلى التقاطع علا في الجو فجأة هزيم رعد حاد أشبه ببوق يوم القيامة وابتدأ بحر من الماء ينهال من المكان وكان من شأن ذلك أن فقد كل الحجاج ومهاجميهم توازنهم.. وقاد ميرزا سعيد سيارته بسرعة هائلة عبر السيل الذي كان يهدر في الطرقات جارفاً معه أشياء لم يتمكن سكان البلدة من إنقاذها. وعندما وصلت السيارة إلى التقاطع أخذ عثمان وسيرينيقاس بسرعة ميشال إختر وعائشة

إلى داخل السيارة حيث انطلق بهما سعيد بأقصى سرعة مبتعداً عن ذلك المكان.. وكانت الأجساد في السيارة تتكوم بعضها فوق بعض بنتيجة السرعة والاضطراب وراحت ميشال إختر توجه الشتائم إلى زوجها من أسفل تلك الكومة من الأجسام صائحة به: (مجرم، خائن، حثالة، بغل) ورد عليها زوجها ساخر: (ليس الاستشهاد بهذه السهولة يا ميشال.. ألا تريدين أن تنتظري حتى ترين البحر ينشطر أمامك كما تتفتح الزهرة).

حلم جبريل بطوفان

كان عمال المناجم في سارانغ بانتظار الحجاج وفؤوسهم في أيديهم.. وعندما عاد الحجاج من حاجز الدراجات لم يتمالكوا أنفسهم من الإيمان بأن الله يقف إلى جانب عائشة.. وحاول بعضهم أن يتقدموا باتجاه الحجاج إلا أن العاصفة تفاقمت حدتها وكأنما قبة السماء أصبحت متحدة مع قبة الأرض. حتى جبريل نفسه الذي كان يحلم، فإن الماء جعل حلمه ضبابياً مبهماً.

توقف المطر وأشرقت الشمس ولكن طرقات سارانغ كانت أقنية تعوم فيها أشياء طافية من الصحف والأزهار والنظارات والنفايات والمصابيح..

وفجأة عادت أسراب الفراشات من مكان خفي وقد تلونت جميعها بلون الشمس وأصيب أهالي سارانغ بذهول لا حد له.

ولم يواجه الحجاج مزيداً من المتاعب مع عمال المناجم إذ أن انهيار المناجم أودى بحياة خمسة عشر ألفاً من العمال وقالت عائشة وهي تغمض عينيها: إنه حكم الله نافذ فيهم للمحاولة

الشريرة التي كانوا ينون تنفيذها ضدنا) صاح بها ميرزا سعيد غاضباً: (إن هؤلاء لم يكونوا عند الحاجز بل كانوا يقومون بعملهم تحت الأرض) فردت عليه عائشة: (لقد حفروا قبورهم بأيديهم).

اقترح ميزا سعيد عليهم أن يعودا بالسيارة من حيث أتوا..ولكن عائشة وميشال لم تصغيا إليه وشرعتا في العودة من الطريق التي ارتأت عائشة أن يعودا منها وكانت مغمورة بمياه الفيضان، قال سعيد لزوجته: (ميشال ناشدت الله.. ماذا أفعل بالسيارة؟) لم تجبه واندفعت تهبط التل وقد استندت بكل ثقلها على عائشة. وبهذا تخلى ميرزا سعيد عن سيارته المرسيدس ايستيشن المحبوبة وتركها في بلدة سارانغ وتابع طريقه ماشياً على قدميه باتجاه بحر العرب. لم يظهر بقية الحجاج حتى ذلك الحين وقال سعيد: (لابد أن يكونوا قتلوا أو غرقوا.. وعلى الأقل فإنهم قد ضاعوا عنا.. وبهذا لم يبق أحد سوانا. لقد انتهت رحلة الحج).

نظرت إليه عائشة.. وعندها قال: (ما عليك إلا أن تنسى الأمر فأنت مهددة بالغرق) وفجأة صاحت عائشة (انظروا) كان أهالي قرية تيتليبر يخرجون من الأخاديد التي حفرها المطر عائدين إلى المكان الذي تشتتوا فيه.. وكانت الفراشات تفرحهم جميعاً.. وكانت أرتال من تلك الفراشات تتقدمهم وكأنهم حبال تنقذهم من آبار سقطوا فيها. قال ميرزا سعيد: (أكاد لا أصدق) ولكنها كانت الحقيقة. وأدعى الحجاج فيما بعد أن الفراشات كانت تحط على إصاباتهم بكافة أنواعها فتشفيها تماماً.. بل إن الفراشات أعادت بعضهم إلى الحياة بعد أن كانوا قد ماتوا غرقاً صاح بهم ميرزا

سعيد: (لا تكونوا أغبياء.. إنما هو الإعصار الذي أنقذكم حين جرف من كانوا يتربصون بكم شراً).. ردت عليه ميشال وهي تشير إلى أكثر من مئة رجل وامرأة وطفل مجللين بالفراشات: (وما الذي يقوله علمك بهذه الظاهرة؟!).

وفي الأيام الأخيرة من رحلة الحج أحاطتهم المدينة بكاملها بما في ذلك ضباط الشرطة الذين نظموا بالتعاون مع ميشال وعائشة خط سير المسيرة في تلك المدينة. وحرصاً على أن يكون هناك بعض المساجد في خط السير ذاك بحيث يستطيع الحجاج أن يهجعوا فيها بدل من أن يعرقلوا حركة المرور. وكانت جمهرة غفيرة من الناس يقفون لمشاهدة الحجاج.. وكان بعض الناس يقدمون لهم الأطعمة والهدايا في حين كان بعضهم الآخر يتسم بالعداء والسخرية. كان ميرزا سعيد قد أصبح في حالة مذهلة من القذارة والإجهاد وكان يبدو محبطاً لفشله في إقناع ما عدا حفنة من الحجاج بأن يعودوا إلى الصواب.. ولقد كانت المعجزات تؤدي لهم خدمات جلى وتمتم سعيد على مسمع من المختار محمد دين: (تلك الفراشات اللعينة.. لولاها لتمكنت من عمل شيء)!.

أصبح واضحاً أن ميشال إختر باتت مشرفة على الموت حيث أصبحت بشرتها بلون حراري.. مما أثار الرعب في قلب سعيد. ومع ذلك فقد أبت ميشال أن تدعه يقترب منها.. ونبذت والدتها وعندما جاء والدها يزورها في أحد مساجد المدينة رفضت الحديث معه وقالت: (لا ينبغي للأتقياء أن يكونوا مع غير الأتقياء) وعندما سمع سعيد كلام زوجته فقد كل أمل باستثناء بارقة

مجحفة في الضآلة وفي يوم الجمعة وافقت عائشة على أن يؤدي الحجاج الصلاة في المسجد .. وفي نهاية الصلاة حدثت جلبة في المسجد فمضى ميرزا سعيد ليطلع حقيقة الأمر.. فرأى وسط الزحام طفلاً رضيعاً في سلة صغيرة وعمره لايزيد عن أسبوعين. وكان من الواضح أنه طفل غير شرعي.. وكان الحجاج في حيرة وارتباك وظهر إمام الجامع وإلى جواره عائشة. وعند ظهورهما انشق الازدحام كما ينشق الغبار. وتفحص الإمام اللقيط وقال: (هذا الرضيع هو ثمرة علاقة شيطانية.. فهو إذن طفل الشيطان) علت همهمة غاضبة بين الناس فصاح ميرزا سعيد: (وما قولك أنت أيتها الكاهنة عائشة؟) قالت عائشة برصانة: (سنسأل عن كل ما لدينا .. وسنعطي كل ما نطلبه!) ولم يكن الناس بحاجة إلى كل ما هو واضح ومن هذا التحريض وقاموا برجم اللقيط الرضيع حتى الموت!!.

وبعد هذه الحادثة رفض حجاج عائشة أن يتزحزحوا من أماكنهم قيد أنملة.. ذلك أنهم لم يقتنعوا في عملية الرجم.. وكانت حالتهم تنذر بالتمرد والعصيان.. وكانت ميشال في تلك الآونة قد بلغت حداً من الوهن جعلها عاجزة عن حض الحجاج على متابعة المسيرة.. وظلت عائشة كما كانت دائماً ترفض المناقشة.. وراحت تحذر القرويين قائلة: (إذا أدرتم ظهوركم لله فإن الله سيدير ظهره لكم ويتخلى عنكم) تجمع الحجاج في إحدى زوايا المسجد الكبير.. ووجد سعيد الفرصة مواتية له وقرر أن يتحدى عائشة بصورة مباشرة.. فتوجه نحوها وسألها: (هل لك أن تخبرينا بالتفصيل

وبدقـة عـن التوجهـات الـتي قـدمها لـك كـبير الملائكـة.. إنـك لم تخاطبينا بكلماته بصورة محددة وإنما كنت تعيدين تفسيرك لتلك الكلمات.. فلماذا هذه المداورة؟ ولماذا لا تنقلين للناس كلماته بالذت وبكل بساطة؟!) أجابته عائشة: (إنه يخاطبني بأسلوب واضح وبطريقة لا تنسى) سألها: (هلا تكرمت وأعلمتنا بطبيعة ذلك الأسلوب..) ردت عليه: (إنه يرتل كلماته على نغمات الأغاني الشائعة). صفق ميرزا سعيد بيده مبتهجاً وأطلق ضحكة ملعلعة تنم عن الانتقام والشماتة.. وشاركه في الضحك عثمان المرتد وراح يضرب على مئزره ويتبختر ويثب ويمرح حول القرويين وهو يغني أحدث أغاني الأفلام السينمائية وهو يقول: (هكذا يغني جبريل..) وبدأ الحجاج ينضمون إلى تلك الرقصة واحداً تلو الآخر وهم يدورون حول عثمان وظلوا على تلك الحال من الرقص في ساحة الجامع تعبيراً عن ضيقهم وخيبة أملهم إلى أن أتى إمام الجامع ركضاً وهو يصرخ احتجاجاً على تصرفهم الذي يتنافى مع اللياقة وقداسة المكان قالت عائشة لميرزا سعيد: (إنك رجل ذكي وتعرف كيف تقتنص الفرص) وكان هذا رداً على مساومة قام بها سعيد حين قال: (ها هي زوجتي تشرف على الموت وهي بحاجة ماسة للوصول إلى مكة المكرمة. وبذلك فإن لكلينا معاً مصالح مشتركة)! كانت عائشة تصغي جيداً لميرزا سعيد الذي استطرد يقول: (إنني لست رجلاً سيئاً يا عائشة ولقد ساهمت بالتأثير بصورة إيجابية في كثير من المواقف على هؤلاء الناس.. لقد مكنتهم من ممارسة تجربة روحية عميقة وهم يواجهون أقصى التحديات وأرجو ألا

تظنين أن أمثالي من ذوي التفكير العصري يفتقرون إلى البعد الروحي) ردت عليه عائشة: (ولكن هؤلاء الناس أنفسهم خذلوني) قال: (إنهم مضطرون ويعانون من الحيرة والشك وستبرز المشكلة بوضوح عندما تصلين بهم إلى البحر ولا يتحقق لهم ما وعدتهم به يا إلهي.. لا شك أنهم في تلك الحالة سينقلبون عليك.. والصفقة التي سأعرضها عليك تتلخص في أن يتكفل والد ميشال وأنا بحيث يدفع كل منا نصف النفقات.. وبحيث نرسلك أنت وميشال وعشرة أو اثني عشرة من القرويين إلى مكة عن طريق الجو.. وستصلون إلى هناك بعد ثماني وأربعين ساعة. الأمر متروك لك باختيار من تريهم مناسبين لمرافقتك في الرحلة.. وبهذا تكونين قد اجترحت المعجزة أمام بعض الحجاج على الأقل.. وذلك خير لك من أن لا تفعلي شيئاً أمام الجميع ووجهة نظري الشخصية هي أن الرحلة بحد ذاتها وحتى هذه المرحلة كانت معجزة بطريقة أو بأخرى وقد أنجزت من خلالها الكثير.. حبس أنفاسه هنيهة بانتظار رد فعل من قبل عائشة التي قالت: (لابد لي من أن أفكر في الأمر) شعر سعيد بالسعادة ومضى يشجعها قائلاً: (فكري واستشيري كبير الملائكة. وإذا وافق فلا بد أننا على صواب).

كان ميرزا سعيد يقدر أنه في حال إعلان عائشة عن موافقة كبير الملائكة جبريل على العرض الذي تقدم به فإن هذا يعني دمار عائشة إلى الأبد لأن القرويين في مثل تلك الحالة يدركون احتيالها وتهورها ولكن كيف يمكن لها أن ترفض ذلك العرض.. وأي خيار يتبقى لديها؟! إن الانتقام لذيذ.. بمجرد أن تفقد هذه المرأة ثقة

الآخرين بها فمن المؤكد أنه سيأخذ ميشال إلى مكة إذا ما ظلت لديها تلك الرغبة.

قبل فجر ذلك اليوم اختفت عائشة من المسجد بعد ليلة مسهدة ولم تظهر ثانية غلا في الصباح، طلبت من الحجاج أن يجتمعوا بعد الصلاة حيث خاطبتهم قائلة: (في الليلة الفائتة زارني الملاك ولكنه لم يبلغني كعادته دائماً.. حدثني عن الشك.. وكيفية استغلال الشيطان لذلك الشك.. قلت له ماذا أفعل؟ إنهم يشكون بي.. فأجاب: لا يقطع الشك سوى اليقين). وبعد ذلك أخبرته بما اقترحه عليها سعيد في أثناء الليل وقالت: (لقد طلب مني أن أسأل الملاك.. ولكني رفضت الإجابة تماماً ودونما سؤال: كيف يمكن أن أفضل واحداً منكم على الآخر.. إما أن نتابع جميعاً أو لا نتابع) سألها المختار: كيف نتبعك بعد كل أولئك الموتى.. وبعد حادثة الرضيع وكل الذي حصل؟) أجابته: (عندما تنشق مياه البحر.. سيظهرون جميعاً وعندها ستدخلون في ملكوت العلى الأعلى). صاح بها ميرزا سعيد: (أية مياه هذه؟ وكيف ستنشق؟) قالت: (اتبعوني.. واحكموا علي بعد انشطار البحر).

تضمن العرض الذي قدمه ميرزا سعيد لعائشة سؤالاً قديماً هو أية عاهرة أنت؟ أجابته لقد تجددت وأصبحت بعيدة عن الشبهات.. مغفوراً لي وتقية!!

كان المد في أوجه عند وصول الحجاج إلى جوار الشاطئ ووقف الحجاج يحدقون للمرة الأولى في حياتهم إلى مياه بحر العرب.

كانت ميشال في ذلك الحين تستند على ذراعي رجلين قرويين، إنها أصبحت عاجزة عن الوقوف لوحدها وكانت عائشة على مقربة منها.

وأدرك القرويون بالحدث أن من الحماقة أن يعودوا بعد أن قطعوا تلك المسافات الطويلة ووصلوا إلى هدفهم الأول. ولقد ثبطت عزائمهم الشكوك الجديدة التي ثارت في أذهانهم.. وكانت الفراشات تصحبهم مرفرفة فوق رؤوسهم. صاح سعيد بعائشة: (والآن يا عائشة لقد جئت بنا جميعاً إلى حافة الفناء.. ترى أين هو ملاكك الآن؟) وقفت على مكان مرتفع وانبرت تخطب قائلة: (يقول جبريل أن البحر شبيه بأرواحنا.. فإذا كانت أرواحنا متفتحة فإن بوسعنا أن نتغلغل في خشم الحكمة وإن استطعنا أن نفتح قلوبنا يصبح بمقدورنا أن نشق البحر)! وما لبثت عائشة أن صاحت بالناس طالبة منهم أن يصغوا وهي تقول هامسة: (الملاك على وشك أن يصل إلى هنا)! لم يستطع الناس الذين كانوا على الشاطئ أن يروا الفراشات كما لم يستطيعوا رؤية ما حدث لاحقاً. إلا أن ميرزا سعيد استطاع أن يلاحظ بمنتهى الوضوح تلك السحابة الهائلة التي كانت تتوهج فوق البحر واتخذت شكل كائن ضخم أشبه بعملاق مشع. وقالت عائشة: (إنكم ترون الملاك الآن ولقد كان يرافقنا طوال الطريق.. فهل صدقتموني؟) ابتدأ الحجاج يبكون.. ويتوسلون إليها كي تسامحهم وتغفر لهم.. وهم يصيحون: (نعم.. نعم إننا نراه إنه جبريل.. يا الله) وبعد قليل ابتدأت تلك السحابة تغير اتجاهها وتغوص في أعماق البحر، وفي تلك اللحظة

راح القرويون يصرخون ويرقصون ابتهاجاً ويصيحون: (الانشطار.. الانشطار) نادى بعض الواقفين ميرزا سعيد وسألوه: (أيها السيد ما الذي يلهب مشاعر هؤلاء الناس؟ إنا لا نرى أي شيء!.

انطلقت عائشة تمشي نحو الماء.. وأما ميشال فقد جرها القرويين بالاتجاه نفسه.. واندفع سعيد نحوها وابتدأ يصارع الرجلين ويصيح بهما: (اتركا زوجتي وشأنها على الفور.. اللعنة عليكما.. ابعدا أيديكما القذرة عنها) بيد أن ميشال همست قائلة: (إنهما لن يتركاني.. ابتعد أنت يا سعيد، إن قلبك مغلق.. والبحر لا ينشق أبداً إلى لذوي القلوب المفتوحة).

وابتدأ القرويون يركضون جميعهم باتجاه الماء وقد حمل الأقوياء منهم الضعفاء والمسنين والأطفال.. وراحوا يلقون بأنفسهم في أحضان الموت.

اندفع ميرزا سعيد باتجاه الماء وهو يصرخ إلى زوجته بأن تعود.. وكان يقف على الشاطئ السيدة قريشي وعثمان والمختار. وكانت السيدة قريشي تنتحب وتقول: (واطفلتاه.. واطفلتاه.. ما الذي سيحدث لك؟) عندها قال عثمان: (عندما يتضح لهم إن ما من معجزة فإنهم سيعودون). سأله سرينقياس: (وماذا عن الفراشات؟ هل كانت مجرد مصادفة؟) كان القرويون يصرخون بعضهم على بعض.. وهم يخوضون غمار الماء في حين كان الواقفون على الشاطئ تحدوهم الرغبة بخوض الماء.. أو على أي شيء.. وكانوا يبدون وكأنهم يرقصون على النار! وصل مفوض الشرطة وسأل:

(ما الذي يجري هنا وعلام كل هذا الهياج؟) صاح به سعيد الذي كان قد خرج لتوه من الماء وهو يلهث: (أوقفوهم.. إنهم سيموتون)!.

وما لبث القرويون أن وصلوا إلى حدود العمق الخطر وتجاوزوه ثم غاصوا تحت سطح الماء وبعد لحظات كان كل حجاج عائشة قد احتجبوا عن الأنظار تماماً. وفي اللحظة نفسها كان كل من سعيد وعثمان والمختار بل وحتى السيدة قريشي يركضون في الماء وهم يصرخون: (النجدة.. ساعدونا أيها الناس الرحمة يا الله).

المألوف أن الإنسان المهدد بالغرق يكافح ويتخبط ويبدي بعض المقاومة لكن عائشة وميشال والقرويون توجهوا بملئ إرادتهم إلى ما تحت الماء واختفوا هناك باستسلام مطلق.

أدرك رجال الشرطة السيدة قريشي وجروها إلى الشاطئ وقد احتقن وجهها وامتلأت رئتاها بالماء.. أما سرينيقاس والمختار فقد سحبهما رجال الشرطة بعد ذلك بقليل وكان الوحيد الذي بقي في البحر طويلاً هو ميرزا سعيد إختر الذي أصر على متابعة الغوص إلى أن تم إنقاذه من بحر العرب بعد أن أغمي عليه كانت تلك هي نهاية رحلة الحج.

استعاد سعيد وعيه في مستشفى تابع لإحدى المعتقلات وقد وجهت السلطات إليه تهمة الترحيل غير المشروع إلى الناجين من مسيرة عائشة، وكلف رجال المباحث بتسجيل أقوال كل منهم على انفراد كي لا تتاح لهم فرصة الاجتماع والتشاور.

كانت إفادة محمد دين المختار كما يلي: (في اللحظة التي كنت فيها على وشك الموت رأيت بأم عيني البحر وقد انشطر ورأيتهم

جميعاً هناك يسيرون بعيداً عني وكانت معهم زوجتي خديجة. أما عثمان صاحب الثور: (كنت في البداية خائفاً من الموت غرقاً ولكنني مضيت أستطلع صحة الأمر.. وكنت مهتماً بمعرفة ما سيحدث لعائشة ورأيت المعجزة الرائعة.. حيث انشطرت أمامهم المياه وراحوا يتابعون طريقهم في قعر المحيط بين الأسماك الميتة)!.

وأقسم سرينيقاس بالآلهة لاكشما أنه شاهد بحر العرب ينشق وأعادت السيدة قريشي على مسمع المباحث القصة نفسها بطريقتها الخاصة وهي تقول: (صدقوا أو لا تصدقوا.. إن ما رأيته عيناي يحكيه لساني..!) وجرب رجال المباحث أسلوباً مغايراً بالتحقيق فأتوا إلى المختار وقالوا له: (أنصت إلينا جيداً ولا تحاول أن تضرط من فمك مرة ثانية.. أناس كثيرون مروا من ذلك المكان ولم ير أي منهم ما تتدعي أنك رأيته وهاهي أجساد الغرقى ابتدأت تطفوا على سطح الماء منتفخة ومنتنة كالجحيم).

فما كان منه إلا أن قال: (تستطيعون أن تفعلوا ما تشاؤون.. أؤكد لكم أني رأيت ما رأيته) وتجمع رجال المباحث حول ميرزا سعيد إختر بمجرد أن استعاد وعيه وسألوه: (ما الذي شاهدته) فاعترض على سؤالهم.. وقال: (كيف تجرؤون على توجيه الأسئلة لي.. لقد غرقت زوجتي فلا تعذبونني بأسئلتكم)!!. عندما اكتشف ميرزا سعيد أنه الناجي الوحيد بين حجاج عائشة الذي لم يلاحظ عملية انشطار الموج وعندما أخبره سرينيقاس بما شاهده هو والآخرون مضيفاً أنه لعار علينا أن لا نكون جديرون بصحبتهم ولقد أغلق الطريق المائي في وجهنا كما تغلق بوابات الفردوس.

ظل ميرزا سعيد يبكي ثمانية أيام ولياليها وبعد أن جفت مآقيه من الدموع ظل ينشج بعد ذلك.. وظل جسده يرتعش زمناً طويلاً وبعدها عاد إلى منزله.

كانت العت قد أتلف كل شيء والتهمت الديدان المكتبة.. وعندما حاول أن يفتح صنابير الماء كانت تتسلل منها الأفاعي.. وقد تحول سريره الضخم إلى مأوى للحشرات والزواحف.. وكأن قروناً طويلة انقضت في أشهر قليلة.

وامتلأت الحمامات بالضفادع ذات العيون والقرون. وكانت بنات أوى تأتي ليلاً لتعوي مع هبوب الريح وقد يبست الشجرة الكبيرة وأصبحت الحقول قاحلة.

عاد ميرزا سعيد إلى بيرستان وفتح الأبواب الصدئة.. ثم مضى فوراً إلى الهاتف وقطع أسلاكه لأنه لم يعد يأبه بشيء ولم يعد يريد أن يتصل به أحد !! وبعد مرور أيام انتبه إلى أنه يشرف على الموت جوعاً حيث قام بالبحث عن الطعام.. الأفضل أن أجلس على ذلك الكرسي.. ولا أفكر وفي الليلة الأخيرة من حياته كان هناك من يسحق أوراق الشجر بقدميه. وشم رائحة قوية اكتشف على أثرها أن الشجرة الكبيرة ابتدأت تحترق وما لبث جذعها أن تناثر إلى ألف شظية. وراح يمشي إلى المكان الذي رأى فيه عائشة للمرة الأولى في حياته.. استلقى هناك فوق التراب الجاف وقبل أن تغمض عيناه أحس بزمرة من الفراشات تحاول التسلل إلى فمه.. غمره ماء البحر ووجد نفسه بجوار عائشة التي خرجت بأعجوبة من جسد زوجته وانبرت تصيح به: (هي! افتح قلبك بأقصى سرعة) ولكنه لم

يستجب لها وكان قلبه بصدمة ورأى مركبات حديدية وكل يوشك على الغرق.. وكانت هي تغرق معه أيضاً .. ورأى الماء يخرج من فمها وانتفخ.. وانشطر جسده إلى نصفين من عنقه حتى أعلى فخذيه.. وأصبح وضعها أن تتلمس المحق المحاقة.. وانفتحت هي بدورها وتبعها الجميع.. وفي تلك اللحظة انشقت المياه وساروا إلى مكة على أرض العرب.

الفصل التاسع

عاد صلاح الدين شمشا إلى بيت أبيه ليكتشف أن أباه قد ابتلى بداء عضال وقد أخبرته نسرين الثانية زوجه أباه بحالته قائلة: (ابتدأ وزنه يتناقص ويشكو من بعض الآلام في ركبتيه منذ سنتين.. وكنا عزونا تلك الأعراض إلى الشيخوخة ولم نكن على الإطلاق نتصور أنه مصاب بهذا الداء الخبيث المخاتل).. انضمت أليهما كاستوبرا المربية السابقة وكانت ما تزال ترتدي ملابس والدته.. وقد حيت بدورها صلاح الدين واحتضنته وقبلته والدموع في عينيها وهي تقول: (إنني مازلت متفائلة بحدوث معجزة تنقذ والدك.. إنه مازال يتنفس) وبعد ذلك تعانقت المرأتان.. وأرخت نسرين الثانية رأسها على كتف كاستوبرا.. وكان من الواضح أن مودة عميقة نشأت بينهما.. وكأنما هذا الجو الذي يخيم عليه الموت قد غسل كل ما كان سبباً من غيرة.. وخلافات وحساسيات. وبعد قليل التفتت نسرين إلى صلاح الدين وهتفت به: (هيا بنا ينبغي أن يراك والدك بسرعة) سألها: (هل يعرف حقيقة مرضه) أجابته: (إنه ذكي.. وهو يوجه إلينا كثيراً من الأسئلة.. ويردد القول أن هناك مرضين فقط يؤديان إلى فقر الدم الذي أعاني منه.. أحدهما هو السل ولكنه لا يذكر المرض الثاني). خفضت نسرين بأسى فسألها صلاح: (أليس من الأفضل أن يطلع على الحقيقة؟) فصمتت هنيهة وقالت: (ربما تكون على حق فيما تقول).. لكن

كاستوبرا تدخلت صائحة بجزع: (كلا.. كيف نخبر ذلك المريض بحالته.. إن ذلك حري بأن يصيبه بالانهيار!).

كان السرطان قد فعل فعله في جسم العجوز شانجير إلى حد أن قلبه أصبح أوهى من أن يؤدي وظيفته وأدرك صلاح الدين أن والده قد يموت من مضاعفات المرض. وقبل أن يفتك به المرض بنفسه.. ذلك أنه قد يموت من التهاب الرئة أو من القصور الكلوي.. ولقد قرر الأطباء أن يمكث في منزله بانتظار النهاية المحتومة لأن حالته لم تكن قابلة للعلاج لا بالأشعة ولا بالأدوية الكيميائية.. ووصفوا له دواءً وحيداً على شكل أقراص تبطئ فقط من انتشار المرض! وقالت كاستوبرا: (رغم كل شيء فهناك معجزة في حالة والدك حيث أنه من المعروف أن مثل هذا المرض يسبب آلاماً لا تطاق.. بينما هو لا يتألم.. وربما لأننا نصلي من أجله فقد حلت عليه الرحمة).

طلب صلاح الدين أن ترافقه لمشاهدة والده وعندما دخل إلى الغرفة بهدوء لاحظ أن عيني والده كانتا مفتوحتين تحملقان بجمود إلى سقف الغرفة.. فظن أنه ميت.. لكن العجوز سعل عدة مرات والتفت إلى ناحية الباب وما لبث أن مد ذراعه باتجاه ولده! فسارع صلاح الدين وانحنى على ذراعه الممدودة مصافحاً يده.

إنه لمشهد جميل لقاء الابن بأبيه بعد عقود من القطيعة والغضب. وانتبه صلاح إلى أن والده قد تحول تقريباً إلى هيكل عظمي بحيث تحولت وجنتاه إلى تجاويف عميقة.. وفكر صلاح

الدين أنه من الصعب بمكان أن يتعرف الإنسان إلى والده في اللحظة نفسها التي يودعه فيها.

وفي صبيحة اليوم التالي لقدوم صلاح الدين طلب منه والده أن يحلق له لحيته وهو يقول: (هاتان المرأتان لا تعرفان كيف تستعملان آلة الحلاقة الكهربائية).. وقد لبى رغبة والده.. وكانت المرأتان تتأملان ذلك المشهد وعلقت كاستوبرا بالقول: انظري كيف أنه لا يبعد عينيه عن ولده!).

وفي أثناء النهار طلب صلاح من المرأتين أن تولياه هو بمهمة إعطاء الأدوية لوالده وتمضيان للراحة في جناحهما الخاص! فوافقتا على ذلك برحابة صدر، وقام صلاح الدين في ذلك اليوم بجولة في المكتبة والردهات.. ولاحظ أن ذلك المصباح النحاسي مايزال في مكانه على أحد الرفوف في غرفة المطالعة.. وأحس برغبة في أن يتناول ذلك المصباح ويدلكه ثلاث مرات على أمل أن يبرز له ذلك الجني أو العفريت ويحقق له أمانيه ولكنه لم يفعل ذلك وبقي المصباح في مكانه.. بدلاً من ذلك توجه إلى غرفة والده لإعطائه الدواء!.

غابت المرأتان في غرفتهما الخاصة في تلك الليلة، في حين جلس صلاح الدين في غرفة والده يتأمله ويرعاه.. ونام العجوز ثلاث ساعات.. ثم طلب التوجه إلى المرحاض. فساعده صلاح على النهوض ولاحظ مدى النحافة التي ألمت بوالده في تلك الأثناء.. وقارن نحافته تلك بالوزن الزائد الذي كان عليه قبل المرض. وعندما وصل العجوز إلى المرحاض رفض أن يقدم له صلاح أية

مساعدة.. وقد علقت كاستوبرا على ذلك بقولها: (إنه دائماً هكذا.. يرفض أن يدع أي شخص يقدم أي عون.. يا له من رجل خجول)!.. في أثناء عودته كان يستند بيده بخفة على ذراع ابنه!. واستولت على صلاح في تلك اللحظة الرغبة في أن يحتضن والده ويهدهده.. ويغني له.. ولكنه قاوم تلك الرغبة وقال: (بابا لقد جئت على أمل بأن يتلاشى كل ما بيني وبينك من خلاف وحساسيات) عندئذ شد شانجير بقبضة يده برفق على ذراع صلاح وأجاب: (لم يعد لهذه المسألة أي اعتبار.. لقد عفى عليها الزمان.. أياً كان شأنها!).

وفي الصباح أقبلت نسرين وكاستوبرا في ثياب نظيفة وكان يبدو عليهما الراحة.. إلا أنهما اشتكتا من أنهما لم يغمض لهما جفن طوال الليل لأن ابتعادهما عن شانجير كان مزعجاً لهما للغاية.. وانهالت المرأتان على العجوز لثماً وتقبيلاً.. وذلك فقد ابتعد صلاح ليخلي لهما الجو للتعبير عن حبهما لوالده.

وفي اليوم التالي كان لسان العجوز قد تورم.. وأصبح يعاني من صعوبة في الكلام وفي ابتلاع أي شيء.. وبالتالي فقد رفض تناول كل الأطعمة التي قدمت له.. واكتفى بقليل من الحساء والبطاطا المهروسة وقليل جداً من (الكسترد).. وفي ذلك اليوم بالذات طلب ألا تبقى الأبواب مغلقة في وجه أحد، قائلاً: (أريد أن أرى بعض الوجوه المستبشرة.. ولقد أتعبتني وجوهكم الحزينة المتجهمة).

وقد توافد في ذلك اليوم كثير من الأقارب والأصدقاء من كافة النوعيات وبعد مغادرة كل أولئك الناس الذين التقط بعضهم صوراً

تذكارية مع الرجل المحتضر.. قال صلاح الدين للمرأتين: (لابد لنا من أن نخبره بحقيقة مرضه)!.

ولقد تم لصلاح ما كان يريده في صبيحة اليوم التالي.. حيث طلبوا من طبيبه الاختصاصي (بانيكار) أن يقدم ليجيب على كل ما يخطر على بال المريض من استفسارات وتساؤلات!.

وبعد رحيل الطبيب.. دخلوا جميعاً ليراقبوا رد فعله فقال لهم: (إنني مصاب بالسرطان.. والإصابة متقدمة كثيراً!.. إذ أن ذلك لا يدهشني.. وقد قلت لكم منذ البداية أنني لابد وأن أكون مصاب بمرض خطير وإلا لما تعرضت لمثل هذه الفاقة الشديدة في الدم) وعندما خرجوا من الغرفة قالت كاستوبرا لصلاح: (في اللحظات الأولى من قدومك أشرقت عيناه في بريق عجيب.. أما الآن فقد أصبحتا كامدتين تماماً.. وأظن أنه لن يقاوم طويلاً)!.

وفي المساء وجد صلاح الدين نفسه وحيداً مع والده.. حيث كانت المرأتان هاجعتين.. قال له شانجير: (أريدك أن تعلم أنني غير مضطرب.. ذلك أن الإنسان مهما عاش فلا بد له من أن يموت.. عاجلاً أم آجلاً.. ولابد وأن يكون لموته سبباً ما.. وأنا شخصياً لا أموت في سن الشباب.. ليست لدي أوهام فيما يتعلق بالمكان الذي سأمضي إليه.. فلن يكون هناك أي مكان.. إنها نهاية كل شيء بالنسبة لي. ولا أعترض على ذلك الشيء الوحيد الذي أخشاه هو الألم.. لأن الألم يفقد الإنسان هيبته واحترام الناس له.. وأريد أن لا أتعرض لمثل هذه الحالة!) وحيال هذه الكلمات أحس صلاح الدين بصوت غامض.. بقدر ما أحب والده وهو يتفوه بتلك

الكلمات بقدر ما كانت تلك الكلمات دروساً له فما كان منه إلى أن رد على والده بالقول: (إن الأطباء مجمعون على أن حالتك استثنائية تماماً.. وإنها حالة من مليون حالة.. ويبدو أنك لن تعاني أي ألم على الإطلاق!) وشعر صلاح بأن والده مرتاح لسماعه هذا الرأي حيث سمعه يقول: (إذاً فأنا جاهز.. بالمناسبة.. تستطيع أن تمتلك المصباح حينما ينتهي الأمر)! وبعد ساعة من ذلك اللقاء أصيب العجوز بنوبة إسهال حادة لم ينفع فيها أي علاج.. بالإضافة إلى أنه كان يرفض تناول أي طعام.

وفي الساعة الثالثة أصبح شانجير في منتهى الضعف.. وقرر صلاح الدين نقله إلى المستشفى على الفور.. إذ أن تنفسه أصبح متحشرجاً وقد علق هو على ذلك بالقول: (إن بعض إصابات السرطان تنتشر ببطء.. ولكنني أعتقد أن إصابتي من النوع السريع جداً) قال له صلاح كذباً: (لا تقلق يا أبي فستكون على ما يرام.. ولكن الوالد هز رأسه وهو يقول: (إنني رجال يا ولدي) وابتدأ صدره يعلو ويهبط وابتدأ يتقيأ. وكان قيؤه مشوباً بالدم.. ونقلوه على جناح السرعة إلى مستشفى غير بعيد عن منزله.. وسجي في أحد الأجنحة على سرير.. وكانت النوافذ مغلقة.. وسأله صلاح: (هل أفتح لك النوافذ يا أبي؟) قال الوالد: (لا) ولم ينتبه صلاح إلا بعد زمن ليس قصير إلى أن تلك كانت آخر كلمة تفوه بها والده.

أعيد نقل شانجير إلى منزله مسجى على حمالة معدنية في سيارة إسعاف.. وبعد أن قام أحد الرجال بغسله راح يدس في فمه قطعة صغيرة من قماش أسود.. وقال لصلاح: (هذا القماش

مقدس.. إنه جلب من مكة).. صاح به صلاح: (أخرجه من فمه على الفور) رد عليه الرجل مستغرباً: (إنني لا أفهم ما تعنيه لقد قلت لك إنه قماش من مكة) صرخ به صلاح بصوت أكثر ارتفاعاً وحدة: (أنت تفهم ما أعنيه تماماً.. لقد قلت لك أخرجه من فمه بسرعة وعلى الفور) قال الرجل بأسى: (ليرحم الله روحك!) وفي النهاية تم دفن شانجير شمشا والي.. وقام صلاح بإنزاله إلى ذلك القبر الذي اختير ليكون مثواه الأخير.

كتب أحدهم يقول: (إننا لا نثبت أن العالم هو مكان حقيقي إلا عندما نموت فيه)!.

عندما عاد صلاح الدين من المقبرة كان بانتظاره ذلك المصباح النحاسي الذي ورثه عن أبيه. وقد دخل إلى غرفة المطالعة وأغلق الباب وراءه.. ومالبث أن تناول ذلك المصباح وجلس على منضدة أبيه.. وأخرج من جيبه منديلاً دلّك به المصباح بشدة ثلاث مرات..

أضيئت الأنوار في الغرفة ودخلت إليها زينات وكيل وهي تقول بصوت مطلع: (يا إلهي.. لعلك كنت ترغب بأن تظل الأضواء مطفأة.. ولكن الجو هنا كئيباً للغاية.. إنني آسفة لكوني لم آتِ لرؤيتك من قبل.. يا له من وقت ويا لها من مناسبة.. على أي حال إنني مسرورة برؤيتك أيها اليتيم المسكين!).

كانت زينات كما شأنها على الحياة مهتمة فيها بكل جوارحها وفهم منها أنها مازالت كعادتها تحرص على حضور المحاضرات المتعلقة بالفنون وتمارس عملها في المستشفى نفسه الذي توفي فيه والده بالإضافة إلى نشاطها السياسي! قالت له: (لقد كنت في

المستشفى وقت قدومك.. ولكنني لم أعلم بوفاة والدك إلا بعد فوات الأوان.. كم أنا سافلة.. تستطيع إذا شئت أن تطردني، ولن أعترض على ذلك!). لقد كانت امرأة معطاء.. كثر النساء اللواتي عرفهن في حياته كرماً وعطاءاً. أجابها في منتهى العفوية (إنني أحبك!) ردت عليه (حسناً لن أرد عليك بهذا الخصوص) وكانت السعادة تطفح من وجهها وهي تتابع: (المهم هو أن تستعيد توازنك النفسي.. فمن الواضح أنك مضطرب! وعلى أي حال فإذا كررت هذه العبارة عن قناعة بعد أربعين يوماً من الآن - وعليك أن تكون حذراً - فإنني سآخذ الأمر على محمل الجد.. أما الآن فقد يكون ما تعنيه مجرد عرض عرضي!).

بدت له حياته في إنكلترا، بكل ما فيها من معاناة وقسوة.. وكأنما عفى عليها الزمن.. وهاهو الآن يبدأ حياة جديدة.. مشعة ومشرقة لا يلهبها إلا الموت يبدأها يتيماً شأنه في ذلك شأن محمد والآخرين.. حياة متوهجة كمصباح سحري.

لقد أصبح الآن رجلاً غنياً بكل ما في الكلمة من معنى ذلك أنه بناء على وصية والده، أصبح له العصمة في جزء الأرباح التي تدرها المشاريع التجارية. وأما ما تبقى فقد أوصى والده بأن يقسم بالتساوي بين زوجته الثانية نسرين.. والمربية كاستوبرا.. وفكر صلاح أنه بعد وفاة المرأتين سيؤول كل شيء إليه دون غيره. وأما المنزل القديم فكان من نصيب كاستوبرا التي كان يعتبرها والده (جزءه الثالث) وقد صرحت كاستوبرا على الفور بأنها ستبيع ذلك المنزل لهواة المنازل القديمة وقد اعترض صلاح الدين على ذلك

بحدة لأنه أحس بأن في ذلك من الإهانة ما فيه لذكرياته وذكريات والده ووالدته.. إلا أن زينات هدأت من روعه قائلة: (دعك من هذا كله إنك لن تستطيع على أية حال أن تعيش في منزل هو أقرب إلى المتحف منه إلى البيت)، وأحس صلاح بأن زينات على حق.. ووطن نفسه على أن ينسى كل ما يتعلق بالماضي.. وألا يفكر إلا بالمستقبل وجمعته زينات مرة ثانية بالأصدقاء الذين التقاهم في زيارته الأخيرة لبومباي.. والذين سمع منهم لأول مرة بعودة جبريل فاريشتا إلى بومباي ومحاولته لاستعادة ماضيه التليد فيها.

وفهم صلاح الدين بأن جبريل يحاول أن يمسك بطرف الخيط الذي يوصله إلى المجد الذي أحرزه حين كان في بومباي.. مجد النجم السينمائي الفائق.. وإن هناك إشاعات عن إصابته من جراء فشله في الحب ومن جراء نبذ (آليلويا كون) له بعد ذلك الحريق الذي شب في بيزكهول.

كذلك علم صلاح بأن جبريل وضع كل إمكانياته لإنتاج فيلم يدور حول قصة دينية تاريخية لكنه ينوي أن تظهر كافة شخصيات تلك الحكاية التراثية بأزياء معاصرة.. ولذلك فقد تخلى عنها معظم الذين وقعوا العقد معه لأن ذلك في نظرهم نوع من التجديف والزندقة. والأغرب من كل شيء أن جبريل عادت إليه حالة البخر والأنفاس ذات الرائحة الكريهة. والأسوأ من كل شيء أن مجموعة من ضباط الشرطة حققت معه بشأن موت ريخا ميرثانت.. وأن زوج ريخا ملك الرولمانات أقسم بأنه سيحطم عظامه في اللحظة

التي يقابله بها ولذلك فقد أصبح جبريل يصطحب معه حرساً خاصاً أين ذهب وحيثما توجه.

وبعد يومين كان صلاح يتصفح إحدى الصحف وفوجئ بخبر مفاده أن مجموعة من متسلقي الجبال في طريقهم إلى الهند لمحاولة الوصول إلى (القمة الخفية) في جبال هيمالايا وأن من بين هؤلاء تلك المتسلقة المشهور ملكة إيفرست الآنسة آليلويا كون.. وعند الانتهاء من قراءة ذلك الخبر أحس صلاح بأنه ملاحق.. واعتراه شعور بأن الأشباح تطارده وأن هناك حلماً مصيرياً يتعلق به.. وتسير المرحلة المنطقية لتحققه ببطء. وقال في نفسه: (لقد أصبحت الآن أعرف ما هي حقيقة الأشباح.. إنها مشاريع لم تتحقق نهاياتها المقدرة لها).

ولقد وصلت آليلويا كون بالفعل إلى بومباي بعد يومين من ذلك التاريخ وقد فهم صلاح من ذلك أنها شفيت تماماً من حالة الهبوط في قوى قدميها، في الوقت نفسه الذي انتهت فيه علاقتها مع جبريل، وحدث صلاح نفسه: (ترى ما الذي أتى بها إلى هنا؟ لابد وأن مصيراً محتوماً ومأساوياً ينتظرها في هذه المدينة). أما زنيات وكيل فقد كانت في تلك المرحلة قلقة بشأن أنشطة صلاح الدين الذي كان قد انغمس حتى أذنيه بأنشطة سياسية متبلورة الأطر والأهداف.. وقالت له مرة: (إذا كنت جاداً أيها العزيز صلاح الدين في أن تنفض عن نفسك ذلك الانتماء الأجنبي.. فأرجوا أن تكون حذراً في ألا تتوصل إلى حالة أقرب إلى عدم التحرر وعدم الانتماء.. والحل هو أن تحتضن هذه المدينة - مدينتك - وتقبلها بكل

ما فيها من أخطاء ونواقص.. يجب أن تسعى لأن تصبح واحداً من أهلها.. وأن تنتمي إليها كما هي، لا كما ينبغي أن تكون!).. وفي لحظة من اللحظات وجد صلاح نفسه بعد أن تركته زينات وحيداً يفكر: (ترى هل يسعى للقاء جبريل؟... هل يتصل هاتفياً بآليلويا؟) وأحس وهو يطرح على نفسه تلك التساؤلات أن هناك شيئاً ما يوشك أن يحدث.. لكنه لم يكن يعرف حقيقة ذلك الشيء، وكان عاجزاً عن أن يتصرف ليمنع حدوثه.. ولكنه كان واثقاً من أن ذلك الشيء سيكون أمراً سيئاً للغاية.

وفي اليوم التالي تناقلت الصحف نبأ العثور على جثة المنتج السينمائي المعروف والبارز س. س. سيسوديا ملقاة على الأرض في شقة النجم جبريل فاريشتا بعد أن أطلقت عليه رصاصات مسدس إلى قلبه مباشرة.. نقلت الصحف في الوقت ذاته نبأ اختفاء جبريل نفسه وأنه أصبح في عداد المشتبه بهم أو بالأحرى إنه المشبوه الأول.. خاصة بعد أن وجدت جثة آليلويا ملقاة على الأرض خارج منزله.. قال صلاح لزينات: (لا أدري لماذا تراودني الرغبة في أن أبتعد عن هذه الأجواء المشحونة.. ويخطر لي أن أعتكف في المنزل القديم في منطقة الفضائح) وهذا ما حدث بالفعل!.

بينما كان يمد رأسه إلى بحر من نافذة تلك الغرفة التي أحبها في يوم من الأيام في طفولته المبكرة، طرقت كاستوبرا عليه الباب بطريقة ملحة وهي تقول له: (لقد حضر رجل يطلب مقابلتك.. إنه ذلك المسمى جبريل.. جبريل فاريشتا الذي تتحدث عنه الصحف.. وأنا خائفة ولا أدري ماذا أفعل.. أدخلته إلى غرفة المطالعة وهو

ينتظر الآن هناك.. ولكن ربما كان من الأفضل لك ألا تقابله.. بل اطلب الشرطة.. إنه لأمر مفزع).. رد عليها صلاح: (لا.. لا.. لا تطلبي الشرطة وسأذهب لأراه)!.

كان جبريل يجلس على حافة سرير شانجير وهو يمسك بيديه ذلك المصباح القديم.. وكانت ملابسه متسخة.. وتبدو عليه سيماء التشرد.. والقلق واضح في عينيه.. أشار إلى مقعد مجاور وخاطب صلاح قائلاً: (اجلس بجواري واسترح أيها المدلل) جارف صلاح وقال له: (إن مظهرك مزرٍ للغاية) رد عليه جبريل: (إخرس.. واجلس واستمع إلى ما سأقوله لك!).

حدث صلاح نفسه قائلاً: (إذاً فأنت الذي فعلتها.. أنت الذي قتلت كلاً من سيسوديا وآليلويا كون).

أغمض جبريل عينيه وانطلق يتكلم دون توقف ولكنه كان متلعثماً: (الذي حدث أنهما عندما جاءا لزيارتي.. لم أكنت متمالكاً لنفسي.. كنت دائماً أحس أن جزءاً مني يقف خارج جسدي يوجه إلي الأوامر.. أما أنا فكنت أعي أني ملاك الله.. جبريل المنتقم.. ملاك الانتقام.. الانتقام من نفسي أولاً لكوني كائناً بشرياً.. ثم الانتقام من النساء.. من كل ما هو أنثوي.. ولقد اصطحبها ذلك الرجل.. ولم يكن ينوي الإساءة إلي.. ولكنني في تلك اللحظة ابتدأت أسمع تلك الأشعار تنطلق من أعماقي.. ووجدتها تتحول أمام عيني.. فوجهت إليها الشتائم البذيئة (أيتها العاهرة) هكذا خاطبتها.. ووجدت نفسي على غير وعي مني أطلق رصاصة إلى قلب الرجل.. وفي تلك اللحظة كانت ريخا تطير أمامي على

بساطها .. إنك تتذكر ريخا بلا شك.. وكان رأي ريخا أن أصطحب المرأة إلى أعلى البناء.. وعندما يصبح الإنسان في القمة.. لا يبقى أمامه إلا الهبوط.. إنني لم أدفعها .. بل كانت ريخا هي التي دفعتها .. ما كان بوسعي أنا أن أفعل ذلك.. هل تستطيع أن تفهمني أيها المدلل؟ يا للجحيم.. لقد كنت أحب تلك الفتاة!!).

فجأة كان هناك من يطرق الباب بعنف ويصيح: (افتحوا الباب) وصاحت كاستوبرا: (إنهم من الشرطة)، إذن لقد فعلتها يا كاستوبرا واستدعيت رجال الشرطة.

رفع جبريل غطاء المصباح العجيب.. وما لبث أن أسقطه على الأرض حيث صدرت قرقعة شديدة مزعجة.. كان مخبأ مسدساً في قلب المصباح.. وتوقف من كان يطرق الباب هنيهة.. فصاح صلاح بمن في الخارج: (انتبهوا .. هناك رجل مسلح في هذه الغرفة) تناول جبريل المصباح وفركه بيديه واستخرج منه المسدس بسرعة.

أصبح صلاح كمن يقف خارج ساحة الأحداث.. شأنه في ذلك شأن جبريل الذي كان من دون شك يتعرض لهجمة من هجمات مرضه العقلي.. خاطبه جبريل قائلاً: (لقد أخبرتك منذ زمن طويل.. بأن هذا المرض لن يفارقني.. وإنه سينكص.. وإنني لن أكون قادراً على احتماله ولا على التخلص منه).

كان صلاح الدين يقف جامداً.. عاجزاً عن الإتيان بأية حركة.. ولقد حاول أن يفعل شيئاً ولكن قبل أن يتمكن من تحريك يده وجه

جبريل المسدس باتجاه فمه تماماً.. وباتجاه نفسه وضغط على الزناد.. وفي تلك اللحظة تحرر من كل شيء!.

وقف صلاح عند النافذة يتأمل بحر العرب.. وكان القمر بدراً.. وكان نوره يشمل الشاطئ بكامله وصولاً إلى خط الأفق.. وحدث نفسه قائلاً: (ليذهب هذا المكان بكل ما فيه إلى الشيطان.. وليأت البلدوزر ويقلعه من جذوره!) وفي تلك اللحظة كانت زينات وكيل تخاطبه من وراء ظهره: (هيا يا صلاح!.. تعال نذهب إلى بيتي.. دعنا نخرج من هنا بحق الجحيم)! أجابها: (سآتي معك) واستدار مبتعداً عن ذلك المكان!.

النهاية

#1 NEW YORK TIMES BESTSELLER